

2/2
C-2/2
C-2/2

معالم الحضارة في الشعر الأندلسي / محضر بني أمية

(١٣٨-٤٢١ هـ / ٧٥٦-١٠٣٩ م)

2/2
C-2/2
C-2/2

إعداد

فريال عبد الرحمن العلي

المشرف

الأستاذ الدكتور ناصح الطين الأسد
مكتبة الجامعة الأردنية
المشرف المشارك
من الأساتذة الدكتور صلاح جزار

قدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراه في

اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

تحتّم كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع التاريخ ٢٠٠٣/٥/١٠

كانون الثاني / ٢٠٠٣ م

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٠٠٣/١/١٣ م، وأجازها كل من:

- الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد / مشرفاً


.....

- الأستاذ الدكتور صلاح جزّار / مشرفاً مشاركاً


.....

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الجامعة الاردنية

- الأستاذ الدكتور محمود السمره / عضواً


.....

مركز أبحاث الرسائل الجامعية

- الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي / عضواً


.....

- الأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن / عضواً


.....

(جامعة اليرموك)

شكر وتقدير

عالم الشكر والعرفان لأستاذي المشرفين؛ الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد والأستاذ الدكتور صلاح جرّار على ما بذلا من جهد في توجيهي ونصحي وإرشادي إلى ما يليق بالبحث العلمي أن يكون.

وكلّ الشكر والتقدير لأعضاء لجنة المناقشة الأفاضل: الأستاذ الدكتور محمود السّمرة، والأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي، والأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن، على تفضلهم بالموافقة على مناقشتي، وإفادتي بملاحظاتهم وتوجيهاتهم لإغناء هذه الدراسة. مكتبة الجامعة الأردنية مركز أيداع الرسائل الجامعية

والشكر والعرفان للأستاذ الدكتور إحسان عباس على تلبية السماح لي بالاطلاع على ما حوت مكتبته من مصادر ومراجع، وصبره على غياب كتبه عنه شهوراً طويلة.

وأخيراً؛ صادق الشكر والتقدير لكلّ من ساعدني في إنجاز هذه الدراسة.

الباحثة

ملخص

معالم الحضارة في الشعر الأندلسي / عصر بني أمية (١٣٨ - ٤٢١ هـ / ٧٥٦ - ١٠٣٩ م)

المطابع

فريال عبد الرحمن العلي

المشرف

الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد

المشرف المشارك

الأستاذ الدكتور صلاح جرّار

تناول هذه الدراسة معالم الحضارة في الشعر الأندلسي منذ عهد تأسيس الإمارة (١٣٨ هـ / ٧٥٦ م) إلى نهاية سقوط الدولة الأموية في الأندلس (٤٢١ هـ / ١٠٣٩ م) .

مركز أيداع الرسائل الجامعية

وخلصت هذه الدراسة التي تناولت المجتمع الأندلسي في تحضره وثقافته ومدنيته - من خلال ما وصل إلينا من نصوص شعرية - إلى أن الشعر الأندلسي كان شاهداً على جوانب من حضارة ذلك العصر ورافداً من روافده، ولكن قلة النصوص الشعرية التي بين أيدينا بسبب ضياع الكثير من مؤلفات ذلك العصر ودواوين شعره، وتجنب المؤرخين إيراد أخبار العوام في طيات مؤلفاتهم، أبقى بعض جوانب تلك الحضارة غامضة، مع أن الإشارات التاريخية المتناثرة في المصادر تؤكد اعتناء الشعراء الأندلسيين بمختلف جوانب حضارتهم واعتزازهم بها.

وقد اتكأ الشعر الأندلسي - في أول الأمر - على الشعر المشرقي أساساً في شكله ومضمونه؛ إذ كان فرعاً من فروعه ووليداً من صلبه، إلا أنه بدأ ينزع نحو الاستقلال منذ بداية القرن الرابع الهجري متأثراً بالتطور الحضاري، وبرز التزعة الأندلسية التي غذّاها الخليفة الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) من بعده.

الفهرس

- قرار لجنة المناقشة ب
- شكر وتقدير ج
- الملخص/ باللغة العربية د
- الفهرس هـ
- المقدمة ١
- التمهيد ١٠

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
معالم التخصر في الشعر ايداع الرسائل الجامعية

- المبحث الأول: العلاقات الاجتماعية ٥٩-٢٢
 - أولاً - مكانة المرأة في المجتمع ٢٢
 - ثانياً - المجالس الاجتماعية ٣٨
 - ثالثاً - الرياضات الجسدية والذهنية ٤٤
- المبحث الثاني: العادات والتقاليد ٨٦-٦٠
 - أولاً - الاحتفال بالأعياد والمناسبات ٦٠
 - ثانياً - اللباس والزينة ٦٩
 - ثالثاً - الطعام والشراب ٧٦

- الفصل الثاني

معالم الثقافة في الشعر

- المبحث الأول: النشاط الفكري والعلمي ١٣٥-٨٨

- أولاً - المناخ الثقافي السائد ٨٩
 ثانياً - العلوم النظرية ٩٧
 ثالثاً - العلوم الدقيقة ١٠٧
 رابعاً - الكتب والمكتبات ١١٩

٢٠٠-١٣٣

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الجامعة الاردنية

مركز ايداع الرسائل الجامعية

- المبحث الثاني: الفنون

- أولاً - فن العمارة ١٣٣
 ثانياً - الفنون التشكيلية ١٦٣
 ثالثاً - الفنون الموسيقية ١٧٢

- الفصل الثالث

معالم المدنية في الشعر

- المبحث الأول: النظم والمراسم ٢٤٠-٢٠٢

- أولاً - النظام السياسي والإداري ٢٠٣
 ثانياً - النظام العسكري ٢١٥
 ثالثاً - نظام التشرifications ٢٢٥

٢٦٠-٢٤١

- المبحث الثَّاني، النشاط الاقتصاديّ

٢٤٢

أولاً - الفلاحة والرّيّ

٢٥٣

ثانياً - الحرف والصناعات

- الفصل الرابع

الدراسة الفنيّة

٢٦٢

أولاً - الأغراض الشعريّة

٢٦٥

ثانياً - المضامين الشعريّة جميع الحقوق محفوظة

٢٦٧

ثالثاً - اللغة والأسلوب مكتبة الجامعة الاردنية

٢٨١

رابعاً - الصّورة الشعريّة مركز ايداع الرسائل الجامعية

٣٠١

خامساً - الإيقاع

٣٠٧

- الخاتمة

٣١١

- المصادر والمراجع

- الملخص / باللغة الإنجليزيّة

المقدمة

بدأت صليتي بمصادر الأدب الأندلسي في أثناء إعدادي لأطروحة الماجستير عن فن الخطابة في العصر الأموي، حينما دفعتني الدراسة للرجوع إلى عدد من المصادر الأندلسية للنظر في الخطبة المنسوبة لطارق بن زياد، واستوقفتني ما في تلك المصادر من حديث عن جوانب من حضارة الأمويين التي قام عليها الوجود العربي في الأندلس طوال ثمانية قرون، وتراءى لي أن أكتب بحثاً يتعلق بجانب من جوانب تلك الحضارة بعد انتهائي من إعداد أطروحتي، ولكن شغلتني الشواغل عن شلحذ همتي لإعداد البحث، وطويت تلك الفكرة مع ابتعادي عن الجامعة مدة عامين ونصف العام.

مركز ايداع الرسائل الجامعية
مكتبة الجامعة الأردنية

ولما عدت لاستكمال الحلقة الثالثة من دراسي الجامعية في عام ثمانية وتسعين وتسعمئة وألف، وجدت الفرصة ملائمة لتحقيق هذه الرغبة، وخطر لي في بادئ الأمر أن أجعل دراسي المقترحة عن علاقة الأدب بحضارة الأمويين في الأندلس، ثم عدلت عن ذلك ورأيت أن أكتفي بدراسة معالم تلك الحضارة في الشعر دون التشر.

وبدأت رحلتي الشاقة في دراسة المصادر الأندلسية، وشعرت بنفسي كمن يرتاد دروباً مجهولة لا عهد له بها، إذ هالني تشتت الشعر في المصادر، وجهلي بأسماء معظم شعراء ذلك العصر، والدراسات الكثيرة والمتشعبة عن مفهوم الحضارة، وقلة الدراسات المتخصصة التي درست أدب ذلك العصر. ومن أهم المشكلات التي واجهتني في هذا البحث أن ثمة جوانب حضارية مهمة لم أقف على شعر يشير إليها مع وفرة للمادة التاريخية المتصلة بهذه الجوانب الحضارية، كما أن العديد من النصوص الشعرية منقطع عن سياقه الذي قيل فيه.

ثم بدأت الرؤية تتضح أمامي، ووضعت قدمي على بداية الطريق، وشرعت في إعداد مخطّط الرسالة، وتشرفت بموافقة أستاذ الجليل الدكتور ناصر الدين الأسد مشرفاً رئيساً على أطروحتي، والأستاذ الدكتور صلاح جرّار مشرفاً مشاركاً، وسجّلت أطروحتي للدكتوراه بعنوان: " معالِم الحضارة في الشعر الأندلسي - عصر بني أمية ".

وبعد أن قطعت شوطاً لا بأس به في جمع المادة العلمية، زرت الأستاذ الدكتور إحسان عباس في منزله، وعرضت عليه ما كان من أمري، فشجّعني على موضوع البحث، وأرشدني مشكوراً إلى جملة من المصادر والمراجع.

وبدأت رحلة الكتابة بين رغبة ورهبة؛ رغبة في الاستفادة من علم الأستاذين المشرفين، ورهبة من الوقوع في مزالق علمية أستحق بسببها لومهما، ولكنهما كانا علي خلق العلماء في توجيههما لي وإرشادي إلى أصول البحث العلمي في الدراسات التراثية، وأتاحا لي هما والأستاذ الدكتور إحسان عباس فرصة الاستفادة من كل ما احتوت عليه مكتبتهما من مصادر ومراجع تتصل بموضوع هذه الدراسة.

أهمية الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى تقديم صورة أشمل عن علاقة الشعر بالحضارة الأموية؛ إذ تناولت أكثر الدراسات عصور الطوائف والمرابطين والموحدين وبني الأحرار، فيما تناولت دراسات قليلة جوانب من علاقة الشعر بحضارة الأمويين في الأندلس، ولكنها لم تخط بمختلف جوانبها، ولم تقصد إلى دراستها، إذ كانت تلك الإشارات مقتضبة أحياناً، أو في سياق الحديث عن حياة الأدب أو الحضارة الأندلسية في ذلك العصر.

وتتناول هذه الدراسة معالم حضارة الأمويين في الشعر منذ تأسيس الإمارة (١٣٨هـ) إلى نهاية الدولة الأموية في الأندلس (٤٢١هـ)، واستثني عهد الولاة (٩٢-١٣٨هـ) لأن المسلمين الفاتحين انشغلوا بتوطين أنفسهم في تلك الأرض البعيدة في أول الأمر، ولم تستقر بهم الحال بسبب النزاعات والصراعات بين القبائل العربية هناك، ولم تكن حضارتهم قد ترسخت، والأهم أن ما وصل إلينا من شعر تلك الحقبة قليل، ولم ترد فيه إشارات عن أي معالم حضارية يمكن الاستفادة منها في هذه الدراسة.

وقد يؤخذ على هذه الدراسة طول الحقبة الزمنية التي تناولتها، ولكن الحضارات بطبيعتها تحتاج إلى مدة زمنية طويلة لتنضج وتكتمل وترسخ برسوخ الدلول وتعاضل أمرها، ولم يكن من الممكن الاقتصار على دراسة معالم الحضارة في شعر عهد الإمارة؛ لأن الجهود الحضارية في الأندلس لم توت أكلها قبل بداية القرن الرابع الهجري، كما أنه لا يمكن الاكتفاء بدراسة معالم الحضارة في شعر القرن الرابع الهجري فقط لأنه ثمرة ما قبله، ولا يمكن إقصاءه عن حقله وتجاهله بالذکر أن انحسار الحكم الأموي في الأندلس لا يعني بأي حال من الأحوال السقوط الحضاري، ودليل ذلك أن عصر الطوائف في حضارته وأدبه كان امتداداً لجوانب من حضارة الأمويين وأدبهم، بل إنه يمكن القول إن الأمويين صبغوا الوجود العربي الإسلامي في الأندلس طوال ثمانية قرون بصبغة أموية، وأن العرب المسلمين هناك اتخذوا من الحضارة الأموية ركيزة أساسية بنوا عليها حضارتهم حتى سقوط الأندلس في عام (٨٩٨هـ / ١٤٩٢م).

الدراسات السابقة:

لم أطلع على دراسة مستقلة مستفيضة عن علاقة الشعر الأندلسي بحضارة الأندلس في العصر الأموي، ولكنني عثرت على دراسات تناولت جانباً يسيراً من معالم الحضارة في الشعر من خلال

دراسة أدب ذلك العصر وتاريخه وحضارته، ومنها: " تاريخ الأدب الأندلسي / عصر سيادة قرطبة " لإحسان عباس، وتتناول هذه الدراسة - في الباب الأول - الشعر الأندلسي وعوامل نشأته وتطوره في بيئته السياسية والاجتماعية، وأثر الفتنة البربرية فيه، وتعرض لأشهر الشعراء الأندلسيين في العصر الأموي، وتقدم في الباب الثاني صورة موجزة عن النثر الأندلسي في ذلك العصر، وترجم لأبرز أعلامه.

ويتناول صلاح جرّار في بحثين مستقلّين شعر عباس بن فرناس؛ الأول منهما بعنوان " عباس بن فرناس شاعراً "، ويتناول فيه الباحث شاعرية عباس بن فرناس، ويحلّل ما وصل إلينا من قصائده ومقطوعاته، ويرز الأبعاد الحضارية في شعره، ويبين قدرة الشعر على مواكبة المنجز الحضاري. ويجمع في بحثه الثاني " ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس " كلّ قصائده ومقطوعاته التي وردت في المصادر، محققاً لها وموازناً بين رواياتها المختلفة.

مكتبة الحقوق محفوظة

مكتبة الجامعة الاردنية

مركز ابداع الرسائل الجامعية

ومن الدراسات التي تناولت شعر ذلك العصر " الأصول الفنية للشعر الأندلسي / عصر الإمارة " لسعد شلي، ويدرس فيها الأصول الفنية للشعر الأندلسي عند المتشاعرين ثم الشعراء، ويحدّد اتجاهات الشعر المحافظة والمجددة وأسبابها ومظاهرها، ثمّ يقدم دراسة تطبيقية فنية لأعلام الشعراء في عصر الإمارة.

ويعتمد أحمد هيكّل في كتابه " الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة " على التقسيمات التاريخية والسياسية في دراسته لحياة الأدب الأندلسي واتجاهاته في الشعر والنثر، ابتداء من عهد الولاة، ومروراً بعهد الإمارة، ثمّ عهد الخلافة، فالحجابه العامرية، ويعرض بعدها لواقع الأدب في عهد الفتنة، ويختتم دراسته بفصل عن النثر التأليفي في نهاية العصر الأموي بالأندلس.

مصادر الدراسة:

تنوّعت مصادر هذه الدّراسة، فمن مصادر أدبيّة إلى مصادر تاريخيّة ومصادر موسوعيّة عن حضارة الأندلس في تلك الحقبة، ومن أوّل تلك المصادر وأهمّها الدّواوين والمجموعات الشعريّة، فمن الدّواوين المحقّقة والمجموعة التي استفادت منها هذه الدّراسة: ديوان يحيى بن الحكم الغـزال (ت ٢٥٠هـ)، وديوان ابن عبد ربّه (ت ٣٢٨هـ)، وجمعهما وحقّقهما محمّد رضوان الدّاية، وشعر يحيى بن هذيل (ت ٣٨٩هـ) الذي جمعه وحقّقه محمّد شوابكة، وشعر يوسف بن هارون الرّماديّ (ت ٤٢١هـ)، وجمعه ودرسه ماهر جرّار، وديوان ابن درّاج القسطليّ (ت ٤٢١هـ) بتحقيق محمود مكّي، وهو من الدّواوين النّادرة التي وصل إلينا أصلها المخطوط من ذلك العصر، ويشتمل الدّيان على العديد من القصائد التي تتناول جوانب من حضارة عصره، ولا سيّما في قرطبة زمن المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر عبد الملّك، وفي الثّغر الأعلى بسرقسطة زمن المنذر بن يحيى التّجينيّ وولده يحيى. ومن الدّواوين الشعريّة المهمّة التي اعتمدت عليها هذه الدّراسة أيضاً ديوان ابن شهيد (ت ٤٢٦هـ)، وقام بجمعه ودراسته محيي الدّين ديب. ومن أهمّ المجموعات الشعريّة: كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لأبي عبد الله محمّد بن الكتّانيّ، وتأتي أهميّة هذا الكتاب من كون مؤلّفه معاصراً للحقبة المختارة لهذه الدّراسة، إذ توفيّ ابن الكتّانيّ حوالي سنة (٤٢٠هـ)، وجمع في كتابه مقطوعات شعريّة لعدد وافر من الشعراء الأندلسيّين الذين عاشوا قبله أو عاصروه، وتتناول تلك المقطوعات الشعريّة جوانب حضاريّة متنوّعة، مثل: الفنون، والعلوم، والمبتكرات، والمعادن، والتقاليد، والنّظم والمراسم، وغير ذلك.

ومن المجموعات الشعريّة القيّمة الأخرى كتاب يتيمة الدّهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور الثّعالبيّ (ت ٤٢٩هـ)، وهو من تحقيق مفيد قيمحة، وقد خصّص الثّعالبيّ جزءاً من كتابه لشعراء

الأندلس، وكلهم ممن عاش في العصر الأموي، وأورد لهم العديد من الأبيات والمقطوعات الشعرية المتصلة ببعض الجوانب الحضارية في عصرهم.

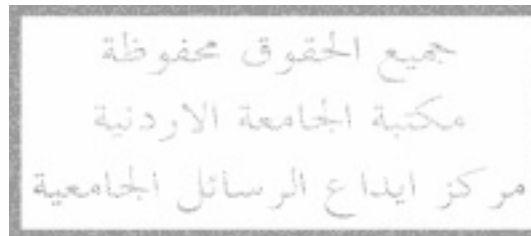
ومن أهم المصادر الأدبية التي استفادت منها هذه الدراسة أيضاً: العقد لأحمد بن عبد ربه، وهو من تحقيق مكتب تحقيق التراث ببيروت، ورسائل ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) التي حققها إحسان عباس.

ويعدّ كتاب المقتبس لابن حيان (ت ٤٦٩هـ) من أشهر المصادر التاريخية التي استفدت منها في هذه الدراسة؛ إذ يتضمّن - عدا تسجيل الأحداث التاريخية عن تلك الحقبة - معلومات عن حضارة الأمويين في الأندلس، ويورد العديد من المقطوعات الشعرية التي تصف جوانب مختلفة من تلك الحضارة، والأهم أن ابن حيان كان شاهد عيان على رقي الحضارة في ذلك العصر، وتكشف الأجزاء المنشورة من كتابه هذا عن سعة ثقافته وعمق إدراكه ودقة ملاحظته. وقد وصلت إلينا أجزاء متفرقة من هذا الكتاب، وقد نشر الأب ملسور أنطونيوس سنة ١٩٣٧م جزءاً من الكتاب يتناول عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥-٢٩٩هـ)، ثم أعاد إسماعيل العربي تحقيقه ونشره سنة ١٩٩٠م، كما نشر عبد الرحمن الحجّي في سنة ١٩٦٥م جزءاً آخر من المقتبس يتناول أحداث خمس سنوات من عهد الخليفة الحكم المستنصر (٣٦٠-٤٦٤هـ)، وفي سنة ١٩٧٣م نشر محمود مكّي واحداً من أجزاء المقتبس يتناول أواخر عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط وعهد ابنه الأمير محمد (٢٣٢-٢٦٧هـ)، أما الجزء الخامس من هذا الكتاب فقد حققه بدرود شالميتا بالاشتراك مع ف. كورينطي ومحمود صبح، ويتناول نحو عشرين سنة من عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر.

ولا تستغني أيّ دراسة في الأدب الأندلسي عن المصادر الموسوعية، مثل: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ)، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأبي العباس المقرري (ت ١٠٤١هـ).

وتضمّ كتب التراجم والطبقات معلومات وافرة عن الشعر والشعراء في الأندلس، ومنهم شعراء العصر الأموي، ومن أشهر هذه الكتب: طبقات التحوّين واللغوّين لأبي بكر الزبيدي (ت ٣٧٩هـ)، وهو من تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وفيه تراجم للتحوّين واللغوّين الأندلسيّين ممن عاشوا في العصر الأموي، ومنهم من اشتهر بالشعر، و"تاريخ العلماء والرواة للعلم في الأندلس" لأبي الوليد

عبد الله بن الفرضي (ت ٤٠٣هـ)، ومن كتب التراجم المتأخّرة التي ترجمت لشعراء العصر الأموي في الأندلس كتاب جدوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس لأبي عبد الله الحمّدي (ت ٤٨٨هـ)، وكتاب الصلّة لأبي القاسم خلف بن بشكّوال (ت ٥٧٨هـ)، وكتاب الحلة السّراء لابن الأبار الفضاوي (ت ٦٥٨هـ)، بتحقيق حسين مؤنس، والمغرب في حلي المغرب لابن سعيد الأندلسي (ت ٦٨٥هـ)، وهو من تحقيق شوقي ضيف، وغير ذلك من المصادر.



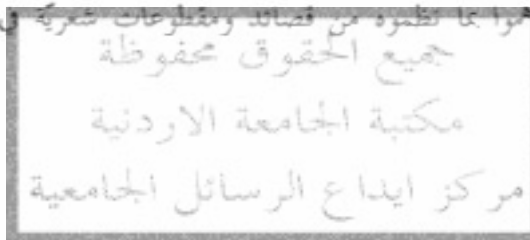
منهج البحث:

تعتمد هذه الدراسة المنهج التاريخي التحليلي في فحص النصوص الشعرية للكشف عن أبعادها ومضامينها الحضارية المادية والمعنوية، ولمعرفة مدى إحاطتها بحضارة العصر الذي تمثله، وتستفيد من المنهج الجمالي في بيان الأصول الفنية لتلك النصوص، وتعرف سماتها الجوهرية.

ومفهوم الحضارة من أكثر المفاهيم جدلاً، ومن الصعب الخوض في تعريفاته في هذا المقام، إلا أنه لا بدّ من تحرير المصطلح المستخدم في هذه الدراسة، فالحضارة - في رأيي - هي ثمرة ما يبذله المجتمع من جهد عقليّ وعضليّ وسلوكي؛ لتحسين ظروف حياته المعيشية، وتوفير احتياجاته الضرورية والكمالية، والارتقاء بفكره وذوقه، ومنحه الأمن والأمان.

وللحضارة ثلاثة مستويات أساسية، هي: التحضر والثقافة والمدنية. والمقصود بالتحضر: ما تتضمنه ممارسة العادات والتقاليد والأنشطة الاجتماعية المختلفة من ذوق رفيع وحسن تأت، والخروج من مفهوم ضرورة العيش إلى مفهوم فنّ العيش . أمّا الثقافة فهي: مجموعة المعارف والعلوم والفنون التي ينتجها المجتمع من وحي ذاته المبدعة أولاً، ثم من خلال الإنتاج البشري العام الذي يتواصل معه متأثراً به ومؤثراً فيه . وأمّا المدنية فهي: مجموعة النظم والقوانين السياسية والإدارية والعسكرية والاقتصادية التي يطبقها المجتمع، وتنقله من حال القبيلة إلى حال المدينة.

وتستهدف هذه الدراسة شعر الشعراء الأندلسيين الذين عاشوا في الأندلس ما بين عامي (١٣٨-٤٢١هـ)، ولم تتجاوز سنة ولادتهم نهاية القرن الرابع الهجري، ويدخل في هذا التصنيف الشعراء المخضرمون الذين عاصروا زمن الأمويين وملوك الطوائف، ولا سيما أولئك الذين ترعرعوا في أكناف قرطبة - موطن الحضارة الأموية في الأندلس - وتشربوا حضارتها من أمثال ابن حزم وابن زيدون، كما تستأنس هذه الدراسة بشعر الشعراء المشارقة الذين وفدوا إلى الأندلس في الحقبة نفسها، وخالطوا أهلها، وساهموا بما نظموا من قصائد ومنظومات شعرية في تسجيل أبرز المعالم الحضارية في ذلك العصر.



والله ولي التوفيق

الثروات الطَّبِيعِيَّة والمعدنيَّة المنتشرة في بلادهم أحسن استغلال، وعمدوا إلى استخراجها واستثمارها في مختلف الصناعات، ممَّا أدى إلى نمو الحركة الاقتصادية وازدهارها.

وقد أدى النشاط الاقتصادي إلى نشاط حركة التجارة من الأندلس وإليها، فعمَّ الرِّخاء وتفشَّى الترف، لكنَّ بعض عوالم النَّاس كانوا يشكون الفقر وضيق الحال، فعوائد ذلك النشاط الاقتصادي اقتصرَت على فئات اجتماعيَّة دون غيرها، ولكنَّ تطبيق الأندلسيين للنَّظام الاقتصادي الإسلامي - الَّذي يقوم على الزَّكاة والصَّدقات - خفَّف من وطأة الفقر ومرارته.

-٢-

جميع الحقوق محفوظة

تألَّف المجتمع الأندلسي في العصر الأموي من عناصر شتى، فعدا سكَّانه الأصليين من القوط والإسبان الَّذين كانوا يعيشون في الأندلس عند الفتح الإسلامي لها سنة (٩٢ هـ) استوطن الجنود الفاتحون من العرب ومواليهم ومن البربر أرض الأندلس، ولمَّا غادر هؤلاء الجنود أوطانهم دون نسائهم وأهلهم، صاهروا أهل تلك البلاد المفتوحة وامتزجوا بهم، ونشأ عنصر جديد اختلط فيه الدَّم العربي والبربري بالدَّم الإسباني، وعُرف هؤلاء باسم "المُولدين".

ولمَّا استقرَّ العرب في الأندلس وأسَّسوا الإمارة الأمويَّة (١٣٨ هـ)، بدت الحاجة ماسَّة إلى وجود الخدم والجواري في منازلهم، فقاموا بجلب الممالك من البلاد السَّلافيَّة وغيرها من الأصقاع الأوروپيَّة، وعُرف هؤلاء الممالك باسم "الصَّقاليَّة"، وقد عظم خطرهم في عهد الأمير الحكم بن هشام (ت ٢٠٦ هـ) وابنه عبد الرَّحمن الأوسط (ت ٢٣٨ هـ) ومن جاء بعدهما من الأمراء، كما دفع الاستقرار السِّياسي العام والازدهار الاقتصادي الملموس أجناساً عديدة لوضع عصا الترحال في بلاد الأندلس مختارين راغبين.

وقد أدى هذا التنوع العرقي إلى بروز الطبقات الاجتماعية منذ بداية عهد تأسيس الإمارة، وشكل قمة هرمها الأمراء والخلفاء من بني أمية، وفي الفخر بالنسب الأموي يقول الأمير محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر^(١):

أَلَسْنَا بِبَنِي مَرْوَانَ كَيْفَ تَبَدَّلَتْ بِنَا الْحَالُ أَوْ دَارَتْ عَلَيْنَا الدَّوَاتِرُ
إِذَا وَلَدَ الْمُؤَلَّدُ مِنَّا تَهَلَّلَتْ لَهُ الْأَرْضُ، وَاهْتَرَّتْ إِلَيْهِ الْمَنَائِرُ

كما حظي القرشيون وموالي الأمويين من البلديين والشاميين بمكانة عالية برزوا فيها سائر الطبقات، وتمتعوا بامتيازات سياسية واجتماعية ومادية كبيرة، وفي الفخر بالنسب القرشي وتفضيل نسبهم على نسب غيرهم من العرب يقول الأمير المنذر بن عبد الرحمن^(٢):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الإسلامية
إذا القرشي لم يُشبه في كبره إلا بالذي يفتخر به
فتيس من موسى يميني تكمي ايداع الرسل في الجامعة الحسن منه حالا

وتلا القرشيين في المكانة الحجاب والوزراء والكتاب من أصحاب البيوتات، وكان أكثرهم ممن تجري في عروقهم الدماء العربية وبيّن لساغهم بلغتها، بل كان للأصل العربي أثر في سرعة الوصول إلى

(١) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك الثعالبي التيسابوري (ت ٤٢٩هـ)، بئمة الذهر في محاسن أهل العصر، ج ١، ص ٢٩٤، تحقيق: مفيد قميعة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، ابن الأثير، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاة (ت ٦٥٨هـ)، كتاب الحلة السوداء، ج ١، ص ٢٠٩، تحقيق وتعليق: حسين مؤنس، الطبعة الأولى، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م، ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد القرني الأندلسي (ت ٦٨٥هـ)، المغرب في حلى المغرب، ج ١، ص ١٩٠، تحقيق وتعليق: شوقي ضيف، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م، المقرئ، أبو العباس أحمد بن محمد القلمساني (ت ١٠٤١هـ)، نفع العليب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٣، ص ٥٨٥، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م.
(٢) ابن حبان، أبو مروان حبان بن خلف بن حبان القرطبي (ت ٤٦٩هـ)، للمقتبس من أنباء أهل الأندلس، ص ٦٧، تحقيق وشرح وتعليق: إسماعيل العربي، الطبعة الأولى، منشورات دار الأفاق الجديدة، المغرب، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

أرقى المناصب، وفي مدح المنصور بن أبي عامر الذي كان خالص العروبة لأبيه وأمه يقول ابن درّاج^(١):

تَلَاقَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَمِيمٍ وَيَعْرَبٍ شَمُوسٌ تَلَالِا فِي الْعُلَى وَبُدُورُ
مِنْ الْخَمِيرَيْنِ الَّذِينَ أَكْفُهُمْ سَحَابٌ تَهْمِي بِالتُّدَى وَبُحُورُ

ولم تكن عروبة النسب الأساس الوحيد في تكوين الطبقات الاجتماعية الراقية، إنما كان الغنى باباً من أبواب الوصول إلى مكانة اجتماعية رفيعة، وكان العلم والأدب سبيلاً لأبناء الطبقات المتوسطة والفقيرة للوصول إلى مكانة اجتماعية لا تفتقر، وفي سيادة العالم يقول الوزير عبد الملك بن إدريس الجزيري^(٢):

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعِلْمَ أَرْفَعُ رُتَبَةً وَأَجَلُ مُكْتَسَبٍ وَأَسْتَى مَفْخَرٍ
فَاسْلُكْ سَبِيلَ الْمُتَّقِينَ لَهُ تَسَدُّدٌ إِنْ السِّيَادَةُ تُقْتَنَى بِالْإِدْفَرِ
مَكْتَبَةُ الْجَامِعَةِ الْأُرْدُنِيَّةِ
مَرْكَزُ إِيدَاعِ الرِّسَالِ الْجَامِعِيَّةِ
وَفِي طَلَبِ النَّسَبِ الشَّرِيفِ فِي الْأَدَبِ يَقُولُ غَسَّانُ بْنُ سَعِيدٍ^(٣):

مَنْ خَانَهُ حَسَبٌ فَلْيَطْلُبِ الْأَدَبَا فَفِيهِ مُنِيَّتُهُ إِنْ حَالَ أَوْ ذَهَبَا
فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ آدَاباً تَعِزُّ بِهَا كَيْمَا تَسْوُدُ بِهَا مَنْ يَمْلِكُ الذَّهَبَا

(١) ابن درّاج، أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج القسطلاني (ت ٤٢١هـ)، ديوان ابن درّاج، ص ٣٠١، تحقيق: محمود علي مكي، الطبعة الأولى، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

(٢) الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر قنوح بن عبد الله الأزدي (ت ٤٨٨هـ)، جلوة للقبس في ذكر ولاية الأندلس، ص ٢٦٧، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.

(٣) الشعالقي، البيهقي، ج ٢، ص ٥٨، ولم أعتز على ترجمة للشاعر.

ومع أن الأجناس في الأندلس قد تمازجت وتزاوجت في ذلك العصر، إلا أن الزواج بين الطبقات الاجتماعية الراقية والطبقات الأقل شأنًا كان مثار نقد واستهجان، فحين زوّج المظفر بن المنصور بن أبي عامر - على سبيل المثال - ابنة أخته لأحد مواليه أنشد أحد الشعراء معرّضاً بصنيعه ذلك^(١):

عَـرِـبِيٌّ مُـزَوِّجٌ عَـبْدُهُ بِنْتُ أَعْتَبِهِ
قَبْلَ حَالِّهِ مِثْلَ ذَا وَرَمَاهُ بِمَقْتَبِهِ

وقد أدّى هذا التفاوت الطبقي إلى إحساس الطبقات الأقل شأنًا بالسخط والصّخر لعدم حصولهم على أي امتيازات تذكر، وفي الشكوى من هذا الواقع الاجتماعي يقول مؤمن بن سعيد^(٢):

إِنَّمَا أَزْرَى بِقَدْرِ مَكْتَبَةِ الْجَامِعَةِ السَّالِطِينَ
مَرْكَزَ إِيدَاعِ الرِّسَالِ الْجَامِعِيَّةِ

- ٣ -

كان المذهب المالكيّ المذهب الرسميّ للدولة الأمويّة الإسلاميّة في الأندلس، ولم يكن للمذاهب الإسلاميّة الأخرى حظ من الاهتمام الرسميّ أو الشعبيّ، واقتصر الحديث فيها على المجالس الخاصّة.

(١) الحميديّ، الجنوة، ص ٣٩٦، الضيّ، أحمد بن يحيى بن عمرو (ت ٥٩٩هـ)، بغية اللئيم في تاريخ رجال الأندلس، ج ٢، ص ٧٠٠ - ٧٠١، تحقيق: إبراهيم الإيباري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٩م. والأبيات لأبي حفص بن عسقلانة أو الوزير أبي مروان عبد الملك بن يحيى عند الحميديّ (الشك من المؤلف)، ووردت منسوبة لأبي حفص في البغية.

(٢) السّعالبيّ، البيعة، ج ٢، ص ٢٤، والشاعر هو مؤمن بن سعيد بن إبراهيم بن قيس، فحل شعراء قرطبة، وكانت آفته التّهكم بالناس، وتنتع زلائهم، وله رحلة إلى المشرق، ت (٢٦٧هـ). ترجمته في: الحميديّ، الجنوة، ص ٣٣٠، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٣٢.

وكان في الأندلس أقليّات دينيّة من أتباع الديانات السماويّة وغيرها، وعاش أهل الذمّة من اليهود والنصارى - في ظلّ الدولة الإسلاميّة - متمتّعين بحريّتهم العقائديّة، ومشاركين كغيرهم في مختلف الميادين السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة وسواها، وأتيحت لهم حرّيّة الحركة في أرجاء الدولة الإسلاميّة دون قيد أو شرط ما داموا ملتزمين بالأنظمة والقوانين ومؤدّين ما عليهم من واجبات. وكانت "طليطلة" أشهر معاقل المستعربين الإسبان، ومع أنّهم لم يعتنقوا الإسلام إلّا أنّهم تأثّروا بالعرب المسلمين في تحضّرتهم وثقافتهم ومدنيّتهم، ممّا أثار سخط نصارى الشمال غير الإسلاميّ عليهم. أمّا اليهود - الذين ذاقوا الأمرين على يد القوط - فقد وقفوا إلى جانب المسلمين منذ بداية الفتح الإسلاميّ، وكانت "غرناطة" معقلهم الأهمّ عبر تاريخ الأندلس كلّها، حتّى لقد كانت تسمّى "غرناطة اليهود"^(١)، وعاشوا في استقرار ماليّ وفكريّ في ظلّ الدولة الإسلاميّة، واشتهروا بالدراسات التلموديّة والطبّ خاصّة.

وقد ساد التعايش السلميّ بين أتباع الديانات السماويّة الثلاث داخل حدود الدولة الإسلاميّة طوال ذلك العصر، ونعموا بعوائد الحضارة الأمويّة كلّ على قدر اجتهاده ونصيبه، إلّا أنّ الحزازات الدينيّة كانت تطفو في صراع المسلمين مع نصارى الأقاليم الشماليّة الإسبانيّة غير الخاضعة للحكم الإسلاميّ، ولم تخلُ قصائد الشعراء التي نظمها أبي نوح قاضي المسلمين المنتصرين على أعدائهم من التعريض بالنصارى وصلبيهم. ومن ذلك قول ابن دراج في الملاح النبويّ عيسى عليه السلام: وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ دِرَاجٍ فِي الْمَلْحِ النَّبِيِّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ من بعض غزواته^(٢):

وَبِيعَةُ "شَنْتَ اقْرُوج" ^(٣) أَوْزَيْتَ فَوْقَهَا	سَنَّا لَهَبٍ فِيهِ لَعْمَائِهَا شَرَحُ
وَكَانَ لَهَا الْفِصْحُ الْأَجَلُ فَأَصْبَحَتْ	لِنَارِكَ فِصْحًا مَا لَهَا بَعْدَهُ فِصْحُ
فَلَلَهُ عَيْنًا مَنْ رَأَى بِكَ صَرَخَهَا	وَمِنْ جَاحِمِ التِّرَانِ فِي سَمَكِهِ صَرَحُ
رَفَعَتْ مِنَ الصُّلْبَانِ فِي عَرَصَاتِهَا	وَقُودًا لَهُ فِي وَجْهِ "رُومِيَّة" لَفْحُ

(١) الحميريّ، محمّد بن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ)، الرّوض للعطار في خبر الأقطار، ص ٤٥، تحقيق: إحسان عباس، الطّبعة الثّانية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م.

(٢) ابن دراج، الديوان، ص ٣٩١ - ٣٩٢.

(٣) كنيّة كانت تسمّى (santa cruz)، ومعناها الصليب المقدّس. [مكيّ، ديوان ابن دراج، الحاشية، ص ٣٩١].

بل إن ابن حزم حين أخذ التصاري بعض ثغور الإسلام في المشرق، وبلغه أن كاتباً مرتدّاً عن الإسلام نظم قصيدة في مدح التصاري وذم المسلمين، ارتحل لوقته قصيدة طويلة جمع فيها انتصارات المسلمين على التصاري منذ الفتوحات الإسلامية المبكرة حتى منتصف القرن الرابع الهجري تقريباً.^(١)

- ٤ -

كان لتنوّع الأجناس والأديان أثره في تكوين الأسرة الأندلسية، إذ قامت الحياة في الكثير من بيوت الأندلس في ظلّ التّقاء حضارتين ودينين ولغتين وجنسين مختلفين، مما أضفى عليها خصوصية حضارية مميزة، وإن التقت - على نحو ما - مع الأسرة المشرقية في ملامحها العامة.

وكان الرّجل أساس تكوين الأسرة والمُعيل لها، وكان له الحق في اتخاذ العديد من الزّوجات والجواري وفق أحكام الشريعة الإسلامية، وكان عدد الجواري في الأندلس في العصر الأمويّ كبيراً، ولكنّ شراءهن لم يكن أمراً سهلاً، فقد درّس المبدئ في الإشبيلية حوليات ريفية محلات سوق الرقيق في "قرطبة" في فترات متعدّدة، وتبيّن له أنّ شراء الجوّاري كان يجري بحضور كاتب العقود، وكانت الأسباب التي تطلب من أهلها الجارية تبيّن وتوضع موضع الاختبار^(٢). وقد كان هؤلاء الجواري أثرهن في تطوّر الحضارة في العصر الأمويّ، كما تمتعت المرأة في ظلّ الدولة الأموية بنصيب وافر من الحرية وحظيت بتقدير اجتماعي ربّما فاق ما لاقته نظيرتها المشرقية في بغداد وغيرها من الخواضر العربية الإسلامية، وكان للعديد من حرائر النساء في الأندلس أعمال صغيرة تدرّ عليهن دخلاً وقيماً يتيح لهن فرصة التمتع بالاستقلال المادي والاجتماعي.

(١) ابن حزم، أبو محمد عليّ بن أحمد بن حزم (ت ٤٥٦هـ)، ديوان الإمام ابن حزم الطّاهري، ص ٤٢-٦٢، جمع وتحقيق ودراسة: صبحي رشاد عبد الكريم، الطّبعة الأولى، دار الصحابة للتراث، طنطا، ج.م.ع.، ١٤١٠هـ، ١٩٨٠م، ابن كثير، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت ٧٤٤هـ)، البداية والنهاية، مج ٦، ج ١١، ص ٢٦٣-٢٦٨، الطّبعة الأولى، دار التقوى، القاهرة، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

(٢) ترند، ج.ب.، إسبانيا والبرتغال، ص ١٢، تعريب وتعليق: حسين مؤنس، في كتاب "تراث الإسلام"، ج ١، لجنة الجامعيين لنشر العلم، مكتبة الآداب ومطبعها، القاهرة، ١٩٣٦م.

وكانت الأسرة الأندلسية من الأسر المترابطة الممتدة ، وكان عدد أفرادها كان يفوق الوصف أحياناً، ولاسيما ما ترويه المصادر عن الأعداد الكبيرة لأبناء الأمراء والخلفاء الأمويين. ولو تجاوزنا ما كان يحدث في القصور الأموية من نزاعات ومؤامرات ودسائس بسبب الملك، فإن الأسرة الأندلسية أسرة متحابّة متآزرة مترابطة، ويكفي أن يغيب الرجل عن أهله في طلب العلم أو الرزق حتّى يغالبه الشوق والحنين إليهم، وفي مثل هذا المعنى يقول ابن الفرضي^(١):

مَضَتْ لِي شَهْرٌ مُنْذُ غِبْتُمْ ثَلَاثَةً وَمَا حِلَّتْني أَبْقَى إِذَا غِبْتُمْ شَهْرًا
وَمَا لِي حَيَاةٌ بَعْدَكُمْ أَسْتَلْذُهَا وَلَوْ كَانَ هَذَا لَمْ أَكُنْ فِي الْهَوَى حُرًّا

بل إنّ منهم من كان يضحي بمنصبه من أجل أبنائه، ومنهم — على سبيل المثال لا الحصر — ابن سهر الرّعيني قاضي "ألمرية" وعالمها، فإنه لما طال به المقام في "قرطبة" زمن الحموديين، كتب إليهم

معتذراً عن عدم قدرته على الإقامة بينهم أكثر مما أقام^(٢) في محفوظة

مكتبة الجامعة الاردنية

أَلَا فَأَذْنُوا لِي بِالسَّوْاحِ مَرَفَاتٍ أَيْدِيهِ الرِّسَالَةِ لِلْجَامِعِيَّةِ وَفِيهِ عَذَابُ
فَاتِي قَدْ خَلَفْتُ فِي أَفْقٍ مَوْطِنِي فِرَاحاً هَوَاهُمْ لَيْسَ عَنْهُ مَنَابُ

كما وردت بعض المقطوعات الشعرية — في المصادر المختلفة — لشعراء سجنوا أو أسروا، وتشوقوا فيها لأبنائهم وأزواجهم.

(١) الحميدي، الجذوة، ص ٢٥٦، ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان القيسي الأشيلي (ت ٥٢٩هـ)، مطمح الأنفس ومسرح التآكس في ملح أهل الأندلس، ص ٢٨٦، دراسة وتحقيق: محمد علي شوابكة، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار عقار، عمان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، كتاب الصلّة، ج ١، ٣٩٥، تحقيق: إبراهيم الإياري، الطبعة الأولى، دار الكتاب للنشر، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٠٤.

(٢) ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٢٠٧. وذكر ابن سعيد في ترجمة الشاعر أنه أبو الحسن مختار بن عبد الرحمن بن سهر الرّعيني، كان جامعاً لفنون العلم والمعرفة، واستغنى بالمرّة فأحسن السيرة، ت (٤٣٥هـ).

تعاقب بنو أمية على حكم الأندلس نحو قرنين ونصف القرن، ولم تخرج الخلافة من أيديهم إلا زمن المنصور بن أبي عامر (٣٦٦-٣٩٩هـ) مستغلاً صغر سن الخليفة الشرعي هشام بن الحكم المستنصر، وظل الحكم منذ مطلع القرن الخامس الهجري يتأرجح بين الأمويين والبربر إلى أن سقطت الخلافة رسمياً في سنة (٤٢١هـ).

ومع ما بسطه الأمويون من نفوذ على تلك المساحة الشاسعة الممتدة من بلاد الأندلس، إلا أنهم أمضوا مدة حكمهم في حروب ونزاعات بين القيسية واليمانية، وبين العرب والبربر والمولدين، كما دخلوا في صراع مع الممالك التصراتية الشمالية التي كانت تهدد حدودهم من وقت إلى آخر، عدا الثورات الداخلية في عقر دارهم، وكانت ثورة الربيع (٢٠٢هـ) من أخطر الفتن الداخلية التي تعرضت لها الأندلس، واضطر الأمير الحكم بن هشام الملقب بالربيعي إلى قمع تلك الثورة بقسوة عندما صلب مئات العلماء وهدم الربيع الغربي وسواه بالأرض ونفى أهله. كما شهد عهد الأمير محمد بن عبد الله (٢٣٨-٢٧٣هـ) ثورة خطيرة أخرى هي ثورة عمر بن حفصون في البيرة (٢٦٧هـ)، وقد أخذها الخليفة عبد الرحمن الناصر بعد حوالي نصف قرن (٣١٦هـ).

وكانت مثل تلك الحوادث مؤشراً دالاً على التضيق السياسي الذي مُني به المعارضون على الرغم مما شهدته الأندلس - في بعض الأحيان - من حريات اجتماعية وفكرية على امتداد ذلك العصر، وكان المؤرخون شديدي التحفظ في تسجيل الأحداث السياسية العنيفة التي كادت تؤدي بعرض الأمويين غير مرة، ولم يرد إلا التزوير اليسير من وجهات نظر المعارضين للخلافة الأموية في الروايات الثرية والشعرية، وأغلب تلك الروايات كانت في زمن الفتنة والضعف السياسي بعد وفاة الحكم المستنصر (٣٦٦هـ)، واستغل المؤيدون للحكم الأموي والمعارضون له التنوع العرقي والطائفي في تأليب أنصار الأطراف المتنازعة، واستغلوا ما للشعر من أثر في النفوس ليكون منبراً يكسبون من خلاله النصر والتأييد، ومن المساجلات الشعرية بين الأمويين والعامريين والبربر ما أورده

" السَّمَقَرِيُّ " على لسان مجاهد العامريّ الَّذِي اسْتَقْبَلَ بِحُكْمِ " دَانِيَّة " فِي هِجَاءِ الْخُلَيْفَةِ سُلَيْمَانَ الْمُسْتَعِينِ^(١) :

لَا رَحِمَ اللَّوْهُ سُلَيْمَانَكُمْ فَلَأَنَّهُ ضَدُّ سُلَيْمَانَ
ذَاكَ بِهِ غُلَّتْ شَيَاطِينُهَا وَخَلَّ هَذَا كُلُّ شَيْطَانٍ
فَبَاسِمِهِ سَاخَتْ عَلَى أَرْضِنَا لِهَلْكَ سُكَّانٍ وَأَوْطَانٍ

وَفِي التَّحْرِيزِ عَلَى قِتَالِ الْبَربرِ يَقُولُ الْمُرْتَضَى الْمُرَوَّانِيُّ^(٢) :

قَدْ بَلَغَ الْبَربرُ فِينَا بِنَا مَا أَفْسَدَ الْأَحْوَالَ وَالنُّظُمَا
كَالسَّهْمِ لِلطَّائِرِ لَمْ يَلْ وَلَا الَّذِي فِيهِ مِنَ الرَّبِّ شَيْءٌ لَمَّا أَخْمَى
قَوْمُوا بِنَا فِي شَأْنِهِمْ قَوْمٌ كَثِيرَةٌ تَنْزِيلُ عَنَّا الْعَبْرَ وَالرَّغْمَا
لَمَّا بِهَا تَمَلَّكَ أَوْ لَا تَكْرَى مَكْنِيَّةُ الْجَامِعَةِ الْأَمْدُونِيَّةِ
مَرْكَزُ إِيدَاعِ الرِّسَالِ الْجَامِعِيَّةِ

-٦-

اسْتَطَاعَ الْأَنْدَلُسِيُّونَ - عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الصَّرَاعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعِرْقِيَّةِ وَالْقَبَلِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ -
النَّهْوَضَ بِمَجْتَمَعِهِمْ وَالْإِرْتِقَاءَ بِهِ، لَمَّا حَبَاهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ صِفَاتٍ فَرْدِيَّةٍ وَجَمَاعِيَّةٍ، وَفِي وَصْفِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ
يَقُولُ ابْنُ حَزْمٍ : " وَأَهْلُهَا عَرَبٌ فِي الْأَنْسَابِ وَالْعِزَّةِ وَالْأَنْفَةِ، وَفَصَاحَةُ الْأَلْسُنِ، وَطَيِّبُ النَّفُوسِ، وَإِبَاءُ
الضَّيِّمِ، وَقَلَّةُ أَحْتِمَالِ الذَّلَّةِ وَالْإِهَانَةِ، وَالتَّزَاهَةِ عَنِ الْخُضُوعِ، هُنْدِيُّونَ فِي فِرَاطِ عَنَائَتِهِمْ بِالْعُلُومِ وَحُبِّهِمْ لَهَا،

(١) الْمَقَرِّي، النِّفْح، ج ١، ص ٢٤٩.

(٢) الْمَصْدَرُ الْمَتَّاق.

بغداديون في ظرفهم ونظافتهم ورقّة أخلاقهم ونباهتهم، ولطافة أذهانهم، وحدة أفكارهم، نبطيون في استنباط المياه، ومعاناتهم للغرسة، وتركيب الشجر والفلاحة، صينيون في إتقان الصنائع العلمية، وإحكام المهن الصورية، تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلائها، والنظر في مهماتها".^(١)

وبقدر ما يكشف النص السابق عن الخصائص النفسية لأهل الأندلس، فإنه يبيّن مدى انفتاحهم على الحضارات الإنسانية الأخرى، واستفادتهم من إنجازاتها في ترسيخ حضارتهم حتّى بلغت " مبلغاً لم تبلغه في قطر، إلّا ما ينقل عن العراق والشّام ومصر أيضاً لطول آماد الدّول فيها".^(٢)

وقد واكب الشّعور هذه الحضارة بمستوياتها المتعدّدة، وتعايش معها على نحو خاصّ مختلف عن سائر التصوّص التاريخيّة والأدبيّة، وهذا ما ستبيّنه هذه الدراسة إن شاء الله.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

(١) الثويري، شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ)، لمحة الأرب في فنون الأدب، ج ١، ص ٣٥٨-٣٥٩، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب المصريّة، وزارة الثقافة والإرشاد القوميّ، القاهرة، د.ت. وقد أورد للمقرّي هذا القول في نفع الطّيب (ج ٣، ص ١٥٠-١٥١) وذكر أنّه نقله عن ابن غالب في فرحة الأنفس، ثمّ علّق قائلاً: " ونحو صدر كلام ابن غالب السّابق مذكور في رسالة لابن حزم، وقال فيها: إنّ أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العمليّة وإحكام المهن الصوريّة، تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلائها والنظر في مهماتها. (المصدر السّابق، ص ١٥١). ولكن قول ابن حزم هذا لم يرد في رسالته عن فضائل الأندلس، ولعلّها رسالة أخرى.

(٢) ابن خلدون، عبد الرّحمن بن محمّد بن خلدون الحضرميّ، مقدّمة ابن خلدون، مج ٢، ص ٧١٧، دار الكتاب المصريّ، القاهرة، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

الفصل الأول

معالم التحضر في الشَّعْلة

مكتبة الجامعة الأردنية

مركز أيداع الرسائل الجامعية

المبحث الأول العلاقات الاجتماعية

اتسمت العلاقات الاجتماعية في الأندلس - في العصر الأموي - بالقوة والتماسك والانفتاح، وكان للتنوع العرقي والديني أثر كبير في ذلك، وحظي المجتمع بنوع من الحرية، وبدا الأندلسي شغوفاً بالحياة وملذاتها، مقبلاً عليها ومستمتعاً بكل لحظة من حياته، ومارس مختلف نشاطاته الاجتماعية بحيوية وانطلاق، وأضفى عليها المرح والفكاهة.

وقد واكب الشعر مختلف مظاهر الانفتاح والتحرر في العلاقات الاجتماعية، وعبر الشاعر عن هذا الجانب الحضاري معنياً بكل تفاصيله الصغيرة، وتركزت معالم التحضر في الشعر في ثلاثة جوانب من الحياة الاجتماعية، وهي: مكانة المرأة في المجتمع، والمجالس الاجتماعية، والرياضات الجسدية والذهنية.

أولاً- مكانة المرأة في المجتمع:

تشير الكثير من المصادر والمراجع إلى أن المرأة في المجتمع الأندلسي - في عصر بني أمية - قد حظيت بمكانة اجتماعية عزّ نظيرها عند مثيلاتها في المشرق في الحقبة نفسها، ولعلّ من أهم أسباب ذلك انصهار العرب الفاتحين - في تلك الأرض البعيدة عن موطن العرب - بالإسبان وغيرهم من الأوروبيين.

وحديث بالذکر أنّ وضع المرأة الحرة في العصر الأموي غير واضح تماماً في المصادر، ولعلّ من أسباب ذلك تحفّظ المؤرّخين في تناول سيرة هؤلاء النساء اللواتي يشكّل أكثرهنّ الطبقة الرّاقية في المجتمع، واكتفاءهم - في الغالب - بأخبار الجوّاري اللواتي ساهمن في مختلف الأنشطة الاجتماعيّة والثقافيّة والسّياسيّة.

وعند النظر فيما وصل إلينا من قصائد ومقطوعات شعريّة تتعلّق بالمرأة الحرة في عصر بني أميّة، يلاحظ أنّ المرأة الحرة - عموماً - عاشت خلف حجابها، محروسة بعيون رقباؤها، ومما يستدلّ به على ذلك أنّ أبا عامر بن شُهَيْد " كان له بباب الصّومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر لماره، فقعد فيه ليلة سبع وعشرين من رمضان في لُصّة من أخوانه، وإذا بجارية^(١) من أعيان قرطبة معها من جواربها من يسترها ويواربها، وهي ترتاد موضعاً لمناجاة ربّها، وتبتغي منزلاً لاستغفار ذنبها، وهي متنبّئة، خائفة من يرقبها، مترقّبة، وأمامها طفل لها كأنّه غصن آس، أو ظي عرج في كناس، فلمّا وقعت عينها على أبي عامر ولّت سريعة، وتولّت مزوّعة خيفة أن يشبّب بها، أو يشهرها باسمها، فلمّا نظرها، قال قولاً فضحها به وشهرها:

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وناظرة تحت طي القناع
سَعَتْ خَفِيّةً تبتغي منزلاً
وحالت بموضعنا حَوْلَةً
أَتَيْنَا تَبَخَّرُ فِي مَشْرِبِهَا
وَرَبَعَتْ حَذَاراً عَلَى طِفْلِهَا
غَرَالِكُ تَفَرُّقٍ مِنْهُ اللَّيْثُوثُ
فَوَلَّتْ وَلِلْمِسْكِ مِنْ ذَيْلِهَا
دَعَاها إِلَى اللَّيْلِ والخيرِ دَاعٍ
لَوْصَلِ التَّبَتُّلُ وَالانْقِطَاعُ
فَحَلَّ الرِّبْعُ بِتِلْكَ الْبِقَاعِ
فَحَلَّتْ بِوَادٍ كَثِيرِ السَّبَاعِ
فَنَادَيْتُ: يَا هَذِهِ لَا تُرَاعِي
وَتَنْصَاعُ مِنْهُ كُفَاةُ الْمَصَاعِ^(٢)
عَلَى الْأَرْضِ خَطٌّ كَخَطِّ الشَّجَاعِ^(٣)

(١) يتضح من سياق هذه القصة أنّ تلك المرأة كانت حرة، ويفهم من ذلك أنّ لفظة (جارية) تطلق على الحرّات والإماء في ذلك العصر.

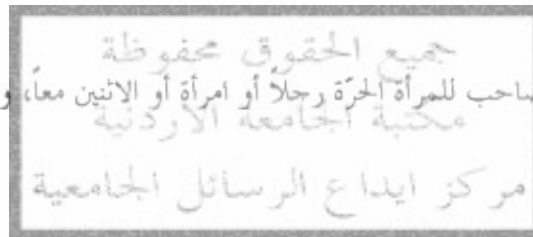
(٢) للمصاع: الجِلاد والضَّرَب. [ابن منظور، اللسان، مصع].

(٣) ابن خاقان، للطَّمَح، ص ١٩٢-١٩٣، ديب، محي الدين، ديوان ابن شهيد، ص ٩٣، الطّبعة الأولى، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت.

ويلاحظ مما سبق أنّ المرأة الحرّة كانت تخرج بصحبة رقيب أو أكثر لدفع المتطفّلين عنها، وقد أكثر الشعراء من نقد هذه الظاهرة الاجتماعية لما تمثله من حجر على حرّية المرأة، وتقييد لحركتها وتواصلها مع من تحبّ، وفي ذمّ الرقيب يقول ابن حزم^(١):

وقاسى الوجدَ وامتنعَ المناما	رقيبٌ طالما عرفَ الغراما
وكادَ الحبُّ يُورِثُهُ الجماما	ولا قى في الهوى ألماً أليماً
ولم يُضِغِ الإشارةَ والكلاما	وأقنَ حيلةَ الصَّبِّ المُعَنَى
وصارَ يرى الهوى عاراً وذاماً	وأعقَبَهُ التَّسَلَّى بعدَ هذا
ليُبعدَ عنه صَبّاً مُستهاماً	وصُيرَ دونَ مَنْ أهوى رقيباً
وأُيِّ مصيبةٌ حَلَّتْ لِمَاماً	فأَيُّ بَلِيَّةٍ صُبَّتْ عَلَيْنَا

وقد يكون الرقيب المصاحب للمرأة الحرّة رجلاً أو امرأة أو الاثنين معاً، وهذا ما يتّضح في بعض الأشعار الأندلسيّة^(٢).



وقد أدّى هذا النّظام الاجتماعيّ المحافظ في معاملة المرأة الحرّة إلى إحساس الخبيّن بالمعاناة، فرقت مشاعرهم، وترقرقت مدامعهم، وربّما تفرّقوا لاستحالة اللقاء، وفي وصف ذلك يقول عبادة بن ماء السّماء^(٣):

(١) ابن حزم: أبو محمّد عليّ بن أحمد بن حزم (ت ٤٥٦هـ)، طوق الحمامة في الألفة والألف، ص ١٦٩، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الأولى، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ١٤٠١هـ، ١٩٨٠م.

(٢) انظر مثلاً: ابن عبد ربّه، أحمد بن محمّد بن عبد ربّه الأندلسي، العقد، ج ٥، ص ٤٩١، مكتب تحقيق التراث، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م. الذّاية، محمّد رضوان، ديوان ابن عبد ربّه، ص ٩٣، الطبعة الأولى، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

(٣) ابن بسّام، أبو الحسن عليّ بن بسّام الشّشتريّ (ت ٥٤٢هـ)، الذّخيرة في غسان أهل الجزيرة، مج ١، ص ٢٩٣-٢٩٤، تحقيق: سالم مصطفى البدريّ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ابن حميس، أبو بكر محمّد بن محمّد بن عليّ بن حميس الملقب (ت ٦٣٩هـ)، كتاب أدباء مالقة (المسمّى مطلع الأنوار ونزهة الأبهار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام وقروءاء والأخبار، وتفيد ما هم من المناقب والآثار)، ص ٢٨٨، تحقيق: صلاح جرّار، الطبعة الأولى، دار البشير، عمّان، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

مَا مَرَّ يَوْمَ عَلِيٍّ لَمْ أَرَكَ
وَلَا مَبِيتِي^(١) وَأَنْتَ لَسْتَ مَعِي
يَا ظِيْفَةً أَوْلَعْتَ بِسَفْكَ دَمِي
أَمَّا أَنَا فَالْبَعِيدُ غَيْرِي
إِلَّا وَحْدَتُ^(٢) الصَّمِيرَ صَوْرَكَ
إِلَّا مَبِيتُ الْقَطَاةِ فِي الشَّرَكِ
غَضِي بِطَرْفِ الثَّقَابِ مَحْجَرَكَ
وَأَنْتَ خَوْفُ الرَّقِيبِ غَيْرَكَ^(٣)

إلا أن حبيب الحياة وتعطش الأندلسيين للإحساس بحلاوة الحب ولذته دفعهم إلى الخروج من هذا الأسر الاجتماعي بكل وسيلة ممكنة، فراحوا يتحايلون على الرقيب ويتخلسون الوصل اللذيذ على غفلة منه، وفي ذلك يقول الأديب عبد الله بن محمد^(٤):

يَا مَهْجَةَ الْفَتَنَاتِ مَا أَوْجَعَكَ
وَيَا رَسُولَ الْعَطَشِ مَنِ لِحْظُهَا
تَذْهَبُ بِالسَّرَفِ تَأْتِي بِهِ
كَمْ حَاجَةٌ أَنْجَزَتْ أَسْرَارَهَا
وَيَا أَسْمَرَ الْحَبِّ مَا أَخْضَعَكَ
بِالرَّدِّ وَالتَّبْلِغِ مَا أَسْرَعَكَ
فِي مَجْلَسٍ تُخْفِي عَلَى مَنْ مَعَكَ
تَبَارَكَ الرَّحْمَنُ مَا أَطْوَعَكَ

وورد في كتاب طوق الحمامة " لابن حزم شواهد أخرى على ذلك.^(٥)

وقد دفع هذا الحجاب وأسباب اجتماعية أخرى إلى اتخاذ السفير بين العاشقين ، ولكن المرأة تتفوق على الرجل في هذه الناحية، ولا سيما إذا كانت عجوزاً، ولذلك كان أرباب الأسر بقرطبة

(١) في أدباء مالقة : وطرف.

(٢) في المصدر السابق: ما مبيت.

(٣) اختلف ترتيب البيتين الثالث والرابع في أدباء مالقة.

(٤) ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي، كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ٢، (تاريخ الأندلس من الفتح إلى القرن الرابع الهجري)، ص ١٥٥، د.ت. أو مكان نشر.

(٥) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١٨٢.

يَحْذَرُونَ الْفَتَيَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ذَوَاتِ الْعَكَازِيزِ وَالتَّسَابِيحِ وَالتَّوَيْنِ الْأَحْمَرِينَ.^(١) وفي الرَّسُولِ يَقُولُ عَرَجُونُ^(٢):

يَا رَسُولِي، أَبْلِغْ إِلَيْهَا شِكَايَ وَاسْأَلْنَهَا^(٣) وَلَوْ بَقَاءَ حَيَاتِي
قُلْ لَهَا قَدْ قَضَى هَوَاكَ عَلَيْهِ فَهَوَ مَيِّتٌ أَوْ مُؤَذَّنٌ بِالْمَمَاتِ
فَالْحَظُّ عَلَيْهِ، ثَرَيْنَ إِنْ شَتَّتَ مَيِّتًا كَانَ يَحْيَا بِأَيْسَرِ اللَّحْظَاتِ
وَاعْجَبِي أَنْ تَكُونِ لِحَظَّةٍ عَيْنِ مِنْكَ تُهْدِي الْحَيَاةَ لِلْأُمُورَاتِ

كما سعى العشاق إلى مدّ جسور الصّلة بينهم من خلال المراسلات التي ينقلها سفراء العشاقين، وكانوا يحرصون على تنميق كتبهم وزخرفتها، وفي تأكيد ذلك وبيان علته يقول ابن حزم " وينبغي أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال، وجنسه أملح الأجناس، ولعمري إن الكتاب للسان في بعض الأحيان، إمّا لخصر في الإنسان وإمّا لحياء وإمّا لهيبة. نعم، حتّى إن لوصول الكتاب إلى المخبوب وعلم المحبّ أنّه قد وقع بيده ورآه للذة يمجدها المحبّ عجيبة تقوم مقام الرؤية، وإن لردّ الجواب والتّ نظر إليه سروراً يعدل اللقاء، ولهذا أما ترى العاشق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه! ".^(٤) وفي وصف كتاب منمّق من كتب المحبّين يقول الوزير عبيد الله بن إدريس^(٥):

كِتَابٌ تَرُودُ الْعَيْنُ فِي رَوْضِ حِطَّةٍ وَتَنْهَلُ مِنْ أَلْفَاظِهِ فِي مِشَارِعِ
كَأَنَّ مَعَانِيَهُ لَأَلٍ وَحِطَّةٌ رَحِمَ أَرْفُ تَنْمِيقِ الْأُكُفِّ الصَّوَانِعِ
رَعَتْ حِطَّةٌ عَيْنِي وَقَلْبِي لَفْظُهُ مَرَاءَاةً صَبَّ لِلتَّحُومِ طَوَالِعِ

(١) ذكر ابن حزم أنّ بعض ذوات الصّناعة مثل الطّبيبة والمناظرة والنّاحية والدّلالة والمغنيّة وغيرهنّ كنّ يفضّلن هذا الأمر. انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١٤١ - ١٤٢.

(٢) النّعماني، البيّمة، ج ٢، ص ٣٧، ابن الأثير، الحلة، ج ١، ص ٢٨٢، والشّاعر هو محمّد بن عبد الله بن عبد الواحد عند النّعماني، واسمه فرحون بن عبد الله في الحلة، ولعله وقع تصحيف في أحد هذين الاسمين.

(٣) في الحلة : واستنلها.

(٤) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١٣٩.

(٥) ابن الكّثاني، أبو عبد الله محمّد بن الكّثاني الطّبيب (ت ٤٢٠ هـ تقريباً)، كتاب التّشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ص ٢٢٥، تحقيق: إحسان عبّاس، الطّبعة الثّالثة، دار الشّروق، بيروت، القاهرة، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

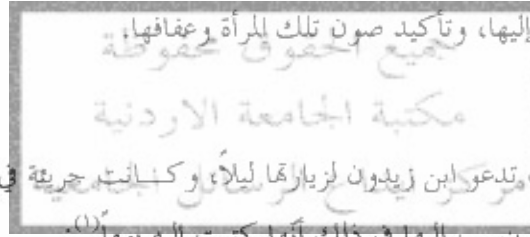
(١) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١٤٢.

(٢) النّعماني، البيّمة، ج ٢، ص ١٩، الحميدّي، الجذوة، ص ١٠٥، ابن خاقان، المطمح، ص ٣٣٥، ابن دحية، ذو التّسعين أبو الخطّاب عمر بن حسن (ت ٦٣٣ هـ) للطّرب من أشعار أهل المغرب، ص ٥، تحقيق: إبراهيم الإياريّ وحامد عبد المّجيد وأحمد أحمد بدويّ، مراجعة: طه حسين، مطبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة، ١٩٩٧، المقرّي، التّفحّ، ج ٤، ص ٤٨.

وما في التَّوَمِ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ جَرَّيْتُ مِنَ الْعَفَافِ عَلَى اعْتِيَادِي

إلا أن الموقف المتعفف الذي اتَّخذه ابن فرج في الأبيات السابقة لم يكن سائداً في الشعر، بل على النقيض من ذلك؛ إذ تحيّن أكثر الشعراء في حديثهم عن طيف الخيال الفرصة لتفجير الشهوات الكامنة في أعماقهم، والتمرد على القيود الاجتماعية، ولعلّ حجتهم في ذلك كانت أن التأم لا يؤاخذ في أحلامه.

ولا تعني الإشارات الشعرية والتثرية السابقة أن المرأة الحرة كانت بعيدة عن المشاركة في الحياة العامة أو فاقدة تماماً لحريتها، إذ اشتهرت العديد من الحرائر بمجالسهن وأخبارهن الجريئة، وعلى رأسهن الأميرة الشاعرة ولادة بنت الخليفة المستكفي، وتنسب لها بعض المصادر أخباراً وأشعاراً تكشف عن جرأة غير معهودة، وقد حاول بعض المؤرخين الذين أوردوا نقلاً من أخبارها وأشعارها



التشكيك في صحّة ما نسب إليها، وتأكيد صون تلك المرأة وعفافها، ويقال إنّ ولادة كانت تدعو ابن زيدون لزيارتها ليلاً، وكانت جريئة في دعوتها، وغير مبالية بأنّها ابنة القصر الأموي، ومما ينسب إليها في ذلك أنها كتبت إليه يوماً^(١):

ثَرَقْتُ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ زِيَارَتِي فَإِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَ أَكْتَمَ لِلْسَّرِّ
وَبِي مِنْكَ مَا لَوْ كَانَ بِالْبَدْرِ مَا بَدَا وَبِاللَّيْلِ مَا أَدْحَى وَبِالتَّجَمِّ لَمْ يَسْرِ

وكانت ولادة - في أخبارها ومجالسها - أنموذجاً للمرأة القويّة المتجبرة التي تفعل ما تريد، وتغضب إذا جرحت كبرياؤها أو تجاهل أحدهم أمرها، وقد أورد المقرئ في "التفح" أن ابن زيدون مال إلى جارية سوداء من جواري ولادة، فلما أيقنت ذلك كتبت إليه^(٢):

لَوْ كُنْتُ تُنْصَفُ فِي الْهَوَى مَا بَيْنَنَا لَمْ تَهْوَ جَارِيَتِي وَلَمْ تَتَخَيَّرِ

(١) ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ٤٣٠، ابن دحية، المطرب، ص ٩.

(٢) المقرئ، التفح، ج ٤، ص ٢٠٥.

وتركت غصناً مثمراً بجماله وجنحت للغصن الذي لم يثمر

وأمام جيروت هذه المرأة المترفة المدللة يخضع الرجال ويطلبون ودّها، ويتنافسون لنيل رضاها،
وبما قاله ابن زيدون في عشقها على جيروتها^(١):

أهيمُ بجبارٍ يُعزُّ ويُخضِرُ
شذا المسك من أردانٍ به يتضوُّعُ
إذا جئتُ أشكوهُ الجوى ليسَ يسمعُ
فما أنا - في شيءٍ من الوصلِ - أطمعُ
ولا أن يزورَ المقلتين منامُ

ولم تعدم غيرها من النساء الحرائر مدح الشعراء أو تغزّ لهم، ويروى أن الوزير عبد الملك بن
إدريس الجزيري مدح بنات المنصور بن أبي عامر في غير قصيدة، وأن ذلك لم يثر حفيظة المنصور، إلا
أن الشاعر لم يخرج عن الذوق العام فيما نظم، مستغلاً تشابه أسماء كريمة مع أسماء الأزهار، ومن ذلك
قوله على لسان ابنته بنفسه^(٢):

مركز ايداع الرسائل الجامعية

شهدت لنوارِ البنفسج ألسنُ
لمشابه الشعيرِ الأعمّ أعارة الـ
ولربما جمع التجميع من الطلّى
فحكاه غير مخالف في لونه
من لونه الأحوى ومن إنباعه
قمر المنير الطلق نور شعاعه
من صارم المنصور يوم قراعته
لا في روائحه وطيب طباعه

كما تمتعت المرأة الحرة بكلّ حقوقها الاجتماعية التي كفلها لها الشرع؛ إذ كانت تختار في أمر
زواجها، ومن الإشارات الشعرية التي تؤكد ذلك التصرف المتحضر في تأكيد إنسانية المرأة قول
الغزال^(٣):

(١) ابن زيدون، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون اللخزومي (ت ٤٦٣هـ)، ديوان ابن زيدون، ص ١٢٨، شرح وتحقيق:
عليّ عبد العظيم، دار لهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

(٢) المقرئ، التفتح، ج ١، ص ٥٣٢ - ٥٣٣.

(٣) الحميدي، الجذوة، ٣٧٥، الضبي، البغية، ج ٢، ص ٦٧٤، الذابة، محمد رضوان، ديوان يحيى بن حكم الغزال، ص ٨٧، الطبعة الأولى،
دار قتيبة، دمشق، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

وغيرها أبوها بين شيء
فقلت: خطبتا نحسب ومما إن
ولكن إن عزمنا فكل شيء
لأن المرء بعد الفقر يُثري
كثير المال أو حَدَثَ صغير
أرى من حظوة للمستجير
أحب إلي من وجه الكبير
وهذا لا يعود إلى صغير

وفي رفض خطبة تقول عائشة بنت أحمد القرطبية^(١):

أنا لبوة لكنني لا أرئضي نفسي مُناخاً طولَ دهري من أخذ
ولو أنني اختارُ ذلك لم أحب كلباً، وكم غلقتُ سمعي عن أسد

وفهم من البيتين السابقين أن تلك المرأة كانت تتمتع بقدرة من الحرية الخاصة، وأنها كانت
شديدة الاعتناء بمكانة الرجل الذي كان يتولى خطبتها، ولا ترضى بالدون من الرجال.
مكتبة الجامعة الأردنية

مركز أيداع الرسائل الجامعية

وكانت المرأة تستشار في زواج ابنتها، ويؤخذ برأيها، وقد تقف تلك الأم حائلاً دون إتمام
الزواج إن شاءت، وتما يروى في ذلك أن أبا المطرف عبد الرحمن بن هشام أراد خطبة حبيبة بنت
سليمان بن الحكم، فلوَّته أمها مُشتف^(٢)، وكان بقلبه من هذه الابنة مكان لنشأتهما معاً في ذلك
الأوان، فكتب إلى أمها قصيدة يسترضيها ويشكوها حاله، ومنها قوله^(٣):

وحالبة عُذراً لتصرف رغبتي وتأبي المعالي أن تحيز لها عُذرا
يكلّفها الأهولون ردي جهالة وهل حسن بالشمس أن تمنع البدر؟
وماذا على أم الحبيبة إذ رأت جلالة قذري^(٤) أن أكون لها صهرا

(١) للقرني، السلف، ج ٤، ص ٢٩٠. والشاعرة هي عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم، عالمة أدبية شاعرة، وكانت حسنة الخط تُكتب
المصاحف والدفاتر وتعني بالعلم، ولها خزنة علم كبيرة حسنة، ت (٤٠٠هـ). ترجمتها في: ابن بشكوال، الصلة، ج ٣، ص ٩٩٢.

(٢) هذا اسمها عند ابن بسام في الذخيرة، أما اسمها عند ابن الأثير في الحلة السواء فهو شتف.

(٣) ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ٣٢، ابن الأثير، الحلة، ج ٢، ص ١٤.

(٤) ساقطة من الذخيرة.

ومن المقطوعات الشعرية الطريفة في الحفاظ على حقوق المرأة عند زواجها أبيات لمحمد بن وهيب البديسي^(١)، يتحدث فيها عن عقد نكاح، وفيها يقول^(٢):

لأصدق عبد الله نجل محمد	فنتي أموي زوجة البكر مريما
وأمهرا عشري، عجل نصفها	دنانير يحويها أبوها مسلما
وأنكحها منه أبوها محمدا	سلالة إبراهيم من حي خثعما
وباقى صداق البكر باق على	ثلاثة أعوام زمانا متعما
مؤخرة عنه يودّي جميعها	إذا لم يكن عند التطلب مقديما
ومن شرطها ألا يكون مرحلا	لها أبدا عن دارها أين يمما
وأن لا يرى حثما بشيء يضرها	يصرف فيه الدهر كفا ولا فمما

ويفهم من البيتين الأخيرين أن المجتمع كان يسمح للمرأة المسلمة في الأندلس في ذلك العصر حقوقها الشرعية في اشتراط ما تشاء عند عقد نكاحها، وعلى الزوج أن يلبّيها، ما دامت لا تتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية. مركز ايداع الرسائل الجامعية

أما الجوّاري فكانت صورتهن أكثر وضوحاً وجرأة فيما وصل إلينا من نصوص شعرية، ولا سيما جوّاري القصور اللواتي أُنرن في الكثير من جوانب الحياة العامة في الأندلس في العصر الأموي.

وتما يلفت الانتباه عند دراسة صورة الجوّاري في الشعر الأندلسي في ذلك العصر أن بعض ملامحها قد ظهرت من خلال بعض القصائد والمقطوعات المنسوبة إلى عدد من الأمراء والخلفاء الأمويين، ومن ذلك ما ينسب للحكم الرّبيعي^(٣) في خمس جوارٍ من حظاياها، كن مصطحبات، فتغاضبن عليه وقتاً في طريق الغيرة وهجرته^(٤)، فقال فيهن^(٥):

(١) قال عنه التّعالّي: "أحد أفراد زمانه، كان يجلس للمصور بن أبي عامر في الأعياد". التّعالّي، البيعة، ج ٢، ص ٨٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن الأثير، الخلة، ج ١، ص ٥٠.

(٤) المصدر السابق، ابن عذاري، البيان للمغرب، ج ٢، ص ٧٩.

قُضِبُ مِنَ الْبَانِ مَاسَتْ فَوْقَ كُتُبَانِ وَلَتَيْنِ^(١) عَنِّي وَقَدْ أَزْمَعَنْ هَجْرَانِ
 نَاشِدْتُهُنَّ بِحَقِّي فَاعْتَزَمَنْ عَلَى الْـ عَصِيَانِ^(٢) حَتَّى حَلَا^(٣) مِنْهُنَّ عَصِيَانِ^(٤)
 مَلَكْنِي مُلْكٌ مِّنْ ذَلَّتْ عِزَّائُهُ^(٥) لِلْحَبِّ ذُلٌّ أَسِيرٌ مُّوْتَقٍ عَانِ
 مَن لِّي بِمَغْتَصِبَاتِ الرُّوحِ مِنْ بَدَنِي يَعْصِبَنِي فِي الْهَوَى عِزِّي وَسُلْطَانِي

ويقف سليمان المستعين موقفاً مشاهماً لموقف جدّه الحكم، فيقول أبياتاً في ثلاث جوارٍ من جواريه متذلاً مستعطفاً، ومنها^(٦):

وتملكت نفسي ثلاث كالدمي زُهِرُ الْوَجْهِ نَوَاعِمُ الْأَبْدَانِ
 ككواكب الظلماء لُحْنٌ لَنَاظِرٍ مِنْ فَوْقِ أَغْصَانِ عَلَى كُتُبَانِ
 هذي الهلال، وتلك بنت المشتري حُسْنُ بَنَاتٍ، وَهَذَا نِيْ أَخْبَتُ غَضَنِ الْبَانِ

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الجامعة الأردنية

وعند الموازنة بين النصين السابقين يلاحظ أن الحديث كان عن عدد من الجوّاري لا عن جارية واحدة، وأن هؤلاء الجوّاري كان حُرٌّ سُلْطَانٌ عَظِيمٌ عَلَى الْحَاكِمِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَبْذُلُ كُلَّ مَا فِي وَسْعِهِ لِإَرْضَائِهِمْ، وَ هَذَا يَتَّفَقُ مَعَ مَا تَذَكَّرَهُ الْمَصَادِرُ وَالْمَرَاجِعُ عَنْ مَكَانَةِ الْجَوَّارِي فِي قُصُورِ الْأُمَرَاءِ وَالْخُلَفَاءِ، وَدَائِلَتِهِمْ عَلَيْهِمْ فِي شُؤْنِ الْحُكْمِ وَالسِّيَاسَةِ.

(١) في البيان المغرب : الباز بدلاً من البان، وأعرض بدلاً من ولّين.

(٢) في المصدر السابق : الهجران.

(٣) في المصدر السابق : حلا.

(٤) في المصدر السابق : هجران.

(٥) في المصدر السابق : عزائته.

(٦) الحميدي، الجسوة، ص ٢١، الضيّق، البيعة، ج ١، ص ٤٨، ابن الأثير، الحلة، ج ٢، ص ٩، الجراوي، أبو العباس أحمد بن عبد السلام التادلي، الحماسة المغربية، ج ٢، ص ١٠٤٣ - ١٠٤٤، تحقيق: عمّاد رضوان الداية، الطبعة الأولى، دار الفكر للعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٩٩١م. ويشير الحميدي والجراوي في الموضعين اللذين سبقت الإشارة إليهما إلى أن سليمان المستعين عارض هذه الأبيات أبياتاً منسوبة لهارون الرشيد، ومطلعها:

مَلِكُ الْقَلَاتِ الْآنَسَاتِ عَنَانِ وَحَلَلَنْ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ
 ويشير صاحب المعجب إلى أن هذه القصيدة نظمها العباس بن الأحنف على لسان هارون الرشيد ف نسبت إليه. للمراكشي، عمى الدين عبد الواحد بن علي التميمي للمراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٣٠، تحقيق: عمّاد سعيد العريان، الناشر: عمّاد توفيق عريضة، القاهرة، ١٩٦٣م.

وقد ارتبطت أسماء بعض الأمراء والخلفاء بأسماء جوارٍ بأعينهن، وشاعت قصصهم مع هؤلاء الجوّاريّ شيوخ قصص العشق في الأدب العربيّ القديم، ومن أشهر تلك القصص قصّة الأمير عبد الرحمن الأوسط مع جاريته طروب التي كانت أحبّ جواريه إلى قلبه، ونالت من الدلال والإكرام والحبّة - كما تشير المصادر - ما لم تنله جارية قطّ، ومن قوله فيها^(١):

إذا ما بَدَتْ لِي شَمْسُ التَّهْمَا رَطَالَعَةً ذَكَرْتُني طُروبَا
عَدائي عَنْكَ مَزَارُ الْعِدَى وَقَوْدِي إِلَيْهِمْ لُهاماً مَهيبَا
أَلْقِي بَوَجْهِ سَمُومِ الْحَبِيبِ رَإِذَا كَادَ مِنْهُ الْحَصَى أَنْ يَذُوبَا

وقد بلغ من محبته لها أنّه لمّا أبدت له هجراناً، قدّم لها خرائط مملوءة بالدرهم استرضاء لها واستعطافاً لوصولها، ووصل المبلغ إلى حوالي عشرين ألفاً، وعقد قيمته عشرة آلاف دينار، ولمّا عظم وزراؤه الأمر عليه قال: "إنّ لابسَه أنفُسَ منهُ احطَرَّتْ وَأَرْفَعَ قَتَرُهَا وَالْفَقْرُ رَاقَ مِنْ هَذِهِ الْحَصْبَاءِ مَنْظَرُهَا، ورصف في النفس جوهرها، فلقد برأ الله من خلقه جوهرًا يفتش الأَبصار، ويذهب بالألباب. وهل على وجه الأرض من زبرجدها وشريف جوهرها أقرّ لعين، وأجمع لزين، من وجه أكمل فيه الحسن ونصرتة، وألقى عليه الجمال بحسنه"^(٢)، وفي ذكر هذه الحادثة يقول عبد الله بن الشَّمر المنحَم مضمناً ردّ الأمير في شعره^(٣):

أَتَقَرُّنُ حَصْبَاءَ الْيَوَاقِيتِ وَالشُّنَرِ إِلَى مَنْ تَعَالَى^(٤) عَنْ سَنَا الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ
إِلَى مَنْ بَرَّتْ قِدَمًا يَدُ اللَّهِ خَلْقَهُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً غَيْرَهُ أَحَدٌ يَبْرِي^(٥)

(١) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٤٧.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٩٢.

(٣) ابن الأبار، الحلة، ج ١، ص ١١٧، ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٩٢، وعبد الله بن الشَّمر بن مُعَيز القرطبيّ منجَم الأمير عبد الرحمن الأوسط وتلميذ، كان مفتناً في العلوم جيّد الشعر، وله رحلة إلى المشرق. ترجمته في: ابن الفرضيّ، تاريخ العلماء، ج ١، ص ٢٦٨.

ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٢٦٨.

(٤) في البيان للمغرب: بمن تعالى.

(٥) في المصدر السابق: (بمن) بدلاً من (إلى من)، و (قلبه) بدلاً من (غيره).

فأكرم به من صيغة^(١) الله جوهرأ تضاءل عنه جوهر السير والبحر

ولم ينحصر أثر الجوّاري في حياة القصور ، إنما تعدّاه إلى المشاركة في الحياة العامة^(٢)، وكنّ متميّزات في ذلك لما حظين به من حرّية في الحركة والتنقّل، وتسامح في مخالطة الرجال، وقد كان الشعراء أكثر جرأة في حديثهم عن علاقاتهم بالجوّاري، وتناولوا تفاصيل ما كان يدور في لقاءاتهم من دون حرج، وقد تقتزن القصيدة باسم الجارية التي شاركت الشاعر في خلوته صراحة، ومن ذلك قصة الغزال مع جاريته لُعوب، ومن قوله فيها^(٣):

لم أتس إذ برزت إليّ لُعوب طرباً وحيث قميصها مقلوب
وكأنها في الدار حين تعرّضت ظني تدلّهُ بالفلا مرعوب
تفتر عن درّ تناسق نظمهُ فيه لثاة غلبة وغروب^(٤)
حاولت منها وشقة فكأنهم الحقوق عسل ووظف سحابة مقطوب^(٥)
ودعّتك داعية الصبا فطربيت الجامعة التي دعي الضلال طروب

مركز أيداع الرسائل الجامعية

ولم تقتصر هذه الجرأة في تناول العلاقات الخاصة على الشعراء المتحرّرين من القيود الاجتماعية؛ إذ نجد عالماً فقيهاً مثل ابن حزم يتحدث عن الخلوة بالمحبوب في "طوق الحمامة" شعراً ونثراً، ولا يبدو متحرّجاً في ذكر ذلك، وإن كان أكثر التزاماً - فيما نظم - من سائر شعراء عصره، ويكتفي بالتلميح دون التصريح، ومن ذلك قوله^(٦):

(١) في البيان المغرب : صنعة.

(٢) تناول هذه الدراسة في الفصل الثّاني تفاصيل وافية عن مشاركة الجوّاري في الحياة الثقافيّة.

(٣) ابن دحية، المطرب، ص ١٤٩، الدّاية، ديوان الغزال، ص ٤٩ - ٥٠.

(٤) الغروب : جمع غرب، وهو كثرة الرّيق في الفم. [ابن منظور، اللسان، غرب].

(٥) مقطوب : ممزوج. [المصدر السابق، قطب].

(٦) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١٠٩ - ١١٠، اللّقي، التّصح، ج ٣، ص ٥٩٩.

خَلَّوْتُ بِهَا وَالرَّاحُ ثَالِثَةٌ لَنَا وَجُنْحُ ظِلَامِ اللَّيْلِ مُذْ مُذْ مَا انْبَلَجَ^(١)
فَنَادَا عَدِمْتُ الْعَيْشَ إِلَّا بِقُرْبِهَا فَهَلْ فِي ابْتِغَاءِ الْعَيْشِ وَيَحْكُ مِنْ حَرْجٍ
كَأَنِّي وَهَيْيَ وَالْكَأْسَ وَالْخَمْرَ وَالذُّجَى تُرَى وَحْيَا وَالْقُرْ وَالْقُرَّ وَالسَّبَّحَ^(٢)

ويبدو أن الأندلسيين كانوا يتناولون مثل هذه الأحاسيس والمشاعر دون حرج أو تعقيد، ويحاورون فقهاءهم، ويستشيرونهم، وربما جادلهم وحاججهم في مسائل قد لا تبدو في ظاهرها متفقة مع تعاليم الدين الإسلامي، ويروى أن بعض الأدباء كتب إلى ابن حزم شعراً يقول فيه^(٣):

سَأَلْتُ الْوَزِيرَ الْفَقِيهَ الْأَجَلَ سَوَّالَ مُدِلٍّ عَلَى مَنْ سَأَلَ
فَقُلْتُ: أَيَا خَيْرَ مَسْتَرْشِدٍ وَيَا خَيْرَ مَنْ عَنِ إِمَامٍ نُقِلَ
أَيَحْرُمُ أَنْ نَالَنِي قُبْلَةً غَزَالَ تَرْشَفُ فِيهِ الْعَرَّالُ
وعانقني والذحني خاض جميعاً عَنِ حَتَّى نَصَّالُ
وجئتُك أَسْأَلُ مُسْتَكْبِراً فَالْأَنْ قُدِيَّةً لِمَنْ قَدْ سَأَلَ

مركز ايداع الرسائل الجامعية

فأجابه ابن حزم بقوله:

إِذَا كَانَ مَا قَلَّ لَهُ صَادِقًا وَكَانَ ضَاحِكًا طَاوِي الْحَشَا
قَرِيبَ الرُّضَى وَلَهُ غُثَّةٌ تُمِيتُ الْهَمَّ وَتُخَيِّ الْجَنَّةُ
فَقِي أَخَذَ أَشْهَبَ عَنْ مَالِكٍ عَنِ ابْنِ شَهَابٍ عَنِ الْغَيْرِ قُلْ
بِتَرْكِ الْخِلَافِ عَلَى جَمْعِهِمْ عَلَى أَنْ ذَلِكَ حِلٌّ وَبَلْ

(١) في التفح: (قد مد واعتلج) بدلا من (مذ مد ما اعتلج) .

(٢) السج: الحرز الأسود. [ابن منظور، اللسان، سيج] .

(٣) للقرني، التفح، ج ٤، ص ١٦٠ .

وما كان من عطف علي حديثها ولكن لتعذيب الفؤاد المعذب
حديث لو استسقت به الصخر جادها بأعذب من صوب الغمام وأطيب

وقد بلغ من رقة الشاعر الأندلسي المتحضر في معاملة المرأة ومخاطبتها أنه يخشى عليها من أن يجرحها أو يتلفها بلحظ عينيه، وقد دار هذا المعنى على لسان أكثر من شاعر، ومن ذلك قول يوسف بن هارون الرمادي^(١):

وإني أغضي الطرف عنك جلالة وخوفاً على حديثك من لحظاتي
ولو أنني أهملت عيني بأن ترى سنالك لحالت دونها عيراتي

ومثل هذه المعاني الرقيقة الشفافة لا يمكن أن تدور إلا بخاطر شاعر متحضر، فهو القادر على استشعار كل هذه الرقة في المرأة المائلة أمامه، أو الساكنة في خاطره.

مكتبة الجامعة الأردنية
مركز أيداع الرسائل الجامعية

وقد بلغ من إحساس الرجل الأندلسي شاعراً وغير شاعر - برقة المرأة وأنوثتها أنه كان يطرق كل السبل لإرضائها، وكان تقدم الهدايا للمرأة من مكملات تحضره وحسن معاشرته لها، ومن طريف ما جاء في الشعر في باب إهداء الورود قول عبيد الله بن إسماعيل بن بدر^(٢):

كنت قد أهديت ورداً فادعيت أنه من ورد خديتها سرق
ومشيت عجلي إلى مراتبها فإذا ورد كوردي في الطبوق

(١) السعالي، البتمة، ج ٢، ص ١١٦، حرار، ماهر، شعر الرمادي يوسف بن هارون / شاعر الأندلس في القرن الرابع الهجري، ص ٥٦، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

(٢) الحميدي، الجذوق، ص ٢٦٨، الضبي، البيعة، ج ٢، ص ٤٥٩، وذكر الضبي أن اسمه عبد الله، وهو مذكور بالأدب والشعر. ترجمته في: المصدرين نفسيهما.

وإذا عزَّ عليه وصلها فقد يستهدي شيئاً من آلتها يتصبر به، وفي مثل هذا المعنى يقول ابن زيدون^(١):

أَهْدِي إِلَيَّ بَقِيَّةَ الْمَسْـوَاكِ لَا تُظْهِرِي بُخْلًا بِعُودِ أَرَاكِ
فَلْعَلَّ نَفْسِي، أَنْ يُنْفَسَ سَاعَةً عَنْهَا، بِتَقْيِيلِ الْمُقْبِلِ فَـاكِ

ثانياً - المجالس الاجتماعية:

كانت مجالس الأندلسيين شاهداً آخر على مستوى التحضر الذي وصل إليه المجتمع في العصر الأموي، وقد حظيت تلك المجالس باهتمام المؤرخين، وسجلوا الكثير من أخبارها في كتبهم ومؤلفاتهم، وإن كانت أغلب تلك الأخبار عن مجالس الأمراء والخلفاء وعلية القوم، ويندر أن يشتمل مصدر من المصادر على أخبار مجالس عوام الناس، ولعل من أسباب ذلك ترفع المؤلفين عن تسجيل ما يتصل بهذا الجانب من حياة الأندلسيين؛ إذ اتسم التأليف - في ذلك العصر وعن ذلك العصر - بالدوران في فلك الحكام، وعدم الاقتراب من الحياة البسيطة التي كان يحياها أبناء الطبقات الفقيرة.

وقد واكب الشعر تلك المجالس وما يدور فيها من أخبار وحكايات، كما كان جزءاً لا ينفصل عنها في كثير من الأحيان، إذ لا يكاد مجلس من المجالس يخلو من شاعر أو أكثر يسجل ما يدور فيها، ويضفي لمسات خاصة عليها، وقد حرص أصحاب تلك المجالس على استدعاء الشعراء ومناذمتهم، وكانوا يطلبون إليهم أن يقرضوهم رائق الشعر وبديعه، فتجود قريحة الشاعر غالباً بوصف ما يدور في تلك المجالس من مشاهد ونوادر حكايات وفكاهات، ومما يروى في ذلك أن الوزير عبيد الله بن إدريس استدعى أبا بكر بن عثمان المرواني، "وناداه ليلة، فلما قرب الصبح، قال له: أين ما يحدث عنك من

(١) ابن زيدون، الديوان، ص ١٢٤.

حسن الشعر؟ فهذا موضعه. فقال: الدواة والقرطاس. فأمر له بإحضارهما، فجعل يفكر ويكتب، إلى أن أنشده هذه الأبيات:

بئسنا ندامى صفاء يُستَحَثُّ لنا في جامد الفضة التبرُّ الذي سُبكا
كلُّ مُصَيِّخٍ إلى ما قال صاحبه ولا يبالي أصدقاً قال أم إفكاً
مُوقِّرونَ خِفافٍ عند شربهم ولا يخافون فيما أخذوا دركاً
لا نعلمن إذا أبصرتهم فرحاً أما ترى الصبح من بشرهم ضحكاً^(١)

وتكشف الأبيات السابقة عن جانب من نفسية الإنسان الأندلسي في العصر الأموي، فهو يهوى مجالس الأنس والسم، ويستمتع بحديث صاحبه غير مبالٍ بصدقه أو كذبه، و يريد أن يستمتع بوقته قدر استطاعته، ولا يريد أن يشغل باله في التفكير والتدبير، وتصديق جليسه أو تكذيبه، ولعله غير غافل عن ذلك، ولكنه لا يريد إفساد المجلس برّد حديث هذا أو ذاك، أولعله كان يحرص على عدم إبناء مشاعر الجالسين إن حدثوا بكذب، فيتجاوز عنها في سبيل الحفاظ على الأجواء المرحّة التي تسود المجلس.

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

كما تكشف الأبيات السابقة عن حسن استماع الأندلسيين بعضهم لبعض في المجالس، ويفهم ذلك من كلمة "مُصَيِّخ" الواردة في البيت الثاني، وقد كانوا يرون الحديث فناً من فنون الحياة المهمة التي لا يستغنى عنها، وقد كان لاهتمامهم الشديد بأدب الحوار أثر كبير في استمتاعهم بمجالسهم، وإلى مثل هذا المعنى يشير جعفر بن عثمان المصحفي في قوله^(٢):

لَيْلَتِي غَمُضَةٌ وَنَوْمِي لَحْظَةٌ هَكَذَا دَهْرٌ كُلُّ مَنْ نَالَ لَحْظَةً
وَكَأَنَّ الْحَدِيثَ وَهُوَ فَنُونٌ خَفَقَاتُ السَّرُورِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ

(١) المقرئ، التفع، ج ٤، ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) ابن الككائي، التشبيهات، ص ١٤٢.

وكان الإحساس بالمتعة والفرح أقوى في نفوس الأندلسيين من المرض أو الكبر أو العجز، ويروي ابن سعيد في "المغرب" ^(١) نقلاً عن المطمح ^(٢) أن ابن شهيد ^(٣) حضر يوماً للمنصور على راحه، فتناهى الطرب بالمنصور وندمائه، إلى أن تصاحوا، وتراقصوا، وبلغ الدور بالكأس إلى ابن شهيد، وكان لا يطيق القيام من نقرس، فأقامه الوزير ابن عباس ^(٤)، فارتجل هذه الأبيات، وجعل يغرد بها :

هاك شيخاً قاده ودُّ لكا قام في رقصيه مُستهلكاً ^(٥)
لم يطبق يرقصها مُستثيباً فائتني يرقصها مُستمسكاً
أنا لو كنت كما تعرفني قمت إحلالاً على رأسي لكا
فهقه الإبريق مني ضاحكاً ^(٦) ورأى رعدة رجلي فبكي

وقد كان الأندلسيون يلبغون مبلغاً عظيماً من الدعاية والمنازحة في مجالسهم، حتى لو كانوا في مجلس أمير أو وزير، وقد يبدأ الأمير أو الوزير بمنازحة جلسائه، ولما يروى في ذلك أن الوزير سليمان ابن الأسوس البربري ^(٧) دخل يوماً على الأمير عبد الله بن محمد، وكان سليمان هذا عظيم اللحية، فلما رآه الأمير مقبلاً جعل ينشد نمر كز أيداع الرسائل الجامعية

معلوفة كأنها جوالق نكداء لا بارك فيها الخالق
للقل في حافيتها نقانق

(١) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٢٠٣ - ٢٠٤، كما وردت هذه الحكاية في: المقرئ، التفتح، ج ٣، ص ٢٦١.

(٢) لم ترد هذه القصة في المطمح، (تحقيق شوابكة).

(٣) المقصود هنا أبو مروان عبد الملك بن أحمد بن شهيد، من شيوخ الوزراء في الدولة العامة، له علم بالخبر والتاريخ واللغة والأشعار، ت (٣٩٣ هـ). ترجمته في: الحميدي، الجذوة، ص ٢٦١، ابن الأثير، الحلة السراء، ج ١، ص ٢٣٩، ابن بشكوال، الصلة، ج ٢، ص ٢٣٩. (٤) أبو جعفر أحمد بن عباس، من وزراء العامين، بدأ أهل زمانه في أربعة أشياء: للال، والعجب، والبخل، والكتابة، مات مقتولاً سنة (٤٢٧ هـ). ترجمته في: ابن هشام، الذخيرة، مج ١، ص ٤٠٠، ابن عذاري، البيان للمغرب، ج ٣، ص ١٦٩، ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٢٠٥، وغيرها.

(٥) في المغرب: (شيخ) بدلاً من (شيخاً)، و (مستهلكاً) بدلاً من (مستهلكاً)، والصواب ما ورد في التفتح.

(٦) في المصدر السابق: ضحكاً، والصواب كما جاء في التفتح: ضاحكاً.

(٧) كان وزيراً للأمير عبد الله بن محمد، وكان مذكوراً بالأدب والعلم والعقل وعزة النفس. ترجمته في: الحميدي، الجذوة، ص ٢٢٦، الضبي، البيعة، ج ٢، ص ٣٨٣.

فغضب سليمان، وردَّ على الأمير ردًّا قاسياً، وقام من غير أن يسلم ونهض إلى منزله، فأغضب الأمير عدم كياسته في القول والاستئذان، وأمر بعزله، إلا أنه وجد لفقده تأثيراً، وبعث إليه رسولاً يسترضيه، فأبى، فما كان من الأمير إلا أن ابتدأ بالإرسال إليه، وردّه إلى أفضل مما كان عليه.^(١)

وكان الأندلسيون يتسامرون في مجالسهم تلك بالقصص والحكايات المختلفة، وفي الإشارة إلى ذلك يقول عبيد الله بن إدريس^(٢):

وَأَذْكُرْنَا الشَّعْبِيَّ طَيْبُ حَدِيثِهِ وَأَحْمِلَ عَمْرًا عَلَّمُهُ وَأَبَا عَمْرِ^(٣)
إِذَا مَا شَهِدْنَاهُ تَقَاصَرَ يَوْمُهُ بِأَنْسٍ حَكَى طَيْبَ السَّمَاعِ عَلَى الْخَمْرِ
نُعَاطِي مِنَ الْإِنْسَانِ رَاحاً مَرِيحَةً عَلَى الْعَقْلِ، لَا كَالرَّاحِ تَغْشَاكَ بِالسُّكْرِ
فَمَا يَوْمُهُ فِي الْأَنْسِ إِلَّا كَطَيْبِ الْخَمْرِ وَتَطْأُولُ كَالْعُمْرِ

مكتبة الجامعة الاردنية

وفهم من إشارة الشاعر إلى الشعبي في البيت الأول أن الوصف السابق كان لقاص من القصّاص، ولا سيما أنه يفاضل بينه وبين الجاحظ وأبي عمرو بن العلاء، وهما من أصحاب الحكايات والنبوءات الطريفة والمسلية، مما يرجح ذبوع فن القصّ في الأندلس منذ العصر الأموي.

وقد كان بعض الشعراء ينشدون الجلساء الحكايات والأخبار الطريفة والمسلية شعراً، ومن أشهر من عرف بهذا اللون من الشعر في ذلك العصر الأديب أبو عبد الله محمد بن مسعود^(٤)، وله من قصيدة يسامر فيها الخليفة سليمان المستعين في مجلسه^(٥):

(١) انظر القصة بالتفصيل في: الحميدي، الجفوة، ص ٢٢٦، الطنّي، البقية، ج ٢، ص ٢٨٣.

(٢) ابن الكثير، التشبيهات، ص ١٤١.

(٣) يقصد بالشعبي عامر بن سراحيل، كان كاتباً من رجال العصر الأموي، (١٠٥ هـ)، وعمرو: الجاحظ، وأبي عمرو: ابن العلاء.

(٤) كان شاعراً طريفاً في أمره، كثير القول في نظمته ونثره. ترجمته في: ابن يسم، الذخيرة، مج ١، ص ٣٤٣.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٤٩.

هَلْ لَكَ يَا مَوْلَايَ فِي طُرْفَةٍ
لَيْسَ عَلَى مُرْسَلِهَا نَحْوُكُمْ
قَدْ أَبَدَعْتَ أَهْزَالَ أَشْعَارِهِ
لَكُنْهَا كَأَسَدَةٍ هَاهُنَا
لَيْسَ عَلَى عَاتِقِهِ عُقْدَةٌ
وَأَتَيْتُ عَنَّقَتِي بَعْدَ مَا
وَكُنْتُ ذَا هَذِي وَمَسَمْتُ إِلَى
وَلَا بَدِيعٍ، لَا، وَلَا مُنْكَرٍ
فَعَلْتُ فِي آخِرِ عُمْرِي كَمَا
أَصَبْتُ فِي نُسْكَي وَزُهْدِي الَّذِي
وَكَانَ صَوْتِي قَبْلَ ذَا فَتْنَةٍ^(١)
وَقَدْ غَدَا نَاعُورَةٌ خَائِلًا

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

ويكشف ظاهر الأبيات عن الكافّة اعين روح المرحمة غفل هذا الشاعر عيوبه وقبّل الخليفة لمزاحه دون استئفال أو ضجر، إلا أن باطنها يخفي نقداً لادعاء الواقع السياسي في زمن الفتنة، فالشاعر لا يتحدث عن فعل الزمان به بقدر ما يرمز إلى تبدل الحال وسوء المآل، ويتنبأ بسقوط الحكم الأموي قريباً، ولكنه لا يستطيع مواجهة الخليفة بذلك، فاستغلّ هذا القالب الفكاهي للتعبير عما يريد، وكم من تلميح فاق كلّ تصريح.

وقد ينظم الشعراء ما يواجههم من مواقف وحكايات ظريفة أو غريبة في قالب شعري قصصي مسلّ، يفاكهون بها جلساءهم، ويزينون بها مجالسهم، ومن ذلك قول محمد بن مسعود أيضاً من قصيدة طويلة يخاطب فيها سليمان المستعين^(٢):

(١) شربون: حصن من حصون بلنسية. [البدرى، الذخيرة، الحاشية، ص ٣٩٤].

(٢) يقصد المنذر بن يحيى التميمي أمير (سرقسطة)، و إيبرون: مقرّ تقع عليه مدينة (سرقسطة) بالشّرق الأعلى. [البدرى، الذخيرة، الحاشية، ص ٣٩٤].

(٣) في الأصل: فتنة، والفتوة ما أتت.

(٤) ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.

يا ابنَ حَـمِيرِ الملوِكِ والخلفاءِ
 قَبِضْ اللّهُ لِي مِنِ ابْنِا ^(١) أَبِي الرَّ
 لم يكنْ مثْلُهُ مِنِ اولادِ جـالو
 قالَ لي: قُرْطُيْ أَنْتَ، تَحِيلُ
 ما أَنَا - يا فديتُكُمْ - قُرْطُيْ
 وقلِ الحقُّ والفصاحةُ، حلَّ
 الشَّعيرِ الشَّعيرَ، دعني مِنَ الشَّعْ
 هاتِ ذاكَ النِّطَاقَ واخْلُصْ، وإلَّا
 وأرادَ العَدُوُّ ذُبْحِي ولكِنِ
 فَعَلاني بالهَندواني حَتَّى اسْت
 واعتراي ما لستُ أَذكرُ لكنْ
 يا صُباباً خَلَيْتُ في ذلكَ الفَحْ
 وهو باقٍ هناكَ ما هَبْتَ الرِّيحَ
 جميع الحقوق محفوظة
 مكتبة الجامعة الأردنية
 مركز أيداع الرسائل الجامعية

ولا تكاد هذه القصيدة تخلو - هي الأخرى - من النقد اللاذع، ولعلّه هذا أكثر وضوحاً في هذا
 المقام، فما اللصّ إلّا أولئك الطّامعون في الملك، وإنكار الشاعر لقرطبيته ما هو إلّا إنكار لواقع حال
 قرطبة زمن الفتنة، وما عاد للشاعر - الذي يتحدث بلسان الشعب الجائع والباحث عن لقمة العيش -
 إلّا الحفاظ على عرضه: "ظنّ ما شئتَ غيرَ كشفِ الغطاء".

ولا تكاد مجالس الأندلسيين في العصر الأمويّ تخلو من صنوف اللهو والمتعة؛ ومن الغناء
 والشّراب، وكان الجلّساء يتبارون في إبراز قدراتهم ومواهبهم المتعدّدة في تلك المجالس، وينشغلون
 بالوقوف على التفاصيل الصّغيرة لما يروونه ويشعرون به من متع الحياة ومباهجها، ومما يدلّ على سعة
 فراغهم وهدوء بالهم ما يروى على لسان أبي عامر بن شُهَيْد من أن أحد الجلّساء تناول نرجسة،

(١) لعلّ المقصود أبناً، وحفقت الميزتان لضرورة شعرية.

وركبها في وردة، وطلب إلى ابن شهيد وصاعد البغدادي أن يصفها، فأرتج عليهما القول، فدخل الزبيري^(١) وجلس، ولما علم بأمرهما أخذ يقول دون رواية^(٢):

ما للأديبين قد أعيتُهُما مليحة من ملح الجنّة
نرجسة في وردة ركبته كمقلية تطرف في وجنة

ومن اللافت للانتباه في أخبار تلك المجالس أن أصحابها ومرتابيها ما كانت جعيتهم تخلو من الشعر، سواء أكانوا شعراء أم غير شعراء، مما يعني أن الشعر استطاع أن يكون جزءاً لا يتجزأ من تكوينهم، ونجح في التعبير عن أدق تفاصيل حياتهم، وكان مطوعاً للتعبير عن فلسفتهم في الاستمتاع بالحياة ومباهجها حتى الرّمق الأخير.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
ثالثاً - الرياضات الجسدية والكهنية^(٣) الرسائل الجامعية

انصرف الأندلسيون في أوقات فراغهم إلى ممارسة العديد من الرياضات الجسدية والذهنية، وكانت ألعاب الفروسية من أكثر الرياضات الجسدية المحببة إلى نفوسهم، ولا سيما أنها ارتبطت بالحروب وإعداد الجيوش لمواجهة الأعداء، وكانت المهارات والخبرات التي يحصل عليها الفارس الأندلسي في التدريب العسكري تستثمر في أوقات السلم لإقامة مباريات ومبارزات يحضرها جمع غفير من النظارة، وفي مقدمتهم الأمراء والخلفاء، الذين كانوا من أوائل المشاركين فيها، ولم تقتصر ممارسة

(١) صاحب أبي العلاء صاعد بن الحسن، كان أديباً شاعراً فكهاً، ترجمته في: الحميدي، الجنوة، ص ٤٠٨. ولقبه في النسخ الزهري.
للقرني، التلح، ج ٣، ص ٥٩٨-٥٩٩، وفيه أن الزهري هذا كان أنياً لا يذكر من الكلام إلا ما علق بنفسه في المجالس، وينفذ مع هذا في الطولات من الأشعار.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) للمزيد عن الرياضة في الأندلس، انظر: سالم، عبد العزيز صلاح، الرياضة عبر العصور - تاريخها وأثارها، مركز الكتاب للنشر، القاهرة،

الرّياضة على الفرسان المحاربين؛ إذ يشير ابن حيّان في "المقتبس" - في حديثه عن خروج الفرق العسكرية والمدنية لاستقبال الخليفة في الأعياد أو استقبال الوفود - إلى أن فرسان الرّياضة كانوا ممن يقدمون التّهاني^(١)، ووجود فرقة خاصة لفرسان الرّياضة مؤشّر دالّ على الاهتمام الرّسمي الذي حظي به هذا النشاط الاجتماعي.

وتشتمل ألعاب الفروسية على: سباق الخيل، والرّماية، والمبارزة بالسيف، والمطاعنة بالرّمح، وهي رياضات معروفة ومشهورة عند العرب منذ العصر الجاهلي، ولم تشر المصادر التي أطلعت عليها إلى اختلاف طريقة ممارسة الأندلسيين لتلك الرّياضة عن المشاركة، مما يرجّح أن أسلوب ممارستها وقوانينها وأنظمتها كان واحداً في الأندلس والمشرق، إلّا أن الأندلسيين - بما طبعوا عليه من رقة وتهذيب في مشاعرهم - كانوا ينفرون من إلحاق الأذى باللّاعبين، وكان الأمراء والخلفاء يُنفذون الأوامر التي تكفل حماية اللّاعب من الأذى، ويعاقب المخالف لها عقوبة شديدة، وتعوّض الدولة من يلحقه أذى جسديّ تعويضاً مادّيّاً، ويروي ابن حيّان في "المقتبس" أن الخليفة الحكم المستنصر وولده هشاماً كانا يراقبان يوماً لعبة المطاعنة بالرّمح بين بعض اللّاعبين، فأنفذ الخليفة أمره إلى اللّاعبين أن يتحفّظوا من الأذى، "وأن يصيروا محاولاتهم بالرّمح إشارات لا تقول إلى جراحات، وحفظوا من مخالفة ذلك وأوعدوا على تنكّبه، فأخذوا في شأنهم شتّهاتين، ودارت بينهم محاولات سالمة بطرد منها بعضهم لبعض ويحترس من الخطأ، إلّا ما كان من افتراس وليد بن عبد الملك بن موسى بن الطّويل الثّعريّ لقرنه مدين ابن الخير بن خزّز البربريّ بمركز رمح أصاب ما بين كتفيه فسقط جريحاً، واحتمل إلى داره وقيداً، واعتداء منذر بن عبد الله بن هابل على قرّنه من الجند بمنزلها، فأنكر الخليفة ذلك، فأمر بسجن الوليد ومنذر أدباً لهما، وأمر للحريجين بصلتين"^(٢).

وقد وردت إشارات شعرية نادرة عن ألعاب الفروسية في العصر الأمويّ بالأندلس، على الرّغم من شدّة اهتمامهم بتلك الرّياضات، ولاسيّما أنّها رياضات ملوكيّة، ولعلّ أكثر الشعر المنظوم في هذا الباب قد ضاع في جملة ما ضاع من شعر ذلك العصر، ولا يعقل أن الشّاعر الأندلسيّ المفطور على حبّ حياة اللّهو والمتعة يفقد اهتمامه بهذا النشاط الاجتماعيّ المسلّي.

(١) ابن حيّان، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص ١٥٦، تحقيق: عبد الرحمن الحفّيّ، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣.

(٢) للصدر السّابق.

ويعدّ سباق الخيل من أشهر ألعاب الفروسية وأهمّها، وقد أكثر الشعراء الأندلسيون - في ذلك العصر - من وصف الخيل في قصائدهم، إلا أن انقطاع النصوص عن سياقها الذي قيلت فيه لا يمكن من الجزم بأن تلك المقطوعات الشعرية في وصف خيل السباق خاصة، مع أن الرمادي أشار في بعض شعره إلى تعدّد استعمال الحصان الواحد لأكثر من غرض، وذلك في قوله^(١):

وَأَبْلَقَ مِنْ شَرْطِ الْكَمِيِّ لِيَزِينَهُ وَأَحْرَارَ مَيْدَانٍ وَيَوْمٍ قَتَالَ

ولخيل السباق علامات، منها " أن تكون رقيقة البوز بحيث تشرب من الكوز، طويلة الأذنين، بارزة العينين، قليلة لحم الخدين، وبارزة اللوزتين، وقصيرة المرفقين، واسعة الجنب، طويلة الذيل والرقبة، قصيرة الظهر "^(٢)، وفي ذكر بعض هذه الصفات يقول ابن هذيل^(٣):

وقصير الظهر مرفوع الخطي تامك^(٤) الحارك^(٥) نهدي^(٦) معتدل
وهو مخروم على حيزومه^(٧) بياض في أديم قد صقل
فقرى الليل على مقدمه^(٨) الرشايف^(٩) الجامعة^(١٠) في الكفل
فكان الصبح فاجاه^(١١) فلم يستطع من كده أن يتصل

وفي وصف جري الخيل في حلبة السباق يقول القيرري^(١٢):

- (١) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ١٨٦، جرار، ماهر، شعر الرمادي، ص ١٠٥.
(٢) سالم، الرياضة هو العصور، ص ٩٣، نقل عن: ابن البدر، أبو بكر بن البدر، كامل الصناعتين، ألفه لخزانة السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون، محفوظ بدار الكتب المصرية، رقم (٤) فروسية.
(٣) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ١٨٥، شوابكة، شعر يحيى، ص ١١١-١١٢.
(٤) تامك: السنام ما كان، وقيل: هو السنام المرتفع. [ابن منظور، اللسان، تمك].
(٥) الحارك: أعلى الكاهل، وقيل: منبت آدن العرف إلى الظهر الذي يأخذ به الفارس إذا ركب. [المصدر السابق، حرك].
(٦) لهد: جسيم مشرف، وقيل: كثير اللحم حسن الجسم. [المصدر السابق، لهد].
(٧) الحيزوم: الصدر، وقيل: الوسط. [المصدر السابق، حزم].
(٨) في الأصل: شطراً، والصواب ما أثبت.
(٩) قاجاه: قاجاه.
(١٠) الحميدي، الجملوة، ص ٩٣، والشاعر هو محمد بن محمود للكثوف القيرري، وقال عنه الحميدي: إنه أديب شاعر.

تَرى مَنْ يرى المِيدَانَ يَجْهَلُ أَنَّهُ لأهلِ الثُّبَارِ في الشَّطَارَةِ مِيدَانُ
كَأَنَّ الحِيَادَ الصَّافِنَاتِ وَقَدْ عَدَّتْ سَطُورُ كِتَابٍ وَالْمَقَدَّمُ عَنَوَانُ

ويبدو من النص السابق أن عدد الخيول التي كانت تشارك في تلك السباقات كان كبيراً، وإلا لما شبهها الشاعر بسطور الكتاب.

وكان الأندلسيون يقصدون من خلال إقامة سباق الخيل والاستمتاع به إلى تدريب الخيول على الجري، وإعدادها للطلب والكرّ والفرّ، ولم تكن تلك المسابقات من باب تعذيب البهائم.^(١)

جميع الحقوق محفوظة

كما كانوا يقيمون سباق الخيل وفق أسلوب الرّهان المتبع في هذه اللون من الرياضات في الجاهلية والإسلام^(٢)، وفي الإشارة إلى ذلك يقول ابن عسكركرمائل الجامعية

وإذا جِئَا الخيلِ ما طَلَّها المَدَى وَتَقَطَّعتْ في شَأوِها السُّبُهورِ
خَلَّوْا عَنَانِي فِي الرُّهَانِ وَمَسَّحُوا مِنِّي بَغْرَةَ أَبْلَقٍ مَشْهُورِ

ويشير ابن عبد ربّه في المقطوعة السابقة إلى سنّة متبعة في هذا السباق وهي مسح وجه الفرس السابق^(٣)؛ مما يدلّ على شدّة تعلقهم بالخيل واعتنائهم بها خاصة، ورفقهم بالحيوان عامّة.

(١) انظر: ابن جُزَي الكلبي، عبد الله بن محمد بن جُزَي الكلبي الغرناطي (ق ٨هـ)، كتاب الخيل (مطلع اليمن والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال)، ص ١٤٥، تحقيق وتقديم: محمد العربي الخطّاطي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

(٢) انظر: المصدر السابق، باب المسابقة والرّهان، ص ١٤٥ - ١٤٩.

(٣) ابن عبد ربّه، العقد، ج ١، ص ١٥١، القافية، ديوان ابن عبد ربّه، ص ٨٢.

(٤) انظر: ابن عبد ربّه، العقد، ج ١، ص ١٥١.

ومن ألعاب الفروسية الأخرى - التي وردت عنها إشارات شعرية فيما أطلعت عليه من مصادر - رياضة الرماية، وفي وصف غلمان يرمون على المنارة يقول عبادة^(١):

وما راعني إلا سهامٌ رواشقٌ إلى هدفٍ يتحوه كلُّ يَدَيَّ ظبي
أقاموه كي يرمؤا إليه فلم يكن لهم غرضٌ حاشا فوادي في الرمي

كما مارس الأندلسيون رياضة الرمي بالنشاب والتبال وغيرها ، وفي ذلك يقول عبادة^(٢):

بَكْفِه نَشَابَةٌ أَذْكَرَتْ في قبضِها من قلبي النَّشَابِ
كَأَنَّ يُمْنَاهُ عَلَى نَاطِرٍ منه وَيُسْرَاهُ عَلَى حَاجِبِ

جميع الحقوق محفوظة

ومن ألعاب الفروسية أيضاً المصارعة بالسيف والمطاعنة بالرمح، ولكن لم ترد إشارات شعرية صريحة عنها في المصادر التي أطلعت عليها، مع أن الشعراء الأندلسيين في العصر الأموي - أكثروا من ذكر الأسلحة في شعرهم، مثل: الأقواس، والسهام، والتبال، والرمح، والسيوف وغيرها، وقد ذكر بعض الشعراء شيئاً عن المطاعنة بالرمح وزيّ الرامح في معرض وصفهم للتحوم والليل، ومن ذلك قول محمد بن إبراهيم بن الحسين في وصف المشتري والمريخ^(٣):

قَالَ النَّدِيمُ: فَصِفْهُمَا، قُلْتُ: اسْتَمِعْ رُمُحَانِ فِي كَفِّي كَيْمِي مُعَلِّمِ
تَبِعَ الْكَيْمِي بِذَا فَأَخْطَأَ طَعْنَهُ وَأَصَابَهُ هَذَا فَفِيهِ دُمُ الْكَيْمِي

(١) ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ٢٩٦، ابن حميس، أدباء مالقة، ص ٢٨٧.

(٢) ابن الكثير، التشبيهات، ص ٣١.

(٣) المصدر السابق، ص ٣١.

وقد حرص الأندلسيون على إتقان ألعاب الفروسية، وكان البربر أكثر الفرسان إتقاناً لها، ويروي ابن حيان في "المقتبس" أن الخليفة الحكم المستنصر كان "يتطلع على فرسان البرابر إذا تحركوا للعب، شاخصاً إليهم معجباً بهم، يقول لمن حوله: انظروا إلى انطباع هؤلاء القوم على خيولهم، فكأنهم الذين عناهم الشاعر بقوله^(١):

فكأنما وُلدت^(٢) قياماً تحثهم وكأنهم وُلدوا على صهواتها

ما أعجب انقيادها لهم، كأنها تفهم كلامهم".^(٣)

ولم يكتف الفرسان بتدريب أجسادهم وخيولهم، إنما بذلوا غاية جهدهم في تدريب نفوسهم وتهذيب أخلاقهم وتشذيب طباعهم، فتحلوا بخصال الفروسية الحميدة، مثل: الشجاعة، والكرم، وإغاثة الملهوف، ونصرة الضعيف، ورقة المشاعر، وفصاحة اللسان، وقد طرأت أكثر هذه المعاني على لسان الأمراء والخلفاء الذين عرفوا بشدة البأس والقوة في الحرب، والتفوق في ألعاب الفروسية في السلم، ولكنهم مع ذلك كانوا من أكثر الناس تمثلاً لأخلاق الفروسية من رقة ودمامة، ولا سيما في معاملة النساء، ومنهم الخليفة المستظهر بالله الذي يقول مخاطباً ابنة عمه^(٤):

وإني لطعان إذا الخيل أقبلت حرائدها^(٥)، حتى ترى جوئها شقرا
ومكرم ضيفي حين ينزل ساحتي وجاعل وفري عند سائله وقرا
وإني لأزلي الناس من قومها بها وأنبههم ذكرا، وأرفعهم قنذرا
وعندي ما يصني الحليمة ثيباً وينسي الفتاة الخود عذرتها البكرا

(١) البيت للمعتلي، الرقوقي، عبد الرحمن، شرح ديوان المتنبي، مج ١، ص ٣٥١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د. ت.

(٢) في الديوان: كُنحت.

(٣) ابن حيان، المقتبس (الختي)، ص ١٩٣.

(٤) ابن الأثير، الحلة، ج ٢، ص ١٤، وورد البيت الأول والثاني في: الحميدي، الخفوة، ٢٦.

(٥) الجرائد: الخيل السريعة. [ابن منظور، اللسان، جرد].

جمالٌ وآدابٌ وخُلُقٌ مُوطأٌ ولفظٌ إذا ما شئتَ أسمعَكَ السُّحرا

ومن الرياضات الأخرى المحببة عند الأندلسيين رياضة " الكرة والصولجان"، وهي من أقدم الألعاب الرياضية التي عرفتها الحضارات القديمة مثل الحضارتين الفرعونية والفارسية^(١)، وهذه اللعبة تعتمد على وجود كرة وعصا معكوفة تضرب بها، وأصبحت في العصر الإسلامي تمارس على ظهور الخيل^(٢).

ولم يصل إلينا سوى القليل عن هذه اللعبة وقوانينها، ويبدو أنها كانت تمارس في الأندلس على طريقة المشاركة، وكان يتوخى عند اللعب عدم إيذاء اللاعبين أو التظارة أو التواب، وعلى اللاعب أن يتجنب الغضب والسب، وأن يحترس من إلقاء الكرة على البيوت المجاورة للميدان^(٣). ومن الإشارات الشعرية النادرة إلى هذه الرياضة مقطوعة شعرية يصف فيها الرمادي غلاماً يلعب بالصولجان، وفيها يقول^(٤):

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الجامعة الأردنية

مرُّ بنا مُتَفِتاً مُرَكِّزاً أَيْعَالُ الرِّسَالِ كَالرُّنْدِ أَيْعَالُ خَيْفَةِ رَوَاغِهِ
ذا صَوْلْجَانٍ أَبَدٍ وَفِيهِ تَفَاحُ لُحَايَيْنِ صَوَاغِهِ
أَفْرَعَهَا صَانِعُهُ مُتَقِناً فِي قَالِبِ الْجَبَسِ كَأَفْرَاغِهِ^(٥)
كَأَنَّهُ فِي ضَرْبِهَا لَاطِمٌ تَفَاحُ حُدَيْهِ بِأَصْدَاغِهِ

(١) سالم، الرياضة وتاريخها، ص ٧٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر: ابن قتيبة، أبو عماد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الذهري (ت ٢٧٦هـ)، عيون الأخبار، مج ١، ج ١، ص ٢١٧-٢١٨.

تحقيق: يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

(٤) ابن الكفائي، التشبيهات، ص ٢٧٦، جرار، ماهر، شعر الرمادي، ص ٨٧.

(٥) الرَّم: التآقة العاطفة على ولدها. [ابن منظور، اللسان، رأم].

(٦) الأفرغ: لعله يقصد بها الحدود.

ويظهر من النص السابق أَنَّ الصَّوْلَجَانَ كَانَ يَتَّخِذُ مِنَ الْأَبْنُسِ ، وَأَنَّ الْكَرَةَ كَانَتْ شَدِيدَةً
الاستدارة متقنة الصَّنْعِ، وَأَنَّ هَذِهِ اللَّعْبَةُ مِنَ الْأَلْعَابِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ لِيَاقَةِ بَدَنِيَّةٍ عَالِيَةٍ وَسُرْعَةٍ فِي الرِّكَضِ
وَالضَّرْبِ .

وقد استحضر أبو المغيرة بن حزم صورة الكرة والصَّوْلَجَانَ في وصفه للهِلال، وذلك في قوله^(١):

لَمَّا رَأَيْتُ الْهَلَالَ مَنْطُوبِيًّا فِي غَرَّةِ الْفَجْرِ قَارَنَ الزُّهْرَةَ
شَبَّهْتُهُ وَالْعِيَانُ يَشْهَدُ لِي بِصَوْلَجَانٍ أَوْفَى لَضَرْبِ كُرَّةٍ

ومن الرياضات الجسدية الَّتِي مارَسَهَا الْأَنْدَلُسِيُّونَ - ولم ترد عنها إشارات شعرية في المصادر الَّتِي
أُطْلِعْتُ عَلَيْهَا - رياضة السِّبَاحَةِ وَالْمِصَارَعَةِ، إِلَّا أَنَّهُ وَصَلَ إِلَيْنَا عِلْبَةً عَاجِيَةً أَنْدَلُسِيَّةً بِاسْمِ الْمَغِيرَةِ بْنِ
الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ، وَمُؤَرَّخَةً فِي سِنَةِ (٣٥٧هـ)، وَيُظْهِرُ عَلَيَّ هَذِهِ الْعِلْبَةُ مَنْظَرَ لِلْمِصَارَعَةِ بَيْنَ
شَاتَيْنِ؛ حَيْثُ يُمْسِكُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، وَيَحَاوِلُ طَرْجَهُ أَرْضًا وَالْفُوزَ عَلَيْهِ^(٢)، وَيَلِدُو مِنْ هَذِهِ الصُّورَةِ أَنَّ
رياضة المصارعة كانت بعيدة عن العنف الَّذِي اتَّسَمَتْ بِهِ الْمِصَارَعَةُ الرَّومَانِيَّةُ مَقْلًا.

ولاقَتِ رياضة الصَّيْدِ عناية الْأَنْدَلُسِيِّينَ واهتمامهم، وَلَا سِيَّمَا الْأُمَرَاءَ وَالْخُلَفَاءَ الَّذِينَ أَوْلَعُوا بِهَا وَلَعًا
شَدِيدًا، وَكَانَ يُخْرَجُ مَعَهُمْ إِلَى الصَّيْدِ أَبْنَاؤُهُمْ وَوُزَرَؤُهُمْ وَغُلَمَائُهُمْ، وَكَانُوا يُخْرَجُونَ فِي مَوَاقِبِ
فَخْمَةٍ، وَفِي وَصْفِ مَوْكَبٍ لِلنَّاصِرِ لَمَّا خَرَجَ فِي نَزْهَةِ صَيْدٍ، وَقَدْ كَانَ مَوْكِبًا " فَخْمًا نَبِيلًا مَلَأَ قُلُوبَ
رَعِيَّتِهِ مَسْرَةً"^(٣)، يَقُولُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ^(٤):

(١) الحميدي، الجذوة، ص ٢٩١-٢٩٢، ابن بشكوال، العلة، ج ٢، ص ٥٥٥، المقرئ، التفتح، ج ١، ص ٦٢١. وأبو المغيرة هذا هو عبد
الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم، من بيت أدب ورياسة، عالي الطبقة في النظم والنثر، ت (٤٣٨هـ). ترجمته في: الحميدي،
الجزء، ص ٢٩١، ابن بسام، الذخيرة، ج ١، ص ٨١، المقرئ، التفتح، ج ٢، ص ١٥٣، وغيرها.
(٢) انظر: سالم، السيد عبد العزيز، صور من المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف، من خلال النقوش
المخفورة في علب العاج، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، ص ١٣٢، عدد خاص، ١٩٧٨م.
(٣) ابن حبان، للقبس، ج ٥، ص ٥٧، اعتنى بنشره: ب. شاليتا، بالتعاون لضيطة وتحقيقه مع: ف. كوريتي وعمود صبح وغيرها،
للمعهد العربي للثقافة، مدريد، كلية الآداب، الرباط، ١٩٧٩م.
(٤) المصدر السابق، ابن عفار، البيان للمغرب، ج ٢، ص ٢٢٧، الناية، ديوان ابن عبد ربّه، ص ١٣٢.

بَدْرُ بَدَا مِنْ تَحْتِهِ أَبْلَقُ يَحْسُدُ فِيهِ الْمَغْرِبُ الْمَشْرِقُ
لَمَّا بَدَا لِلْأَرْضِ مُسْتَبْهَجاً كَادَتْ لَهُ عِيدَانُهَا تُورِقُ^(١)

وكانت مواكب الصيد تهاجس في نواحي الفرح في نفوس الناس التواقين إلى المتعة والسرور، ومما قاله محمد بن إسماعيل النحوي في ركوب الناصر للصيد^(٢):

تَهَلَّلَتِ الدُّنْيَا وَبُهِرَ أَنْامُهَا وَعَاوَدَهَا بَعْدَ الْعَبُوسِ ابْتِسَامُهَا
فَلَمْ أَرْ يَوْمَئِذٍ كَانَ الْخَسَنَ مَنْظُوراً كَيَوْمِ بَدَا مِنْ عَيْدِ شَمْسٍ هَامُهَا
أُطْلِعَ عَلَى الدُّنْيَا بِخَيْلِ أَنْهْ قَرِينٌ لَشَمْسٍ زَالٍ عَنْهَا غَمَامُهَا

وكانوا يخرجون للصيد في أوقات مختلفة من السنة، ويتفادون مواسم تكاثر الحيوانات والطيور حفاظاً على نوعها وحماية لها من الصيد الجائر، فقد كان صيد الغرائيق^(٣) - على سبيل المثال - مفضلاً عندهم في الشتاء، وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط من أكثر الناس ولعاً بصيدها، ولكن بعض مرافقيه لم يستطيعوا بمهاراته في ولعه هذا، ومنهم عبد الله بن الشَّمر، ومن قوله في ذلك^(٤):

لَيْتَ شِعْرِي أَمِنْ حَدِيدِ خُلُقْنَا أَمْ خُلِقْنَا^(٥) مِنْ صَخْرَةٍ صَمَاءِ
كُلِّ عَامٍ فِي الصَّيْفِ نَحْنُ غُرَاةٌ وَالْغَرَانِيقُ غَزُونَا فِي الشِّتَاءِ

(١) لم يرد هذا البيت في البيان للغرب.

(٢) ابن حيان، للقتبس (شاليتا)، ص ٥٨. والنحوي هذا كان عالماً بالتحو والحساب، دقيق النظر، مثيراً للتعاني موقداً لها، وكان مؤدباً للحليفة الحكم المستنصر، ت (٣٣٠هـ). ترجمته في: ابن الغرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي (ت ٤٠٣هـ)، تاريخ العلماء والزواة للعلم بالأندلس، ج ٢، ص ٥٤، مكتبة الخالجي، القاهرة، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م.

(٣) الغرنوق: طائر مائي أسود اللون، وقيل: أبيض، وقيل: هو الكركي، وقيل يشبهه. [ابن منظور، اللسان، غرق].

(٤) ابن الكتاني، التشبيهات، ص ١٦٥، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٢٥ - ١٢٦.

(٥) في المغرب: نُحْتَنَّا.

وكان الأندلسيون يتخيرون للصيّد الخيول السريعة الخفيفة الرشيقة، وفي صفة خيول الصيّد يقول ابن الخطيب^(١):

فَرُخْتُ لِلصَّيْدِ بِرَحْبٍ هَيْكَلٍ عَالِي الشَّوَى^(٢) لَاحِقٍ خَلْقِ الْأَيْطَلِ^(٣)
مُتَّقِدٍ حَمِيَّةً كَالْمَرْجَلِ يَخْتَالُ كَالْتَّشْوَانِ فِي التَّفْئُلِ^(٤)

وكان أسلوب القنص بالحلقة أو بجوارح الطير من أشهر الأساليب التي يستخدمونها، وكان البازي من أحبّ طيور الصيّد لديهم، وقد اعتنى الشعراء بوصفه في حال تأهبه لقنص فريسته وصفاً دقيقاً مفصلاً يدلّ على فراغ واتساع خلق، ومنهم الرّماديّ في قوله^(٥):

تُبَدَّتْ عَلَى الْبَازِي مِنَ الرَّيشِ لَأَمَةٌ^(٦) فَتَحَسَّبُهُ مِنْ سَائِرِ الطَّيْرِ بِتَقْيِ
وَتَذْرِيقَةٍ^(٧) فَوْقَ الْبِضَاضِ كَأَمَّا تُصَلِّبُ عَلَيْهِ دِرْعُهُ فَوْقَ يَلْمَنِ
غَدَا أَحْمَرَ الْعَيْنَيْنِ مَخْشَبُ الْإِيحَاءِ الرَّسُولِ^(٨) عَلَى الطَّيْرِ مُخْنِقِ
وَقَدْ وَرَسَتْ سَاقَاهُ حَتَّى كَأَمَّا لَهُ بِالنُّرْيَا حَاضِبٌ لَمْ يُحَقِّقْ^(٩)
كَأَنَّ بَنَانَ الْكَفِّ : كُلُّ بَنَائَةٍ بِهَا طُرِفَتْ مِنْهَا بَنُونَ مُعَرِّقِ
وَقَدْ أُلْبَسَتْ لَوْنَ الْمِدَادِ كَأَنَّمَا أَنَامِلُ كِتَابٍ تُخَطُّ بِمِهْرَقِ

(١) ابن الكتّاني، التشبيهات، ص ١٨٧. والشاعر هو عبد العزيز بن الخطيب أبو الأصبغ، أديب شاعر. ترجمته في: الحميدي، الجلوقة، ص ٢٨٨، العتي، البغية، ج ٢، ص ٥٠٠.

(٢) الشوى: القوائم. [ابن منظور، اللسان، شوي].

(٣) الأيطل: الخاصرة. [المصدر السابق، أطل].

(٤) التفتل: شدّة اللي. [المصدر السابق، فتل].

(٥) ابن الكتّاني، التشبيهات، ص ١٧٨، حرّار، ماهر، شعر الرّماديّ، ص ٩٤.

(٦) الأمانة: الذّرع. [ابن منظور، اللسان، لأم].

(٧) الذريقة: لبس الذّريقة، وهي القرس. [المصدر السابق، درق].

(٨) لم يخفق: أي خفي ولم يصره أحد.

أما النوع الثاني من طيور الصيد فهو الشاهين ، وفي وصف تحليقه استعداداً لاقتناص فريسته يقول الوزير عبد الله بن إدريس^(١):

تُدِيرُ عَلَى الصَّيْدِ الشَّوَاهِينَ فِي مَدَى مِنْ الْجَوِّ عَالٍ عَنْ رُؤُوسِ الْقَرَادِدِ^(٢)
إِذَا حَلَقَتْ فِي الْجَوِّ قُلْنَا فَرَاقِدُ وَإِنَّمَا هَوَتْ قُلْنَا : هَوِيَ الْفَرَاقِدِ^(٣)
تَطِيرُ قُلُوبُ الصَّيْدِ عِنْدَ انْقِضَائِهَا كَشَوَيْبٍ مُزَنٍ فِي دَوَى الرِّوَاعِدِ

وأما النوع الثالث منها فهو الصقر، وفي وصف غلام يصيد به يقول ابن عبد ربه^(٤):

صَقْرٌ عَلَى كَفِّهِ صَقْرٌ يُؤَلِّفُهُ ذَا فَوْقَ بَعْلِ وَهَذَا فَوْقَ قُفَاظٍ

وفي البيت السابق إشارة إلى تدريب الغلمان في سن صغيرة على الصيد، مما يؤكد شدة اهتمام الأندلسيين بهذه الرياضة، كما يبدو أنهم كانوا يخرجون الأعلی ظهور البغال كذلك، ولعلّ الأمراء والخلفاء كانوا يختصون غلمانهم بكبرى أيداع الرسائل الجامعية

ولم يقتصر استخدامهم على هذه الجوارح المعروفة^(٥)، إنما كانوا يستخدمون نوعاً صغيراً من الجوارح يعرف بالسائي، وفي وصف شدة دهائه في الصيد يقول ابن هذيل^(٦):

(١) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ١٨٠.

(٢) القرادد : ما ارتفع من الأرض، وقيل : وغلفظ. [ابن منظور، اللسان، قردد].

(٣) الفراقد الأول: التحوم، والفراقد الثانية: القلوب.

(٤) ابن عبد ربه، العقد، ج ٥، ص ٤٨٨، الديانة، ديوان ابن عبد ربه، ص ٩٠.

(٥) للمزيد عن طيور الصيد، انظر: عبد العزيز، نبيل محمد، رياضة الصيد في عصر سلاطين المماليك، ص ٧٩-١٠٣، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٩م.

(٦) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ١٨٥، شوابكة، شعر يحيى، ص ٧١.

رُبُّ صَغِيرِ الْخَلْقِ ذِي دَهَاءٍ يَسْتَنْزِلُ الطَّيْرَ مِنَ السَّمَاءِ
دَائِي الْمَدَى لَغَايَةِ التَّنَائِي كَأَنَّهُ ضَرْبُ مَنْ الْقَضَاءِ
إِذَا هَوَى مِنْ عَافَقِ الْهَوَاءِ سَافَ كَمَثَلِ السَّيْفِ فِي الْمَضَاءِ

وكان الصائد يحمل الطير على يسراه، ويجعل بينه وبين يده دُستباناً^(١) يحميه من مخالبتها، وفي
صفة الدُستبان يقول الرمادي^(٢):

فَإِنْ كَانَ لِلْبَازِي مِنَ الرَّيْشِ لَأَمَّةٌ فَلِلدُّسْتَبَانِ دِرْعٌ وَشَيْ مُنَمَّى
عَلَيْهِ مِنَ الْعَقِيَانِ سَاقٌ وَمُقَلَّةٌ فَصَارَ كَمَكْحُولٍ بِهِ وَمُسَوَّى
جُعِلَتْ لِسَاقِيهِ فَخْرٌ صُلَّةٌ كَفَّهُ حُلِيُّ الْعَذَارَى فِي نَوَاصِي وَأَسْوَى

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الجامعة الأردنية

مركز أيداع الرسائل الجامعية

ومن أشهر الحيوانات المستخدمة في الصيد الكلاب، وكانت تمتاز بالخفة والسّعة في الجري، وفي
وصفها يقول ابن هذيل^(٣):

وَأَغْضَفَ^(٤) يُلْغِي أَنْفَهُ فَكَأْتُمَا يَقْوُدُ بِهِ نَوْرٌ مِنَ الْوَحْيِ نَيْرُ
إِذَا أَهْبَتْهُ شَهْوَةُ الصَّيْدِ طَامِعَا رَأَيْتَ عَقِيمَ الرِّيحِ عَنْهُ تُقْصَرُ

واعتنى الشعراء بذكر مشاهد الصيد، وعبروا عن استمتاعهم بها من خلال دقة الوصف والاعتناء
بالتفاصيل الصغيرة حتى ليكاد المشهد يكون مجسّداً عند قراءته، ومن برعوا في وصف تلك المشاهد ابن
الخطيب، ومن ذلك قوله في وصف صيد سرب من القطا^(٥):

(١) الدُستبان : آلة من خشب وحلده يربط بها الصقر على اليد. [عبّاس، التشبيهات، الحاشية، ١٧٧].

(٢) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ١٧٨، جرّار، ماهر، ص ٩٥.

(٣) المصدر السابق، ص ١٨٠، شوابكة، شعريجي، ص ٨٧.

(٤) أغضف : مسترخي الأذن، وهي صفة غالبية في كلاب الصيد. [ابن منظور، اللسان، غضف].

(٥) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ١٧٧.

على الوظيف^(١) شِمْرَة^(٢) المَهْوَل^(٣)
 بمحلب كالخنجر المَحْوَل
 موصولة بمثل أنف المِنْجَل
 مِنْ تَحْتِ بَطْنِ الحوتِ حَبَّ الخَزْدَلِ
 يسعى لِرُغَبٍ فِي الفَلَاةِ عَظَل^(٤)
 مُسَوِّياً آخِرَهَا بِالْأَوَّلِ
 أَوْ كَانِ خَطَافِ الأَجَلِ المُوَجَّلِ
 فَقَدْ عَنَاهَا دِرْعَ رِيَشِ مُخْمَلِ
 وَأَسْلَمَتْهَا النَّفْسُ لِلتَّجَدُّلِ^(٥)
 بِمِثْلِهِ بِالشَّدِّ والتَّوَعُّلِ
 وَهِيَ تَكَادُ لِلْعَذَابِ المُنْزَلِ

يَقْبِضُ كَفَّهِ عَلَى مَا يَبْتَغِي
 كَأَنَّمَا قَامَتْهُ مِنْ صَنْدَلِ
 يُبْصِرُ مِنْ فَرْطِ ذِكَا التَّأْمَلِ
 حَتَّى بَدَأَ سِرْبُ قَطَالِمِ يَنْهَلِ
 فَقَامَ كَالسَّهْمِ بِكَفِّ المُرْسِلِ
 فَأَبْتَرَّ مِنْهُنَّ كُلَّ حِظِّ المَعْجَلِ
 كَذَرِيَّةِ^(٦) ذَاتِ شِفَاهِ أُنْجَلِ^(٧)
 وَخَلَّ بِالتَّفْصِيلِ كُلِّ مِفْصَلِ
 فَجِئَتْهُ وَهُوَ بِهَا لَمْ يَنْزِلِ
 فَصَادَهُ وَصَيْدُهُ "...." يَحْتَلِي
 تُؤَكِّلُ دُونَ الشَّيْءِ لِلتَّرَهُّلِ

جميع الحقوق محفوظة

كما عرف الأندلسيون رياضات جسدية أخرى مثل رياضة الطيلة^(٨) ومصارعة الثيران ومناقرة الديوك، إلا أنه لم ترد عنها إشارات شعرية في ذلك العصر. ومع اهتمام المصادر بذكر بعض ما يتعلق بالرياضات الجسدية من أحداث وأسماء في الكثير من الأحيان، إلا أنه لم ترد إشارة واضحة وصریحة - في المصادر التي اطلعت عليها - إلى مشاركة النساء في أي من تلك الرياضات، ونظراً لما تمتعت به المرأة الأندلسية - في العصر الأموي - من حرية اجتماعية، فلا تستبعد مشاركتها في بعض ألوان هذا النشاط الاجتماعي.

(١) الوظيف : لكل ذي أربع: ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق، وقيل: الوظيف مستدق الذراع والساق من الخيل والإبل ونحوهما. [ابن منظور، اللسان، وظف].

(٢) شمرة : التشمر تقليص الذيل، وقيل: الإرسال. [ابن منظور، اللسان، شمر].

(٣) للمهول : المخيف. [المصدر السابق، هول].

(٤) عطل : لا راعي لها، أو لا قلائد عليها ولا أرسان لها، أو بلا سم. [ابن منظور، اللسان، عطل].

(٥) كدرية : ضرب من القطا قصار الأذنان. [المصدر السابق، كدر].

(٦) أنجل : واسعة عريضة. [المصدر السابق، أنجل].

(٧) التجدل : الإلقاء والرمي، أو الصرع. [المصدر السابق، جدل].

(٨) عن هذه الرياضة في الأندلس، انظر، جرار، صلاح، رياضة الطيلة في الشعر الأندلسي في عصر بني الأحمر، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد ٥٠، السنة العشرون، جمادى الأولى - شوال ١٤١٦ هـ - كانون الثاني - حزيران ١٩٩٦ م، ص ٢٩ - ٦٢.

أَوْ رَجَاءً وَرِثَاءً لِلدَّهْرِ سُلُومٌ

ومن الرياضات الذهنية الأخرى التي كان الأندلسيون يشغلون بها أوقات فراغهم ويطرّزون بها مجالسهم الألباز الشعرية، وقد كانوا يلغزون بما يستخدمونه من أدوات في حياتهم اليومية، ويتحدّون به ذكاء جلسائهم، ومن ذلك قول ابن هُذَيْل في الإلغاز في مروحة^(١):

ومصروفة عن خَلْقِهَا إِنْ صَرَفْتَهَا إِلَى طَيِّ بُرْدٍ أَوْ إِلَى طَيِّ مُهْرِقٍ
عَلَى أَنَّهَا شِبْهُ الْمِجَنِّ وَدَوْنَهُ فَإِنْ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ أَبْنُ لِي وَاصْدُقِ
لَهَا لَطْفُ أَنْفَاسِ الصَّبَاحِ وَرَقَّةٌ تَلْدُ بِهَا نَفْسُ الْفَتَى الْمُتَشَوِّقِ

وفي الإلغاز في سكين يقول ابن بَطَّال^(٢) مبيح الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

أُشْبِهُ الْمَاءَ فِي مِيزِ النَّعَاجِ الرَّسَائِلُ وَأَقْدُ الْحَامِيعَةِ عِنْدَ الْمَصَاعِ
أَنَا دُونَ الْقَلْدِ إِذَا أَغْضِي الْجَفْنُ عَلَيْهِ وَفَوْقَ سَمِّ الْأَفَاعِي
وَأَنَا ابْنُ الْحَدِيدِ لَكِنْ أُمِّي فَطَمَسْتَنِي لِشِرَّتِي عَنْ رِضَاعِ
مُصْلِحُ شَأْنٍ إِخْوَتِي حِينَ كَانَتْ أَمْنًا فِي الْإِصْلَاحِ غَيْرَ صِنَاعِ

(١) ابن الكفائي، التشبيهات، ص ٢٣٣، شواهد، شعر يحيى، ص ١٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣١. والشاعر هو سليمان بن محمد بن بَطَّال، فقيه مقدّم وشاعر محسن، كان قريباً من الأربعمئة. ترجمته في:

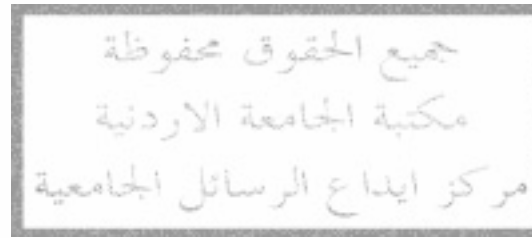
الحميدي، الجذوة، ص ٢٢، ابن بشكوال، الصلة، ج ١، ص ٣٠٣، الضبي، البغية، ج ٢، ص ٣٧٩.

(٣) في الأصل: ويض، والصواب ما أثبت.

وفي الإلغاز في مبخرة يقول ابن التّظّام^(١):

وجائمة لها ابنٌ مستطـارٌ	يفارقُ جسمَهُ عندَ احتراقِ
ولم أرَ قبلَهُ مِنّ ذي نعيمٍ	يُحرقُ جسمَهُ والروحُ باقِ
إذا صاحِبَتَهُ لم يبدُ شخصاً	ولا يخفى عليك لدى التّلاقي

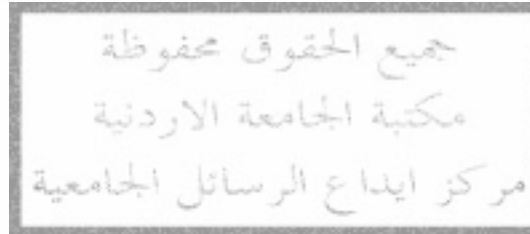
ويلاحظ من كلّ الأبيات السابقة في الألغاز أنّ الشعراء كانوا يكثرّون من الإلغاز بالأشياء المادّية المحسوسة ممّا هو مستخدم في بيئتهم، وكانت تلك الألغاز خفيفة محبّبة إلى النفوس، وهو أمر يتناسب مع التّكوين النفسي والاجتماعي للأندلسيّ في العصر الأمويّ.



^(١) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٢٠٦، والشاعر هو عبد الرحمن بن محمّد بن التّظّام من بيت أدب وشعر وجلالة ورياسة (ت ٣٩٤هـ)، ترجمته في: الحميديّ، الجذوة، ص ٢٧٠، الطيّب، البغية، ج ٢، ص ٤٦٤، ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٢٠٦، وغيرها.

المبحث الثاني العادات والتقاليد

حرص الأندلسيون في العصر الأمويّ على ممارسة عاداتهم وتقاليدهم بأسلوب متحضّر، وحرصوا على إبراز ذوقهم الرفيع في مآكلهم ومشربهم وملبسهم وزينتهم، وتفنّوا في إقامة أعيادهم الإسلامية ومشاركة جيرانهم النصرانيّ في أعيادهم، وبدا الإنسان الأندلسيّ في عاداته وتقاليده - كما تروي المصادر المختلفة - مقبلاً على الحياة شغوقاً بملذّاتها ومباهجها، وواكب الشّعور هذا الجانب من حضارة الأندلسيّين، ولاسيّما في الاحتفال بالأعياد والمناسبات المختلفة، واللباس والزينة، والطعام والشراب.



أولاً - الاحتفال بالأعياد والمناسبات:

احتفى الأندلسيون في العصر الأمويّ بالأعياد والمناسبات الدنيّة والاجتماعيّة والانتصارات الحربيّة بما يتناسب وميلهم للحياة والاستمتاع بمباهجها وزينتها، وكانوا يجدون فيها فرصة مناسبة للتحرّر من القيود ومشاكل الحياة، وتحديد التّواصل بين أفراد المجتمع على اختلاف مشاربهم ومنابتهم.

وكان الشعراء أوّل الحاضرين في تلك الاحتفالات، يرتجلون القصائد الحسان، ويساجل بعضهم بعضاً فيما يقولون، ويحرصون على نيل رضى الحكّام وعطاياهم السخية في مثل تلك المناسبات، فتجود قرائحهم بقصائد كثيرة سكت المؤرّخون عنها لطولها، أو سجلّوا مقتطفات من بعضها لأشهر الشعراء وأقربهم إلى الأمراء والخلفاء.

وكان الاحتفال بعيدي الفطر والأضحى من أهم الاحتفالات الدينية الإسلامية التي لاقت اهتمام الشعراء وعنايتهم، ووصل إلينا من خلال كتاب "المقتبس" لابن حيان العديد من المقطوعات والقصائد التي قيلت في الأعياد، ولاسيما في سنوات حكم الخليفة الحكم المستنصر، كما وصل إلينا بعض المقطوعات المتناثرة في المصادر المختلفة، وقد تشابهت مضامين تلك القصائد والمقطوعات ومعانيها، فمن تحديد البيعة للخليفة وولي العهد، إلى الإشادة بصفات الخليفة وأخلاقه، وتسجيل بطولاته وانتصاراته على أعدائه، ومدح قواده الأبطال، ومن مثل ذلك قول محمد بن شحيش في تهنة الخليفة المستنصر بعيد الأضحى^(١):

أَلَمْ يَبَا الْأَضْحَى قُفْلَتْ لَهُ: أَهْلًا	وإن كان مولانا بما قُفْلَتْهُ أُولَى
تَحَلَّى أَمِينَ اللَّهِ وَالْعِيدُ وَالضُّحَى	فكان أمينُ الله أفضلَها مَحَلَّى
وما مائلتُ منه الضُّحَى غَيْرَ وَجْهِهِ	فكانتُ له مثلاً وليستُ له مثلاً
لِيَهْنِ بَنِي الْإِسْلَامِ فَخَرُ اسْتِلامِهِمْ	بَنَانُ يَدِ الْعَلِيَّاءِ مِنَ الْمَلِكِ الْأَعْلَى
رعى الله مَنْ وَلَّى رعايةَ خَلْقِهِ	فكان لها أهلاً وكانتُ له أهلاً
وَمَنْ عَادَتِ الدُّنْيَا عُرُوساً بِمُلْكِهِ	فدامتُ له عُرُوساً ودامَ لها بَعْلًا

مركز أيداع الرسائل الجامعية
مكتبة الجامعة الأردنية
جميع الحقوق محفوظة

ومنها في تحديد البيعة لولده هشام:

تَهْنَأُ النَّهْيَ قَبْلَ الثَّمَانِي عَنِ الصَّبَا	فصار اسمُهُ مِنْ قَبْلِ مَنَشَأِهِ ^(٢) كَهَلَا
وَلَمْ لَا يَجُوزُ الْعَهْدُ طِفْلاً وَقَدْ حَوَى	رَضَى اللَّهُ مَنْ وَلَّاهُ وَالِدُهُ طِفْلاً

وفي العيد نفسه يقول محمد بن محامس الأستجعي^(٣) مشيداً بعدله وورعه وتقاه، ومجدداً البيعة لبني أمية^(٤):

(١) ابن حيان، للمقتبس (الحجتي)، ص ٦٠-٦١. والشاعر هو محمد بن مطرف بن شحيش، كان من أهل الأدب المشهورين ومن أعيان الشعر للقدمين، توفي قبل الأربعمئة. ترجمته في: الحميدي، الجلوقة، ص ٩٣، الضي، البيعة، ج ١، ص ١٦٨.

(٢) في الأصل: منشأ، والصواب ما أثبت.

(٣) ذكر ابن الفرضي في تاريخ العلماء أنه مدح الخلفاء، وحذث بشيء من الأدب، ت (٣٧٦هـ). انظر: ج ٢، ص ٨٩.

(٤) ابن حيان، للمقتبس (الحجتي)، ص ٦٢.

راقتَ بِهَـجَّةٍ مُلْكُهُ أَيْـامُنَا فكأنَّهِنَّ عرائِسٌ وصنائعُ
فالعدْلُ ميسُوطٌ ودينٌ محمَّدُ غَضٌّ وغصنُ المُلْكِ أخضرٌ يانعُ
يا صفوةَ اللّٰه، الرّضِي لعباده والمتّقِي لمعاده والخاشعُ
يَهْنِيكَ عَيْدُكَ بَلْ هُنْتُهْ إِمَامَةٌ أمويَّةٌ يَبْأَى^(١) بِهَا وَيَقَارِعُ

وكان من عادة الأمراء والخلفاء إغداق الأموال والهبات والصلوات على رعيّتهم في تلك الأعياد،
تقرباً إليهم وكسباً لمودّتهم، وفي الإشارة إلى سخاء الخليفة الحكم المستنصر مع رعيّته في الأعياد
- مثلاً - يقول المُهَنْد^(٢):

وأنفقَ أموالَه جاهداً عليها يثمرُ أموالُها
فأذهبَ إحسانه يؤسّها وأكثُرُ نعماءه إحلالها

جميع الحقوق محفوظة

وحرص الشعراء في ذلك العصر على الإشادة بطولات المملوك إن وافق الأعياد انتصار على
الأعداء، ومن ذلك قول ابن درّاج في تهنية المنصور بن أبي عامر بانتصاره على أعدائه ، وقد وافق عيد
الفطر^(٣):

ولِيَهْنِيكَ الفَوْزُ الَّذِي أَحْرَزْتَهُ تُسْكاً بأزكى قُربةٍ وصِيَامِ
ولِيَهْنِيكَ الفِطْرُ الَّذِي اسْتَقْبَلْتَهُ لِهَجْأٍ بخيرِ تحيّةٍ وسلامِ

(١) يَبْأَى : يفخر. [ابن منظور، اللسان، بآى].

(٢) ابن حبان، المقتبس (الحَقِي)، ص ١٥٧. والشاعر هو طاهر بن عمّاد بن عبد الله أبو العباس، من أهل بغداد، دخل الأندلس سنة ٣٤٠ هـ، كان شاعراً مقلّفاً، مدح الخلفاء وكسب المال بالأدب، ت (٣٩٠ هـ). ترجمته في : ابن القرضيّ، تاريخ العلماء، ج ١، ص

٢٤٥، الحميدي، الجذوة، ص ٢٤٦، الضيّ، البغية، ج ٢، ص ٤٢١.

(٣) ابن درّاج، الديوان، ص ٤٢٥.

ومع قلّة ما وصل إلينا من شعر في هذا الباب، إلّا أنّ الشّعر الَّذي يصف الاحتفال بالأعياد الإسلامية اقتصر على الجانب الرّسمي، وخلت التّصوص الشّعريّة - في المصادر الّتي اطلّعت عليها - من وصف طريقة الاحتفال الشّعبيّ بتلك الأعياد، وما يمارسونه من عادات وتقاليد، وما يقومون به من أنشطة اجتماعيّة وتبادل للزيارات والهدايا، ولاسيّما أنّ الكثير من التّصوص الشّعريّة الّتي تصف معالم الحياة الاجتماعيّة في الأندلس في العصر الأمويّ منقطعة عن سياقها، وكلّ ما يمكن العثور عليه - في هذا الباب - مقطوعة شعريّة لعبد التّصير بن أحمد كتبها لبعض رؤساء الكّتاب بديهة في عيد الأضحى، وكان عودّه أن ينفذ إليه كبشاً لأضحيتّه، فأبطأ عليه^(١):

يا سليل الأكرمين ومن	فضّلُهُ فرضُ فما منه بُدُ
أزف العيدُ وعودتمُ الـ	كبشَ داري والحبْلُ مُعدُ
ولقد أبرزتُ مديّتنا	فهي من قبل الصّباح تُحدُ
خيّمك الفضلُ وقد حكموا	أنك الفِرْدُ وما لك ندُ

جميع الحقوق محفوظة
فأنفذ إليه ثلاثة أكبش وصلة واسعة بكتبة الجامعة الأردنية
مركز أيداع الرسائل الجامعية

ويفهم من التّصّ السابق أنّ الموسرين كانوا يحرصون على تقديم الهدايا الثّمينة والعطايا السّنيّة الّتي تليق بهم وبمكائنتهم الاجتماعيّة، وكان بعض الناس لا يرون حرجاً في طلب الهدية بكلّ كياسة ولطف.

ولم ترد إشارة شعريّة إلى الهدايا الّتي كان يتبادلها عوامّ الناس، ولعلّهم كانوا يتهادون الأزهار والهدايا البسيطة الّتي تناسب دحوهم المادّيّة.

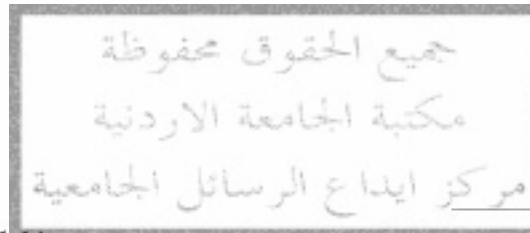
ومن المناسبات الدّينيّة الإسلاميّة الّتي حرص المسلمون على الاحتفال بها يوم عاشوراء، وكان الأمراء والخلفاء يتوسّعون في الإنفاق على رعيّتهم في تلك الليلة تقريباً وتبرّكاً، وكان الفقهاء يحرصون

(١) التّعالّي، البيّمة، ج ٢، ص ٧٥، ولم أعر على ترجمة للشاعر.

على تذكير أولي الأمر بفضل تلك الليلة، ويدعوهم إلى إحيائها، ومن ذلك ما قاله عبد الملك بن حبيب السلمي مخاطباً الأمير عبد الرحمن بن الحكم^(١):

لاتنس، لا ينسك الرحمن، عاشورا
قال الرسول صلاة الله تشمله
من بات في ليل عاشوراء ذا سعة
فارغب، فديتلك، فيما فيه رغبنا
واذكره لازلت في التاريخ^(٢) مذكورا
قولاً وجدنا عليه الحق والتورا^(٣)
يكن بعيشته في الحول محبورا
خير الوري كلهم حياً ومقبورا

ولم يقتصر احتفال المسلمين في الأندلس في العصر الأموي على الأعياد الإسلامية، إنما شاركوا التصاري في الاحتفال بأعيادهم الدينية دون تحرج، مثل عيد ميلاد المسيح - عليه السلام - أو ما يعرف عندهم بعيد التبروز^(٤)، وعيد العنصرة ويسمونه المهرجان^(٥)، وخميس إبريل^(٦)، وغيرها من الأعياد^(٧).



(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ١١١، القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض السبي (ت ٥٤٤هـ)، ترتيب المدارك وتفریب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج ٤، ص ١٤٠، تحقيق: عبد القادر الصحرلوي، مطبعة فضالة، المملكة المغربية، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م. كما وردت هذه الأبيات في التفح برواية مختلفة، وهي:

لا تنس لا ينسك الرحمن عاشورا
قال النبي صلاة الله تشمله
فيمن يوسع في إنفاق موسمه
المقري، التفح، ج ٢، ص ٦.
واذكره لازلت في التاريخ مذكورا
قولاً وجدنا عليه الحق والتورا
أن لا يزال بذلك العام ميسورا

(٢) في ترتيب المدارك: الأحياء.

(٣) لم يرد هذا البيت في البيان المغرب.

(٤) هو الاحتفال بأول ليلة من شهر يناير/ كانون الثاني أو ليلة بعدها، وقد وصفه ابن سعيد بالتبروز المعروف عندهم ببيتير. ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٢٩٤.

(٥) هو عيد ميلاد النبي يحيى بن زكريا - عليه السلام - الكائن في ست بقين من شهر يونيو الشمسي من شهورهم الرومية. المقري، التفح، ج ٣، ص ١٢٨.

(٦) هو السابق لأحد عيد الفصح بثلاثة أيام. المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عليّ المقريزي (ت ٨٤٥هـ)، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط للمقريزي)، ج ١، ص ٢٥٦، طبعة أوفست، دار صادر، بيروت، د.ت.

(٧) للمزيد عن هذه الأعياد، انظر: حرار، صلاح، من صور التسامح الديني في الأندلس: احتفالات المسلمين بأعياد المسيحيين. (قيد النشر قريباً).

وتشير الأخبار المتناثرة في المصادر المختلفة إلى احتفاء الأندلسيين المسلمين - على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم - بتلك الأعياد على طريقة التصارى، مما يؤكد التسامح الديني الذي ساد الأندلس في العصر الأموي، ونجاح السياسة التي انتهجها الأمراء والخلفاء في دمج عناصر المجتمع المختلفة، وتقبل أفراد المجتمع لحقيقة اختلافهم دون حساسية أو تخوف، ولم يختلف الشاعر عن أبناء مجتمعه في ذلك، فنراه يجمع في شعره بين مناسبة دينية إسلامية وأخرى نصرانية، ومن ذلك قول علي بن أبي الحسين^(١):

قَدْ دَنَا الصَّوْمُ فِي صُغُوفِ حِسَانٍ وَبَدَا الْمَهْرَجَانُ آخِرَ صَفٍّ
وَلشَّعْبَانٍ بِالشُّمُولِ بَقَايَا كِبَقَايَا الْخَتَاءِ فِي رَسْمِ كَفٍّ

وكان الأمراء والخلفاء يتقبلون التّهاني بتلك الأعياد كما يتقبلونها بأعياد المسلمين، ففي تهنة المنصور بن أبي عامر بعيد الأضحى - الذي وافق فصيح التصارى - يقول أبو عامر بن شهيد^(٢):

جميع الحقوق محفوظة
جميعت بطاعة حرك الأضواء
كتاب القضاء بأن جئت صاعداً
وإذا سليت فكل يوم عيد
والفطر يوم بالسرور حديد
والصباح ريق والظلام مداد
مرکز ایداع الرسائل الجمعية

وفي تهنة المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر بالمهرجان وعيد الفطر بعده يقول ابن دراج^(٣):

كُلُّ الْكَوَاكِبِ مَا طَلَعَتْ مُعَوْدُ وَإِذَا سَلِمَتْ فَكُلُّ يَوْمٍ عِيدُ
وَإِفَّاكَ يَوْمُ الْمَهْرَجَانِ وَبَعْدُهُ لِلْفَطْرِ يَوْمٌ بِالسَّرُورِ حَدِيدُ
فَصَلِّ يُعَاوِدُ كُلَّ عَامٍ وَالتَّوَدَى فِي كُلِّ حِينٍ مِنْ يَدَيْكَ يَعُودُ

(١) ابن الكثير، التّشبيّهات، ص ٢٧٣. وعلي بن الحسين هذا هو صاحب كتاب التّشبيّهات.

(٢) ابن بسام، الذّخيرة، مج ١، ص ١٨٦، ديب، ديوان ابن شهيد، ص ٦٦.

(٣) ابن دراج، الديوان، ص ٢٦.

وفهم من الأبيات السابقة أن الأمراء والخلفاء كانوا يقدمون الأموال والهدايا لرعيّتهم في تلك الأعياد أيضاً.^(١)

وكان من عادة الناس في تلك الأعياد أن يتبادلوا الهدايا، ومن الإشارات الشعرية إلى ذلك قول أبي عبدة حسان بن مالك^(٢) في تبادل الهدايا في يوم مهرجان^(٣):

أرى المهرجان قعيد استبشـرا	غداة بكى المزن واستعـبرا
ومرّ البيت الأرض أفوافها ^(٤)	وجللت السنن من الأخضـرا
وهزّ الرّيح صبايـرها	فضوّعت المسك والعنـبرا
تهادى به الناس أطفافهم ^(٥)	وسام المقل به المـكثـرا

ويشير البيت الأخير في المقطوعة السابقة إلى أن تبادل الهدايا من العادات التي كان يحرص عليها الأندلسيون أغنيائهم وفقراءهم، وهو أمر يدلّ على ذوق رفيع عند مختلف الطبقات الاجتماعية بغضّ النظر عن الفوارق المادية بينهم.

ومن أعياد التصاري الأخرى التي وردت عنها إشارات شعرية عيد النيروز. وفي تهنة الخليفة سليمان المستعين بهذا العيد يقول أبو عامر بن شهيد^(٦):

(١) من ذلك أن عبد الرحمن بن الحكم جعل لزرياب في كلّ مهرجان ونوروز خمسمائة دينار. المقرئ، التفتح، ج ٣، ص ١٢٥.
(٢) من بيت عزّ وجلالة، وعرة أصالة، مع اشتهاار باللغة والأدب، وكان من وزراء المستظهر. ترجمته في: المقرئ، التفتح، ج ٣، ص ٥٤٨.
(٣) ابن خاقان، للطمع، ص ٢١٤، للمقرئ، التفتح، ج ٣، ص ٥٤٧، كما وردت عند الحميدي في الجنوة، ص ٢٧٦ منسوبة لعبد الرحمن ابن عثمان الأصم.

(٤) في الطمع: أفوافها، وفي التفتح: أمواها. والأفواف: ثياب رفاق من ثياب اليمن موشاة. [ابن منظور، اللسان، فوف].

(٥) في الطمع والتفتح: أطفافه.

(٦) الخميري، أبو الوليد إسماعيل بن عمّاد (ت ٤٤٠هـ)، البديع في فصل الربيع، ص ٤١، تعقيق وتقديم: علي الكردي، الطبعة الأولى، دار سعد الدين، دمشق، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

وَأَتَاكَ بِالنَّيْرُوزِ شَوْقٌ حَافِرٌ وَتَطْلُعُ لِلزَّوْرِ غَيْبٌ تَطْلُعُ
وَأَفَاكَ فِي زَمَنِ عَجِيبٍ مُوْنِقٍ وَأَتَاكَ فِي زَهْرِ كَرِيمٍ مُمْتَعٍ

وكان من عادة الناس في تلك الأعياد ذبح الذبائح وإعداد ما لذ وطاب من الطعام والمجبنات^(١)، وكانوا "يجتمعون ليلة قبل ينير أو ليلة بعده مع أقاربهم وأصهارهم فيأكلون الإدام والفاكهة"^(٢). وقد أورد ابن بسام في الذخيرة نصاً شعرياً للأديب محمد بن مسعود^(٣) يخاطب فيه أحد الموسرين، ويطلب منه وعطيته، ويعدد فيه بعض أصناف الطعام التي يحرص الأندلسيون على إعدادها في تلك الأعياد، وفيها يقول^(٤):

أَبَا الْقَاسِمِ اسْمِعْ مِنْ عُيْدِكَ طُرْفَةً أَتُكَّهَا فَأَذِّنْ لَهَا تَلَجِ الْأَذْنَا
دَنْتُ لَيْلَةَ النَّيْرُوزِ مِنَّا وَلَمْ تَكُنْ لَتَرْضَى لَنَا فِيهَا مِنَ الْعَيْشِ بِالْأَدْنَى
وَقَالَتْ خَجُولِي سَرَّ إِلَى السُّوقِ وَاحْتَفَلْ وَلَا تُبْقِ فِيهَا مِنْ حَرَادِقِهَا^(٥) مَنَّا
وَجُرْ بِأَفْقَى الْجَزَارِ وَاخْتَرْهُ هَابِلًا^(٦) بِقَدْ ابْنِ فَتَوَيَّ أَبِي بِكَرِ الْمُضْنَى
وَلَا بُدَّ مِنْ أُرْجَةٍ^(٧) صَعْتَرِيَّةٍ وَإِيَّاكَ أَنْ تُنْسِيَ التَّوَابِلَ وَالْحِنَا
فَقُلْتُ: وَأَيْنَ التَّقْدُ يَا ابْنَةَ عَزَّةٍ؟ لَقَدْ جِئْتَهَا بَلَقَاءَ مُنْتَبَهَةٍ تَنُنَا

(١) المجبنات : حلوى أندلسية مشهورة. [ابن رزيق، فضالة الخوان، ص ٨٢-٨٦].

(٢) فرناندو دي لا جرافيا (محقق)، الدَّرَ المنظم في مولد النبي المعظم للعربي، مجلة الأندلس، العدد ٣٤، مدريد، ١٩٦٩م، ص ٢٧-٢٨.

(٣) كنيته أبو عبد الله، وهو شاعر ظريف في أمره، كثير الغزل في نظمه ونثره. ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ٣٤٣.

(٤) ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ٣٥١-٣٥٢.

(٥) الجراديق: الفطائر. [البدرى، الذخيرة، الحاشية، مج ١، ص ٣٥١].

(٦) الهابل : السمين. [ابن منظور، اللسان، هبل].

(٧) الأترجة : نبت طيب الرائحة، وله منافع عديدة. انظر: التويزي، لحاية الأرب، ج ١١، ص ١٧٨-١٨٠.

فَقَالَتْ: أَدِيبٌ شَاعِرٌ مُتَفَنُّنٌ حَوَى مِنْ حُظُوظِ الظُّرْفِ فِي زَعْمِهِ الْأَسْنَى
بِلاَ قِطْعَةٍ هَذَا لَعَمْرُكَ هُجْنَةٌ فَمِيزَ رَاشِدًا عَنَّا فَمَا لَكَ مِنْ مَعْنَى
لَنْ لَمْ تَجِئِ بِالثَّنِينَ أَلَيْسَتْ شِيرَةً^(١) وَبِالزَّيْتِ أَضْحَى شَجْنُكَ الْبَيْتَ وَالذُّنَا
فَلَا يَنْكَسِرُ بِاللَّهِ جَاهِي عِنْدَهَا وَخُذْ - فِي الَّذِي أَحْتَاجُ - شِعْرِي ذَا رَهْنَا

وحفلت المصادر بإشارات كثيرة عن عادات وتقاليد أخرى في الاحتفال بعيد النيروز وغيره من الأعياد في العصر الأموي وبعده^(٢)، إلا أنه لم ترد إشارات شعرية إلى تلك العادات والتقاليد في العصر الأموي تكشف عن مستوى التحضر في ممارستها.

كما كانت الاحتفالات تقام والزينة تنصب في مناسبات اجتماعية أخرى مثل الزواج والولادة وطلهور الأبناء، وكان الأمراء والخلفاء وعلية القوم يبالغون في إقامة الولائم وتوزيع الهبات على العوام في تلك المناسبات، وكانوا يستدعون الشعراء للمشاركة فيها وينظم القصائد الجياد الطوال في وصف مظاهر تلك الاحتفالات ومدح أصحابها، ومن ذلك قول الوزير عبد الملك بن إدريس الجزيري لما صنع المنصور بن أبي عامر صليفاً لتطهير ابنه عبد الرحمن^(٣):

وَفِي الصَّنِيعِ، فَجِئْتَ تَمُّ ثَمَامُهُ فِي الصَّخْرِ أَنْشَأَ وَذُقُّهُ يَدْفُقُ
وَأَظْلَمَتْهُ يَحْكِيكَ حُودًا إِذْ رَأَى فِي الْيَوْمِ بِحَرْكَ زَاخِرًا يَتَفَهَّقُ^(٤)

(١) الشيرة: الكبش. [البدرى، الذخيرة، حاشية المحقق، مج ١، ص ٣٥٢].

(٢) من تلك العادات والتقاليد على سبيل المثال لا الحصر أنهم كانوا يصنعون في النيروز حلوى على صورة مدينة وكانت تصنع معها تماثيل للحواري، وتزين بأزهار مختلفة الألوان، وكل ذلك من الحلوى والعجين. انظر: ابن خليل، أبو عبد الله محمد بن خليل، اختصار القدح العلوى في التاريخ الخلى، ص ١٠١ و ١٥٦، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م. وفي العنصرة كانوا يمسحون الخليل والمباراة، وكانت النساء تشي البيوت وتخرج الثياب إلى التدى بالليل، وترك العمل في ذلك اليوم، وتعمل ورق الكرنب والخضرة في ثياهن، وغير ذلك. انظر: الوائلي، أحمد بن يحيى (ت ٩١٤هـ)، المعيار للعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، ص ٧٠ و ٩٢، و ١٥١-١٥٢، خرجه: مجموعة من الفقهاء، إشراف: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٣) للقرى، التفح، ج ٣، ص ٥٣٠.

(٤) يتفقه: يتوسع. [ابن منظور، اللسان، فقه].

ثانياً - اللباس والزينة:

كان للرخاء الاقتصادي الذي أصاب الأندلس في العصر الأموي أثر في اعتناء الأندلسيين بمظهرهم وشدة اهتمامهم بلباسهم وزينتهم^(١). وكان لزياب أثر كبير في شيوع أذواق معينة في اللباس وإرسال الشعر، وأصبح ذوقه مقياس الذوق لأهل قرطبة، فأشاع فيهم لبس الحرير والخز والمروية، وسنّ لهم لبس البياض من المهرجان إلى نصف أكتوبر وإن كان مطراً^(٢)، وعلمهم تقصير شعورهم دون جباههم وتسويتها مع حواجبهم وتدويرها إلى آذانهم وإسداها إلى أصداعهم، ولم يكن زياب لينجح في ذلك لولا ميل الأندلسيين إلى التغيير والتجديد، واهتمامهم بالتفاصيل الصغيرة في حياتهم، وولعهم بكل غريب ومبتكر.

وقد عُرف عن بعض القضاة اهتمامهم الشديد بلباسهم وزينتهم، ومنهم القاضي محمد بن بشر الذي " كان قبل استقضائه يفرق شعره إلى شحمة أذنيه، ويلتحف رداءً معصفاً على الرسم الأقدم، وكان حسن الزيّ جميل الخلق، فتمادى على زيه في قضائه^(٣)، وكان يجلس للناس " وأثر الزينة في أطرافه من الخضاب والكحل والسواد بمحتجائه^(٤) لبساتل الجامعة

وقد واكب الشعر تلك التغيرات التي طرأت على العادات والتقاليد في اللباس والزينة، وبدا الشاعر أكثر احتفاءً بما من غيره، وعنها من المظاهر المكتملة لجمال الوجه والجسد، وفي مثل هذا المعنى يقول أبو حفص بن بُرد^(٥):

٥٦٩١٣٢

(١) انظر: للمشهداني، عمّاد مولود، الشعر الاجتماعي في الأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الطوائف، رسالة دكتوراه، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٩٠م، ص ٢١٣-٢٥٤، سالم سحر عبد العزيز، ملابس الرجال في الأندلس في العصر الإسلامي، ص ٢٤٧ - ٢٧٤، بحوث ندوة الأندلس (القرن والتاريخ، كلية الآداب/ جامعة الإسكندرية ورابطة الجامعات الإسلامية، دار للفرقة الجامعية، الإسكندرية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

(٢) ابن دحية، اللطرب، ص ١٤٧.

(٣) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج ٣، ص ٣٣٥، تحقيق: عبد القادر الصّحراوي، المطبعة للملكية، الرباط، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٣٦.

(٥) الحميدي، الجفوة، ص ١١٦، ابن خاقان، الططيم، ص ٢٠٨، ابن بتمام، الذخيرة، مج ١، ص ٣١٤، ابن دحية، اللطرب،

ص ١٢٩، ابن سعيد، للغرب، ج ١، ص ٩٠، للقرني، التفح، ج ٣، ص ٥٤٦.

لَمَّا بَدَا فِي لَزُورٍ دِيَّ الْحَرِيرِ وَقَدْ بَهَّرَ
كَسَّرْتُ مِنْ فَرْطِ الْجَمَا لِي وَقُلْتُ: مَا هَذَا بِشَرِّ
فَأَجَابَنِي: لَا تُنْكِرَنَّ ثُوبَ السَّمَاءِ عَلَى الْقِمَرِ

وكان الأندلسيون يطرزون ثياب الحرير بالذهب، وهذا دليل على عظم الترف والبذخ عندهم، وفي الإشارة إلى ذلك يقول ابن بُرد^(١):

أَقْبَلَ فِي ثُوبٍ لَزُورٍ قَدْ أَفْرَغَ التَّيْبُ مِنْ عَالِيهِ
كَأَنَّهُ الْبَدْرُ فِي سَمَاءٍ قَدْ طَرَزَ الْبَرْقُ جَانِبِيهِ

كما كانوا يستخدمون الشعر نفسه في تطريز ثيابهم، ويروى أن ولادة بنت المستكفي كتبت على عاتقي ثوباً بالذهب^(٢):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

أَنَا وَاللَّهِ أَصْلَحُ لِلْمَعَالِي وَأَمْشِي مِثْلِي وَأَيْسُهُ تَيْهَا
وَأُمْكِنُ عَاشِقِي مِنْ صَحْنِ خُدِّي وَأَعْطِي قُبْلَتِي مَنْ يَشْتَهِيهَا

وكان للأمرء والخلفاء دور طراز خاصة تصنع لهم أفخر أنواع الثياب وأغلاها، وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط أول من اتخذ الطراز بقرطبة^(٣)، وكان الحكام يهدون بعض ما يُصنع لهم لخاصة قوادهم وضيوفهم وندمائهم. وكان بعض القضاة والفقهاء يرغبون في لبس الحرير، ومنهم عبد الملك ابن حبيب السُلَمي الذي كان يلبس الخنز والسعدى، وقيل إنه كان يفعل ذلك إجلالاً للعلم وتوقيراً^(٤).

(١) ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ٣١٥، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٩٠.

(٢) ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ٢٦٨-٢٦٩، ابن دحية، المغرب، ص ٨، للقرني، التفتح، ج ٤، ص ٢٠٥.

(٣) ابن عساري، البيان للغرب، ج ٢، ص ٩١.

(٤) القاضي عياض، ترتيب للنفار، ج ٤، ص ١٢٤.

كما حرص زرياب على لبس الحرير والباسه للقيان والمغنين لكي تقع عين الأمير وجلسائه على أبهى منظر وأتم مظهر، وقد كان هذا الذوق الرفيع عند زرياب سبباً في غيرة بعضهم منه وحقنهم عليه، ومنهم خصيمه مؤمن بن سعيد الذي هجاه بقوله^(١):

شكوتُ إليها الشوقَ لما تحمّلوا شكايةً محزونٍ من البين جازع
وقالت، وكفُّ البين تَمَرِي دموعها ونارُ الهوى تحتاجُ بين الأضالع
ستصيرُ أو تبكي من الشوقِ مثلما بكى الخزمنُ إبطي عليّ بن نافع^(٢)

ولم تقتصر صناعة النسيج في الأندلس في ذلك العصر على الحرير وحده، إنما شاعت لديهم المنسوجات القطنية والكثانية والصوفية وغيرها لوفرة المواد الخام في مختلف أرجاء الأندلس، ومن قرطبة انتقلت التصاميم التي ابتكرها زرياب بألوانها الزاهية إلى المدن الأخرى، ولاقت استحسان الناس فأقبلوا عليها، إلا أنه لم تصل إليها مقطوعات شعرية تطرقت إلى الذوق السائد عند الأندلسيين في تلك الألبسة، ولكن يبدو ولم الأندلسيين بالتياب البيضاء في أفراحهم وأحزانهم لافتاً للانتباه، إذ كانت لباسهم المفضل منذ عهد المهرجانات إلى أكتوبر، كما كانت دثارهم المعتمدة في الحداد، وفي الإشارة إلى ذلك يقول ابن بُرد^(٣) أيداع الرسائل الجامعية

أجِلْ جفونك في ذا المنظرِ الحَسَنِ ولَمْ على التأي منه حادثُ الزَمَنِ
واعجبْ لضدين في مرآةٍ قد جُمِعا شخصُ السُرورِ عليه لِسَةُ الحَزَنِ

وحفظت لنا المصادر نصاً شعرياً يلقي ضوءاً على لباس عليّة القوم وزينتهم، ويدلّ على ذوقهم وأناقته، وذلك في قول ابن عبد ربّه في حديثه عن خدمة السلطان وصحبته^(٤):

(١) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٢٦٥.

(٢) يقصد زرياب.

(٣) ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ٣١٤-٣١٥.

(٤) ابن عبد ربّه، العقد، ج ٣، ص ١٦٠، النّابة، ديوان ابن عبد ربّه، ص ٤٨.

تُجَنَّبُ لِبَاسَ الْحَرِّ إِنْ كُنْتَ عَاقِلًا وَلَا تُخْتَنِمُ يَوْمًا بِفَصٍّ زَبْرَجَدٍ
وَلَا تَتَطَيَّبُ بِالْغَوْلِي تَعَطُّرًا وَتَسْحَبُ أَذْيَالُ الْمُلَاءِ الْمُعْضَدِ^(١)
وَلَا تُخَيِّرُ صَيِّتَ التَّعَلِّ زَاهِيًا وَلَا تُتَصَلِّرُ فِي الْفِرَاشِ الْمُمَهَّدِ

وكان لنزعة التحرر عند الأندلسيين ونفورهم من القيود أثرهما في تخفيفهم من لبس العمام وأغطية الرأس، ولاسيما في شرق الأندلس، أما في غربها فقد حرص القضاة والفقهاء ورؤساء البربر على التعمم، وندر ارتداء تلك الأغطية بين الأجناد وعوام الناس نسائهم ورجالهم.^(٢)

وقد دفع تخفف الناس من العمام إلى الاعتناء بتسريح الشعر وتصفيفه، ولاقت التسريحة "الزرباية" استحسان الناس وقبولهم، ولاسيما بين الجوارى والقيان والغلمان، وفي وصف غلام أتقن تصفيف شعره يقول الرمادي^(٣):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
فكان كيدر تحت
أيدي مركز الأبحاث
بمكتبة مركز الأبحاث
بمكتبة مركز الأبحاث

فَأَبْدَيْتَ وَجْهًا تَحْتَ تَرْجِيلِ لَمَّةٍ فَكَانَ كِيدَرِ تَحْتَ لَيْلِ مُرْجَلِ
وَمَثَلُهُ بِالْبَدْرِ أَيْضًا مَحْفُوفَةً بِغَالِيٍّ صَرَفٍ أَدَقِ مُمَثَّلِ
عِذَارَانِ خُطَا فَوْقَ وَجْهِكَ زِينَةً عَلَيْهِ وَخُبًّا لِلْعِذَارِ الْمُعْجَلِ
وَقَدْ طُرْمَنَهَا شَارِبٌ فَوْقَ مَبْسَمٍ كَغَصَنِ عَقِيْقٍ بِاللَّيْلِ مُكَلَّلِ

وفي وصف التفاف شعر إحدى الجوارى يقول عبادة^(٤):

وَكَاَنَّ التَّفَافَ شَعْرَكَ جَعْدًا فَوْقَ وَجْهِ يَضِيءُ ضَوْءَ السَّراجِ
طَبِيقٌ مُكَنَّمٌ مِنَ التَّيْرِ مَحْضًا تَحْتَهُ لِلْعَيُونِ لَعِبَةٌ عَاجِ

(١) للمعتمد: ثوب له علم في موضع المعتمد [ابن منظور، اللسان، عضد].

(٢) انظر: للمفري، التفتح، ج ١، ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٣) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ١٢٥، حرار، ماهر، شعر الرمادي، ص ١٠٧.

(٤) للصدر السابق، ص ١٢٢.

وشاع بين هؤلاء الجوّاري والغلمان رسم الأصداغ على شكل العقارب، واختصّوا بها لأن هذه التّسريحة تحتاج إلى فراغ واتّساع خلق، وهم يعيشون حياة راغدة مترفة في القصور وبيوت الموسرين، وكانت تلك التّسريحة من ابتكارات زرياب كذلك، وقد أثار هذا الأمر - كذلك - غريمه مؤمناً، ومما قاله في هجائه^(١):

تَبَارَكَ مَنْ أَذَلَ الْخَزَرَ حَتَّى تَمُوتَ فِيهِ أَفْوَاهُ الْكِلَابِ
وَمَنْ جَعَلَ الْعَوَالِي مَائِلَاتٍ عَلَى أَصْدَاغِ أَسْوَدَ كَالْغَرَابِ

وقد ألهمت هذه التّسريحة المبتكرة خيال الشعراء فأجادوا في وصفها، ومن ذلك قول سليمان ابن محمّد بن بطّال^(٢):

ترنّو لواحظنا لتقف طِفْ وَرَدُهُ
فَكَأَنَّ عَقْرَبَ صَدْعٍ فِي حَنْدَةِ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَرَدُهُ أَنْ يُجَنِّي
مَرْكَزَ إِيدَاغِ الرِّسَائِلِ الْجَامِعِيَّةِ

ولمّا كانت أكثر رؤوس الأندلسيين حاسرة، فقد سعوا إلى المحافظة على جمال مظهر شعورهم، وكانوا يستقبحون خلق الرؤوس، ويرون فيه أذى للنفس والعين، وفي التّنذر برجل حليق الرّأس يقول الرّمادي^(٣):

حَلَقُوا رَأْسَهُ لِيَكْسُوهُ قُبْحاً عِيفَةً مِنْهُمْ عَلَيْهِ وَشُحْحاً
كَانَ قَبْلَ الْخِلَاقِ لَيْلاً وَصُبْحاً فَمَحَوْا لَيْلَهُ وَأَبْقَوْهُ صُبْحاً

(١) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٢٧١.

(٢) للصدر السّاق، ص ١٢٦.

(٣) ابن سعيد، رايات المرزّين، ص ١٣٥. ووردت هذه الأبيات في الجذوة (ص ٣٩٨) منسوبة لأبي عبد الله بن متاؤ الملقب.

وكان الأندلسيون في ذلك العصر ينفرون من الشيب نفوراً شديداً، وهو أمر بديهي لشدة ولعهم بالحياة وتعلقهم الشديد بها، فدأبوا على التخضب في كل وقت، وقد عُرف عن الأمير عبد الرحمن الأوسط شدة ولعه بالخضاب، حتى إنه في مرض موته لما تحركت له قوة " أمر بأن يصلح له الحمام، ويعدل مزاجه، فاحتم فيه، وأجد خضابه، وكان يواليه ويحمل به"^(١). وفي تحديد الخضاب لإخفاء الشيب يقول ابن عبد ربّه^(٢):

إذا نصل الخضاب بكى عليه ويضحك كلما وصل الخضابا
كأن حمامة بيضاء ظلت تقاتل في مفارقة غرابا

ومن مظاهر انشغال الأندلسيين بزيئهم رغبة كثير منهم عن اللحي واستبشاعهم لمظهرها الكثر، وقد استقر وجودها في أذهانهم بالقدارة وعدم النظافة، وفي مثل هذا المعنى يقول عبّيديس الكاتب^(٣) في هجاء رجل عظيم اللحية^(٤):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية

يا مَنْ عَلَّيْهِ لِلْعَمَلِ كَرَاهٌ دَاغَ الْبُرْسِيُّ لِلْإِلَاحِيَّةِ مَحْتَاجُ
وَعِنْدَكُمْ فِي وَشْقَةٍ^(٥) لِحْيَةٌ يَحْمِلُهَا الْمَائِقُ حَجَّاجُ
لَتُعْرِ فِي جَانِبِهَا مَسْرَحُ فِيهِ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجُ
وَمِنْ صَنُوفِ الطَّيْرِ فِي بَعْضِهَا بَطٌّ وَسَمَّانٌ وَدَرَّاجُ
يَسِيلُ مِنْ شَارِيهِ فَوْقَهَا سَلْحُ^(٦) غَزِيرِ الْقَطْرِ نَجَّاجُ
لَلْبَقَى فِي عُثُونِهِ^(٧) مَكْمَنُ وَمِنْ دِيْبِ الْقَمَلِ أَفْوَاجُ

(١) ابن حيان، المقتبس (مكي)، ١٦٠-١٦١.

(٢) ابن عبد ربّه، العقد، ج ٢، ص ٣٤٨، ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٢٥٥، الذّاية، ديوان ابن عبد ربّه، ص ٢٥.

(٣) عبّيديس بن عمود أبو القاسم الكاتب الجيّاني، أديب شاعر بليغ، عاش في أيام الحكم المستنصر. ترجمته في: الحميدي، الجسود، ص ٢٩٧، ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٦٩، وغيرهما.

(٤) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٥) وشقة: من مدن الثغر الأعلى بسرقسطة، وتبعد عنها أربعين ميلاً. الشريف الإدريسي، أبو عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني (ق ٦هـ)، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج ٢، ص ٥٣٨، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ج ١، ص ٤٠، د. ت.

(٦) السّح: ماء السماء في الغدران. [ابن منظور، اللسان، سح]. وللقصود هنا ما يسيل من الأنف.

(٧) العثون: اللحية. [السابق، عث].

وقد كان أصحاب اللحى العظيمة مثار التهكم والتندر في مجالس الأمراء والخلفاء، ومن طريف ما يروى في ذلك أن الخليفة عبد الرحمن الناصر مازح يوما وزيره أبا القاسم لباً، فقال له: يا لب، اهج الوزير عبد الملك بن جهور. فامتنع عليه، فقال لابن جهور: فاهجه أنت، إذ أبي هو من هجوك. فقال: يا أمير المؤمنين، أتوقى عرضي منه، وأصون نفسي عنه. فقال الناصر: فأنا أهجوه، فقال:

لب، أبو القاسم ذو لحية طويلة، في طولها ميل

ثم قال لابن جهور: لا بد لك من تذييل هذا البيت، فدع الاعتذار. فقال:

وعرضها ميلان إن كسرت والعقل مافول ومدهول
لوائه احتاج إلى غسلها لم يكفه في غسلها النيل
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز أيداع الرسائل الجامعية
فضحك الناصر، وقال للّب: إنه قد سبب لك القول، فقل. فقال للّب:

قال أمين الله في خلقه لي لحية أزرى بها الطول
وابن عيبر قال قول الذي مأكوله القرظيل^(١) والفول
لولا حيائي من إمام الهدى نخست بالمنخس "شو قول"^(٢)

فلما بلغ لبّ قوله "شو" سكت، فقال له الناصر: "قول"، فأتم على نحو ما أضمر، فقال له: أنت هجوته يا مولاي. فضحك الناصر، وأمر له بصلة^(٣).

(١) القرظيل: نوع من الطعام.

(٢) عبارة إسرائيلية تعني: قفاه.

(٣) ابن عساري، البيان للغرب، ج ٢، ص ٢٢٦-٢٢٧.

ويؤكد النص السابق ما سبقت الإشارة إليه من حبّ الأندلسيين للدعابة والمزاح في مجالسهم، ولكن بلطف وتحبب وحرص على عدم إيذاء مشاعر أيّ من الجالسين، ولاسيّما إذا اجتمعوا في مجلس أمير أو خليفة، ولو صدف ذلك فإنّ صاحب المجلس يسعى لإرضاء جلسيه، ورده إلى أفضل مما كان عليه.

ثالثاً - الطعام والشراب:

تجاوز اهتمام الأندلسيين بالطعام والشراب مفهوم الضرورة، وأصبحوا يعنون بطعامهم وشرابهم، ويتبارون في وصف إتقان صنعهما وتقديمهما.

جميع الحقوق محفوظة

وكان لزياب أثر كبير في إكساب الأندلسيين عادات جديدة في ماكلهم ومشربهم، فهو أوّل من أدخل بقلة الحلوى وغيرهم من كذا إلى الأندلس، وأورّج طرقاً جديدة لإعداد الأطعمة وأساليب راقية لتناولها، فابتعد الناس عن الأطعمة التقليدية مثل التراث والعصائد، وأقبلوا على أصناف أخرى تحتاج إلى جهد في إعدادها، وأكثروا من استعمال التوابل لإضافة نكهات طيبة عليها، كما شاعت فيهم أساليب جديدة في ترتيب المائدة وفرشها، وتناول الطعام بالملاعق والسكاكين، واستخدام الأواني الزجاجية الفاخرة، عدا الأواني الذهبية والفضية. ولاقت تجديدات زريب تلك هوى في نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم، وخلال مدّة زمنية يسيرة بدا الأندلسيون كما لو كانوا فطروا على تلك الأساليب الزريبية، وقد بلغ من عشقهم للطعام أن ألفوا كتباً في الطبخ الأندلسي، ووضعوا فيها خيراتهم ومهاراتهم، كما حشدوا فيها الكثير من الفوائد الطيبة والنصائح المتعلقة بالمكونات والأواني وما إلى ذلك من شؤون المطبخ، وللأسف لم يصل إلينا من تلك المؤلفات سوى النزر اليسير^(١).

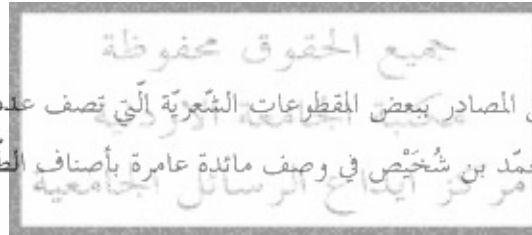
(١) انظر: ابن دحية، للطرب، ص ١٤٧.

(٢) انظر مثلاً: ابن رزيق التحيي (عصر بني مرين)، فضالة الخوان في طبّات الطعام والألوان، تحقيق وتقديم: محمد شقرون، إشراف: إحسان عباس، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤م.

أما في الشعر فلا تسعف المقطوعات المتناثرة في المصادر المختلفة في بيان الأساليب والتطورات الجديدة التي استحدثتها زرياب ، وكل ما يمكن العثور عليه في وصف أدوات المائدة بيتان لابن هذيل في وصف استخدام السكاكين في تناول الطعام، وفيهما يقول على لسان سكين^(١):

قد أخرجت أيدي الملوك إلى فمي فأنا على الأيدي شبيهة أرقم
أحنني فيطلب حاسي بجنايبي وأنا قتلت وفي أنار الدم

وتشبيه السكين بالأرقم في البيت الأول يفهم منه أن سكاكين المائدة لم تكن مستوية بل ملتوية، أو أنها كانت تتخذ من الفضة وتنتهي بمقبض أسود، لأن الأرقم نوع من الحيات ذو لونين أسود وأبيض.



كما احتفظت عدد من المصادر ببعض المقطوعات الشعرية التي تصف عدداً من أطايب الطعام والحلويات، ومن ذلك قول محمد بن شخيص في وصف مائدة عامرة بأنصاف الطعام الفاخرة^(٢):

إن حُسنَ الرياضِ صاغَ لها الظلُّ بُروداً مِنْ ناضِرِ الأقحوانِ
مِنْ مَجَالِ الأَكُفِّ فِي سُفْرَةٍ تُحْوِي صُنُوفَ الحَيْتَانِ^(٣) والخرفانِ
وكانَ الثَّرِيدَ والحَمَصَ المَثُورَ تَـاجَ مُكَلَّلٍ بِجُمَانِ
وتخالُ الزَيْتُونُ فِي قِصَعِ الصَّيْنِ صُدُوراً تُقَطَّنُ بالخِيَلانِ

ويبدو من الأبيات السابقة أن الشاعر كان في ضيافة أحد الأمراء أو الأغنياء في روضة من رياض قصره، ولم يكتف الشاعر بتعداد أصناف الطعام على المائدة، إنما صرف جهده إلى وصف طريقة ترتيبها وتزيينها، فالأسماك والخرفان يزينها الثريد والحمص بترتيب وذوق وأناقة حتى غدت

(١) ابن الكثير، التشبيهات، ص ٢٣٠، شوابكة، شعر يحيى، ١٢٤.

(٢) المصدر السابق، ٨٧-٨٨.

(٣) الحوت هو السمك في لغة أهل الأندلس.

كالثاج المكلّل بالجمان، وإلى جوار هذه الأطباق الرّيسة وضعت ألوان من المقلّبات، ومنها الرّيتون الأسود الذي اشتهرت الأندلس بزراعته، ويفهم من البيت الأخير أنّ الأندلسيّين في العصر الأمويّ كانوا يستخدمون الأواني الخزفيّة الصّينيّة الملوّنة الجميلة، وتبدو المائدة الأندلسيّة - في الأبيات السّابقة - شديدة الشّبه بالإنسان الأندلسيّ، فهي تتقبّل للمنجزات الحضاريّة المختلفة في آن معاً بتناسق واضح وجميل.

وفي ميل الأندلسيّين إلى الطّعام الدّسم اللّذيذ وولعهم الشّديد به يقول أبو عبد الله بن محمّد بن مسعود ممّازحاً^(١):

ما بشخص الحبيب يفرح ذو العقب — بل ولا بالخلود والأحـداق
إنما المُلْكُ نَرْدَةٌ مِنْ تَغَايَا^(٢) — مِنْ دَحَايجِ مُسَمَّنَاتِ عِنَاقِ
وإذا قيلَ لي: يَمَنْ أَنْتَ حَمِيصُ الْحَقْوَقِ؟ فَهَلْ ظَنَنْتَ دَمْعَ الْمَآقِي؟
قلتُ: بالسُّكْبَاجِ^(٣) وَالْجَمْعُ كَيْفَ الْجَامِعِ^(٤) أَوْ خَذَصِ الشُّوَا مَعَا بِالرَّقَاقِ
وحشيش السَّمِيدِ^(٥) عَمْدُكَ عَلَيَّ الرَّمْنُ أَضِلُّ السَّابِلَ الْحَقِيقَ عِنْدَ الْعِنَاقِ

وكان الأندلسيّون يكثرّون من تقديم أطايب الطّعام ويتفنّون في صناعة الحلوى الشّهية في المناسبات المختلفة، ولا سيّما في ليلة التّيزوز وفي عيد المهرجان كما سبقّت الإشارة إلى ذلك^(٦)، وفي التشبيهات نصّ شعريّ لابن هُذَيْل يصف فيه مائدة رمضانيّة، ويشير فيه إلى بعض ألوان الطّعام والحلوى الّتي كان الأندلسيّون يقدّمونها على موائدهم، وفيه يقول^(٧):

(١) ابن يسّام، الدّخيرة، مج ١، ص ٣٤٨.

(٢) التّغايا: نوع من الطّعام يؤخذ من لحم الكبش أو الدّجاج. [ابن رزيّن، فضالة الخوان، ص ١٠٣ و ١٥٥].

(٣) السُّكْبَاج: لم أعرف معناها.

(٤) الجمعيّات: طعام يؤخذ من أطايب اللحم وغلظ الكرش وأشباهه، كما يؤخذ من الحوت الكبير. [ابن رزيّن، فضالة الخوان، ص ٩٥ و ٢٠٣-٢٠٤].

(٥) حشيش السّميد: الفقع المطحون. [للمصدر السّابق، ص ٦١].

(٦) انظر ص ٦٧.

(٧) ابن الككّانيّ، التشبيهات، ص ٨٨، شوابكة، شعر بجي، ص ١٢٦.

وممّا يقطعُ الحيزومَ عندي وثندي بُردتي خلفي إذا ما
نظرتُ إلى الهرائسِ في الجفانِ كأنّ الزيتَ والعسلَ المصفى
عبرَ خالصٍ في دهنٍ بأن وباذنجانٍ مثلِ كُراتِ ضَرْبِ
مُضْمَنُهَا لُبَابُ الْجُلُحْلانِ^(١) وقد وقفَ الصيامُ على فراغِ
ونفسي سوفَ تُفرغُ بالأمانِ

ولم يكتف الأندلسيون في ذلك العصر بترتيب مواعدهم، إنما كانوا يسعون إلى تقديم الفواكه وأطياب الثمار في مجالسهم مرتبة منسقة في غير أوقات تناول الوجبات الرئيسة، وقد لفت هذا التألق اهتمام الشعراء المنحذين إلى كل أنيق وجميل، ومنهم ابن درّاج الذي يقول في وصف طبق من التفاح محاط بالترجس في مجلس المنصور بن أبي عامر^(٢):

جميع الحقوق محفوظة
يا حبذا عجل التفاح في طبقه الجامعة الإردنية الزهر مُسَيِّقِ
فيه عيونُ بهارٍ قد أحطنَ به نواظراً يحفون العاشق الأرقِ
مركز أيداع الرسائل الجامعية

وكان الأندلسيون يتهادون أطياب الطعام والفواكه فيما بينهم، ويبعث الشعراء منهم مع تلك الهدايا أبياتاً من الشعر، ومن ذلك قول ابن عبد ربّه حين أهدى حوتين صغيرين^(٣):

أهديتُ أزرقٍ مقرونًا بزرقاء كالماء لم يَغْنُها شيءٌ سوى الماءِ
ذكائُها الأخذُ لا تنفكُ طاهرةً في البرِّ والبحرِ أمواتاً كأحياءِ

وكان المُهدي يتخير أجود الثمار وأنضجها احتراماً لقدر المهدى إليه، وفي مثل هذا المعنى يقول الوزير جعفر بن عثمان المصحفي^(٤):

(١) الجُلُحْلان : ثمرة الكزبرة، أو السمسم في قشره. [ابن منظور، اللسان، ج ١، ص ١٦٠.]

(٢) ابن درّاج، الديوان، ص ٥١٢.

(٣) ابن عبد ربّه، العقد، ج ٦، ص ٣٠٠، ابن الككائي، القصصيات، ص ٨٧، الذّكّيّة، ديوان ابن عبد ربّه، ص ١٦.

(٤) ابن الأثير، المحلّة، ج ١، ص ٢٦١.

لَعَمْرِي لَقِنْ أَهْدَيْتُ نَفْسِي وَمَا حَوَتْ فَأَنْتَ بِهَا مِنِّي أَحَقُّ وَأَمْلَكُ
وَلَكِنِّي أَهْدَيْتُ الَّتِي لَا تَرُدُّهَا عَيْنٌ وَلَا فِيهَا لَذِي اللَّحْظِ مَثَرُكَ
تَنَاوَلْتُهَا مِنْ غُصْنِهَا وَكَأَنَّهَا مِنْ الْحُسْنِ ذَاكَ النَّاجِمُ الْمُتَفَلِّكُ

وكانوا يحرصون على ترتيب الفاكهة في السلال ترتيباً أنيقاً يبهج العين ويستميل القلب، وكان ذلك المظهر الأنيق لسلة الفاكهة يخلص خيال الشعراء فيأتون بالتشبيهات المبتكرة أحياناً، ومن ذلك قول أحمد بن فرج الجيّاني في بحث كثرى^(١):

وَكأنَّ أَصْغَرَ هَـا دِقَا قُ كَوَاكِبٍ فِي عَيْنٍ نَاطِرٍ
أَوْ مِثْلُ صَفَرَاءِ الْمُـدَا مَةٍ فِي أُكْيَاسٍ أَصَاغِرٍ
مُتَنَفِّسَاتٍ فِي الْأَنْوَارِ فِي عَيْنٍ لَأَنَّهَا مِنَ الْمَجَامِرِ
حَلَوُ ضَمَائِرُهَا كَمَا يَحْلُو الْهَوَى لَكَ فِي الضَّمَائِرِ
أَوْ مِثْلَمَا تَحْلُو الْقَلْبَ فِي لِسَانٍ فِيكَ شَاكِرٍ
وَكَأَنَّمَا هِيَ مِنْ مَرْكَزِكَ أَقْدَامُ الرُّخْسَانِ الْخَامِرِ
وَكَأَنَّهَا مِنْ شُكْرِهَا تُمَلَّا الْبَطُونُ إِلَى الْخَنَاجِرِ

ولم يكن نظم الشعر سنة عند صاحب الهدية وحده، بل كان الشاعر المهدي إليه ينظم فيها شعراً كذلك، ويفاخر بها، ويصف نوع الفاكهة وجودها، ومن ذلك قول ابن عبد ربّه حين أهدي سلتي عنب^(٢):

أَهْدَيْتُ بِيضاً وَسُوداً فِي تَلَوْنِهَا كَأَنَّهَا مِنْ بَنَاتِ الرُّومِ وَالْحَبَشِ
عِذْرَاءُ تَوَكَّلْ أَحْيَاناً وَتَشْرَبُ أَحْيَاناً فَتَعْصِمُ مِنْ جَوْعٍ وَمِنْ عَطَشِ

(١) ابن الكفّاني، التشبيهات، ص ٨٨.

(٢) ابن عبد ربّه، العقد، ج ٦، ص ٣٠٠، ابن الكفّاني، التشبيهات، ص ٨٥، الديّانة، ديوان ابن عبد ربّه، ص ٩٦.

وكانت شجرة العنب من أكثر الأشجار انتشاراً في الأندلس ، و كان الأندلسيون يصنعون منها مختلف أصناف الخمر، وقد أولع الشعراء بوصف الخمر على امتداد ذلك العصر كله، وكان موضوع الخمرات من أكثر الموضوعات شيوعاً فيما وصل إلينا من نصوص شعرية، وكان بعض المسلمين في الأندلس يستبيحون شرب الخمر مستغلين الاختلاف بين الفقهاء في حكم الخمر على شاربها، وكان العوام يحاججون الفقهاء والقضاة في إباحة شربها، ومن ذلك ما يروى عن القاضي أبي عبد الله محمد بن أبي عيسى من أنه سار يوماً في موكب حافل من وجوه الناس، فعرض له فتى متأذب قد خرج من بعض الأرقعة سكران يتمايل، فلما رأى القاضي هابه وأراد الانصراف فحانته رجلاه، فاستند إلى الحائط وأطرق، فلما قرب القاضي، رفع رأسه وأنشد يقول^(١):

ألا أيها القاضي الذي عمَّ عدُّهُ فاضحى به في العالمين^(٢) فريدا
قرأت كتاب الله تسعين مرة فلم أرفعه لثواب خـ
فإن شئت أن تجلد^(٣) فدوتك منكبه جميع الحقوق محفوظة
وإن شئت أن تغفو تكفل لك مكتبة الجامعة الإسلامية العالمية
الزمان جليدا
مركز أيداع الرسائل الجامعية

فتركه القاضي، ومضى وشأنه.

ولمّا أمر الخليفة المستنصر بإقامة الخمر في سائر الجهات نظم الرّماذي قصيدة طويلة ينعي الخمر إلى عشاقها، ويرى في ذلك تحنياً وتشدداً، وفيها يقول^(٤):

(١) ابن خاقان، المطمح، ص ٢٥٦ - ٢٦٦، المقرئ، التفتح، ج ٢، ص ١٤

(٢) في التفتح: بين الأنام.

(٣) في المصدر السابق: جلدًا لي.

(٤) في المصدر السابق: حميدا.

(٥) الحميدي، الجذوة، ص ١٤، حرّار، ماهر، شعر الرّماذي، ص ٧٣.

أَعَشَّاقَ الْمُدَّامَةِ إِنْ جَزَعْتُمْ لَفَرَقْتِهَا فَلَيْسَ مَكَانُ صَبْرِ
سَعَى طَلَابِكُمْ حَتَّى أُرِيقَتْ دُمَاءُ فَوْقَ وَجْهِ الْأَرْضِ تَجْرِي
تَضَوَّعَ عَرَفُهَا شَرْقًا وَغَرْبًا وَطُبِّقَ أَفْقُ قَرْطَبَةٍ بِعَطْرِ

ثمَّ يورد حجته في الاعتراض على ذلك من أنَّ الفقيه أبا حنيفة طلب من القاضي عيسى بن موسى إطلاق سراح جار له سجن في شرب خمر، وأبو حنيفة هو الفقيه العدل الذي فرَّ عن القضاء مسيرة شهر.

وكان شرب الخمر عند الأندلسيين في ذلك العصر ينسجم مع فلسفتهم في الحياة، فهي - حسبما يرون - مصدر لذة ومتعة وانتشاء، تجلو كرب النفوس وتخفف الهموم عن صاحبها، وفي ذلك يقول عبادة^(١):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
أجل المدامة فهي خير عروس تجلو كرب النفس بالتنفيس
واستغنم اللذات في عهد مركز الصباح
مركز الصباح وأوانه لا عطر بعهد عروس

ويقول جعفر بن عثمان المصحفي^(٢):

عَجِبْتُ لِقَوْمٍ ضَيَّعُوا كُلَّ لَذَّةٍ ولا مواءظاً شاطرأ في طرائقه
إِذَا مَا شَكَا بِالرَّاحِ فِي الثَّمَلِ سَرُّهُمْ وكم قائل قولاً بغير حقائقه
وإِنَّا لَنَشْكُوها إِلَيْهَا كَمَا شَكَى مشوق على الإعجابِ عضة شائقة

(١) ابن يسام، الذخيرة، مج ١، ص ٢٩٤.

(٢) ابن الككائي، التشبيهات، ص ٩٦.

وكان الأندلسيون يتعاطون الخمر، وينظمون فيها الأشعار في جو من التسامح الديني، وكان الاختلاط بين المسلمين والتصارى واليهود أوضح ما يكون في مجالس الخمر، واستغل الشعراء هذا التقارب في الإتيان بمعانٍ مستمدة من طقوس المسلمين أو التصارى وشعائرتهم، غلبت المرأة على بعضها، ومن ذلك قول محمد بن إبراهيم^(١):

وَمُدَامَةٍ حَمْرَاءَ نَصْرَانِيَّةٍ زَهْرَاءَ حَمْرَاءَ بِهَا نَدِمْتُ أَزْهَرُ
صَبَّوْا عَلَيْهَا الْمَاءَ حَتَّى يَحُلُّهَا لَمَّا أَتَتْهُمْ مُسْلِمًا يَطْهَرُ

وقول الرمادي^(٢):

أَلَا أَشْرَبُهَا عَلَى النَّاقُوسِ صِرْفًا فَذَاكَ مُؤَذِّنُ الدِّينِ الْقَدِيمِ

جميع الحقوق محفوظة

وكان أكثر متعتهم شراب الخمر في الهواء الطلق وفي الرياض، وكانتهم يريدون التخفيف من قيد المكان كذلك، وفي الدعوة إلى شركها بين الرياض الغناء يقول محمد بن عبيدة العزيز العتيبي^(٣):

إِذَا نَفَّحَ التَّسِيمُ فَقُمْ وَبَاكِرٍ رِياضَ التَّهْرِ وَالْأَنْدَاءِ تَهْمِي
وَلَا تَشْرَبْ بَنَاتِ الْكَرْمِ إِلَّا عَلَى رَوْضِ نَدٍ وَبَنَاتِ كَرْمِ

وقد أكثر الشعراء من وصف أصناف الخمور المختلفة وأحاديثها، ومن ذلك قول ابن هذيل في التنبيد الأبيض^(٤):

(١) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٩٧، والشاعر هو - علي الأرحح - محمد بن إبراهيم بن سليمان، ذكره الحميدي في الجفوة، ص ٤١، وقال عنه " أديب شاعر، ذكره ابن فرج في الخدائق ".

(٢) المصدر السابق، ص ٩٣، جرار، ماهر، شعر الرمادي، ص ١٢٥.

(٣) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٣٤. والعتيبي هذا كان حافظاً لمسائل الفقه، جامعاً لها، عالماً بالتوازل، ت (٢٥٤هـ). انظر ترجمته في: ابن الفرضي، تاريخ العلماء، ج ٢، ص ٨، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٩٤ و ١٣٤، القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج ٤، ص ٢٩٢.

(٤) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٩٦-٩٧، شوايكة، شعر نبي، ص ١٠٣-١٠٤.

لعبتْ بِأَيَّامِ الزَّمانِ وطاولتْ
فإذا استقرتْ في الكؤوسِ حَسْبَتُها
عُصرتْ كأنَّ مِنَ اللَّائِي ذُوْبَتْ
قد أوهمتْ حَكَمَ الحُدودِ فظنَّها
مُدَدَ اللَّيالي فَهِيَ جِرْمٌ صافٍ
منها لِرَقَّةِ جَرْمِها المتكافي
فشرابُها مِنْ كُلِّ ضُرِّ شافٍ
ماءٌ، وقد حكمتْ بِحُكْمِ خافٍ

وفي حمرة معتقة يقول العُتبي^(١):

وعاتكة^(٢) كعينِ الذَّيْكَ بِكُرٍ
تُرى بين المِزاجِ لَهَا حَبَابُ
تَقَصَّتْ في الدَّنانِ لَهَا دَهورُ
كأنَّ نثِيرَهُ الدُّرُّ النُّثِيرُ

وكانت الخمر من الهدايا المحببة عندهم، يهدونها ويستهملونها دون حرج. وفي بحث خمر
اعتصرت حديثاً يقول ابن هُذَيْل^(٣): جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الجامعة الاردنية

مِنْ بَناتِ الكُرومِ لَيْسَ هُنَّ حَمَلٌ
يَتَغَنَّى نَشِيشُها في الرِّواطِي —
مِنْ الْأَبْكارِ لَيْسَ لِي لَالٌ بِكَرٍ
م^(٤) فَنُتْسِيكَ نَعْمَةً الْأَوْتارِ

وفي استهداء نبذ من كاتب اليهود يقول ابن درَّاج^(٥):

قَدْ خَطَبْنَا وَقَدْ أَجَارَ الْوَلِيُّ
وَبَعَثْنَا الصَّدَاقَ نَظْماً وَنَثِراً
بَعَدَ عَلِمُ أَنَّ الْخَطِيبَ كَفِيُّ
فَمِنْ الْحَقِّ أَنَّ تُزَفَّ الْهَدِيُّ

(١) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٩٠.

(٢) العاتكة : شديدة الحمرة. [ابن منظور، اللسان، عنك]

(٣) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٩٣.

(٤) التشيش : صوت الخمر، والرواطيم : لفظة أندلسية تعني أوعية الخمر. [عباس، التشبيهات، الحاشية، ص ٩٥].

(٥) ابن درَّاج، الديوان، ص ٥٢٦.

كما اعتنى شعراء ذلك العصر بوصف الكؤوس والأقداح ودنان الخمر، ولاقت كؤوس الزجاج رواجاً بين الناس في القصور والحانات، وكان لها أثر كبير في تفتن الشعراء في وصف منظر الخمر من خلالها، وكانت تلك الكؤوس تصنع من أغلى أنواع الزجاج وتموّه بالذهب غالباً، وفي وصفها يقول ابن عبد ربّه^(١):

نرى الأباريق والأكواس مائلة وكل طاس من الإبريز مُمتلئ
كأنها أنجم يجري بها فلك للراح لا أسد فيها ولا حمل^(٢)

وفي وصف دنان الخمر يقول الرمادي^(٣):

لنا حتمّ فيها المدام كأنها بدور متى تطلع، كوامل مُحفّت
جميع الحقوق محفوظة بزهر دراري على الراح طلع
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز أيداع الرسائل الجامعية

وكان الأندلسيون يتخذون شراب الزبيب، ولجعر المصحفي في وصف هذا اللون من الشراب قوله^(٤):

ولما تولى بانبه الكرم جائر عليها فأصلاها بزعمكم الشمس
ولم يبق من جثمانها غير جلدها غدت للذي تحويه من روحها رمسا
وصلت بها المماء القراح مُحافظاً فراح لها جسماً وراحت له نفساً

(١) ابن الكفّاني، التشبيهات، ص ٩٨، النّاقة، ديوان ابن عبد ربّه، ص ١٣٦.

(٢) يقصد برجي الأسد والحمل.

(٣) ابن الكفّاني، التشبيهات، ص ٩٧، حرار، ماهر، شعر الرمادي، ص ٨٤-٨٥.

(٤) الختم: الحرار الخضر التي تضرب إلى الحمرة. [ابن منظور، لسان، حسنم]. والتسع: السواد الشرب حمرة. [المصدر نفسه، سبع].

(٥) ابن بسام، الذخيرة، مج ٢، ص ٦٤.

ولم يرد في المصادر التي اطلعت عليها إشارة شعريّة لأصناف أخرى من الشراب عرفها
 الأندلسيون في العصر الأمويّ وشاع تناولها بينهم، ولكنّ ذلك لا ينفي قطعاً أنّهم أولعوا بمختلف
 أصناف الشراب كما أولعوا بمختلف أصناف الطّعام، وجاء هذا الاهتمام منسجماً مع فلسفتهم في
 الحياة ورغبتهم بالاستمتاع بما حتّى الرّمق الأخير، وتقديرهم للحمال في كلّ شيء، واعتنائهم بأدقّ
 التفاصيل في شؤون حياتهم، وهاجسهم الدائم في الانعتاق من القيود بحثاً عن حرّيتهم التي لا تقدر
 بثمن.

جميع الحقوق محفوظة
 مكتبة الجامعة الاردنية
 مركز ايداع الرسائل الجامعية

الفصل الثاني

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
معالم الثقافة في الشعر الجامعية

المبحث الأول النشاط الفكري والعلمي

شهدت الأندلس - في أوائل عهد تأسيس الإمارة (١٣٨ هـ) - نشاطاً فكرياً وعلمياً محدوداً، اقتصر على بعض المعارف الدينية والعربية، إلا أن عهد الاستقرار السياسي والاقتصادي زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) شهد نهضة ثقافية كبيرة في مختلف العلوم والمعارف، وبلغ هذا الازدهار أوجهه في عصر الخلافة، وأصبحت قرطبة حاضرة الخلافة الأندلسية واحدة من أهم المراكز الثقافية في العالم الإسلامي. وفي وصف دورها الثقافي - منذ بداية الوجود العربي في الأندلس - يقول ابن بسام: " وحضرة قرطبة، منذ استفتحت الجزيرة، هي كانت منتهى الغاية، ومركز الرؤية، وأم القرى، وقرارة أهل الفضل والتقى، ووطن أولي العلم والتهى، وقلب الإقليم، ونبوع متفجر العلوم، وقبة الإسلام، وحضرة الإمام، وفار صوب العقول، وبستان ثمرة الخواطر، وبحر درر القرائح، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر، ونباتات التأليفات الرائقة، وصنفت التصنيفات الفائقة؛ والسبب في ذلك، وتبريز القوم قديماً وحديثاً هنالك على من سواهم، أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط إلا على أهل البحث والطلب لأنواع العلم والأدب ".^(١)

وقد واكب الشعر تلك النهضة الثقافية بوصفه واحداً من أهم روافدها، وبوصفه نبضاً لحياتها، إلا أن ما بين أيدينا من نصوص شعرية لا يكشف إلا عن أقل القليل من تلك النهضة الواسعة كما ظهرت في المصادر المختلفة، ولعل أكثر الشعر المتصل بالحياة الثقافية الأندلسية في العصر الأموي قد ضاع في جملة ما ضاع من مؤلفات ذلك العصر؛ إذ لا يعقل أن يغفل الشعر هذا الجانب الحضاري المهم، ولا سيما أن أكثر علماء ذلك العصر وفقهائه وقضائه وأدبائه وأهل الحكم والسياسة كانوا شعراء مشهورين.

(١) ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ١٩.

وفي هذا المبحث عرض لأبرز المعالم الثقافية التي ظهرت فيما وصل إلينا من قصائد ومقطوعات شعرية من شعر ذلك العصر.

أولاً - المناخ الثقافية السائدة:

حفظت لنا المصادر التراثية ملامح من الثقافة الرسمية في الأندلس، ولم تحفل بالإشارة إلى الثقافة الشعبية بسبب تحنّب المؤرّخين إيراد أخبار العوامّ في طيات مؤلفاتهم.

وقد حظي العلم والتعليم برعاية الأمراء والخلفاء واهتمامهم، ولما كانوا هم أنفسهم علماء، ولا سيما الأمير عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد، والخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر. وفي الإشادة بعلم المستنصر يقول المهتد^(١) مركز أيداع الرسائل الجامعية

بحر من العلم المؤيد بالتهى كالبحر يحرص ماؤه بالأجيل
سبق الأوائل آخراً في فضله فإذا المؤخر أول للأول

وكان للعلم والعلماء منزلة عظيمة في نفوس الخاصة والعامة، وفي فضل العلم يقول الوزير عبد الملك بن إدريس الجزيري^(٢):

(١) ابن حيان، المقتبس (الحجّي)، ص ٣١.

(٢) الحميدي، الجسوة، ص ٢٨١، وقد ورد البيتان الثاني والرابع في: الثعالب، البتمة، ج ٢، ص ١١٧ - ١١٨، كما ورد البيت الرابع والخامس في: الجراوي، الحماسة المغربية، ج ٢، ص ١٢٧٤، وهي فيه ستة عشر بيتاً، وورد البيت الثالث في: ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٣٢٢.

تسمو إلى ذي العلم أبصار الورى وتغض عن ذي الجهل ، لا بل تزدري
وبضمر الأقسام يبلغ أهلها ما ليس يُبلغ بالعتاق الضمر
والعلم ليس بنافع أربائه ما لم يفد عملاً وحسن تبصر
فاعمل بعلمك توق نفسك وزنها لا ترض بالتضييع وزن المحسر
سيان عندي علم من لم يستفد عملاً به وصلاة من لم يظهر

وينطلق الجزيري في بيان قيمة العلم وفضله في الأبيات السابقة من فلسفة العلم والعمل في الإسلام، فلا قيمة للعلم إذا بقي حبيس الصدور، ولا فضل للعمل به إذا لم ترافقه الحكمة، فخير الناس من تعلم العلم وعلمه، واستفاد منه وأفاد به.

وفي تفضيل العلم على المنصب يقول أبو بكر الزبيدي اللغوي مخاطباً صديقاً له^(١):

مكتبة الجامعة الأردنية

أبا مسلم، إن الفتي بحسن مركزه أعاج والمقول لئلا يلهو بالمراد
وليس ثياب السمرة تعني قلامة إذا كان مقصوراً على قصر النفس
وليس يفيد العلم والحلم والحجا أبا مسلم طول القعود على الكرسي

وكان المسجد الجامع في قرطبة والمساجد والمصليات في سائر مدن الأندلس المدرسة الأولى التي يتلقى فيها المتعلم علمه، وكان أبناء الأمراء والخلفاء وعلية القوم يتلقون علومهم في القصور، وفي عهد الخليفة الحكم المستنصر شهدت الأندلس أول شكل من أشكال المدارس الحكومية؛ إذ اتخذ المؤدبين لتعليم الفقراء والأيتام والضعفاء القرآن، وأجرى عليهم المرتبات، وأمر ببناء سبعة وعشرين مكتبة للتعليم في أرباض قرطبة، منها ثلاثة حوالي المسجد الجامع^(٢). وفي الإشادة بصنيع المستنصر هذا يقول ابن شحيص^(٣):

(١) الحميدي، الجذوة، ص ٤٦، الضبي، البغية، ج ١، ص ٩٤.

(٢) انظر: ابن عشاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٤٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٤٠.

وساحة المسجد الأعلى مكلفة مكاتباً للتيامي من نواحيها
لو مكنت سور القرآن من كلم نادئك يا خير تاليها وواعيها

ويبدو أن تلك المكاتب التي بناها الخليفة المستنصر لم تقتصر على أبناء العوام؛ إذ يروى أن ابناً
للأمير عبد العزيز أخي الخليفة المستنصر دخل الكتاب، وعندما كتب أول لوح بعثه عبد العزيز إلى
المستنصر، ومعه هذه الأبيات^(١):

هاك يا مولاي خطاً مطّعه في اللوح مطّعا
ابن سبع في سنيه لم يطبق للوح ضبطا
دُمّت يا مولاي حتى يولد ابن ابنك سبطا

جميع الحقوق محفوظة

وفهم من النص السابق أن الأولاد كانوا يذهبون إلى المكاتب في سن السابعة تقريباً، وأن تجويد
الخط كان من المهارات التي يدرّسون عليها منذ الصغر، وأنهم كانوا يستعملون ألواحاً للكتابة لا
أوراقاً؛ ولعل سبب ذلك أن اللوح يسهل محوه والكتابة عليه من حديد وتصويب ما يقع فيه من أخطاء،
إلا أن المصادر لم تحتفظ لنا بإشارات شعرية عن نظام التعليم ومنهاجه في تلك المكاتب^(٢)، مع أنها
حفلت بإشارات تاريخية كثيرة عن ذلك، كما وردت إشارات متعدّدة إلى الاهتمام بتعليم الذكور
والإناث على حدّ سواء، ومراتب المعلمين وأرزاقهم، وغير ذلك من أخبارهم ونواذرهم^(٣)، وقد بلغ من

^(١) الحميدى، الجنوة، ص ٢٨٩، الضيّ، البغية، ج ٢، ص ٥٠١، ابن الأثير، الخلة، ج ١، ص ٢٠٨، المقرئ، التفتح، ج ٣، ص ٥٨٤.

^(٢) عن تعليم الشّبية في الأندلس يقول ابن خلدون: "وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي
يراعونه في التعليم، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسهل ومنبع الدين والعلوم، جعلوه أصلاً في التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل
يخلطون في تعليمهم الولدان رواية الشعر في الغالب والقرآن، وأخذهم بقوانين العربية وحفظها، وتجويد الخط والكتاب. ولا تختص
عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها، إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشّبية، وقد شدا
بعض الشيء في العربية والشعر والبصر هما، ويرز في الخط والكتاب، وتعلّق بأذبال العلم في الجملة". ابن خلدون، المقدمة، مج ٢،
ص ١٠٣٩.

^(٣) لسمزيد عن نظام التعليم في الأندلس زمن بني أمية، انظر: عباس، إحسان، التعليم في الأندلس حتى نهاية القرن الرابع الهجري، في
كتاب الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٥٣ - ٧٤، انجم للكني لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمّان، ربيع الأول
١٤٠٧ هـ - تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦ م، العكش، إبراهيم علي، التربية والتعليم في الأندلس، الطبعة الأولى، دار الفحاء ودار عمّار،
عمّان، الأردن، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م.

حرص أولي الأمر على التعليم أنهم كانوا يسمحون بدخول الناس إلى العلماء في سجونهم لتلقي العلم، ومن ذلك أن أهل الطلب كانوا يدخلون إلى أحمد بن محمد بن فرج - صاحب كتاب الحدائق - في السجن، ويقرؤون عليه اللغة وغيرها.^(١)

وقد اتخذ المؤدبون من الرجال والنساء، ومن أشهر معلّّات ذلك العصر مريم بنت أبي يعقوب^(٢) التي كانت تعلّم النساء الأدب، وفي مدحها والإشادة بعلمها وحفظها يقول ابن المهند^(٣):

يا فردة الظرف في هذا الزمان وبا وحيدة العصر في الإخلاص والعمل
أشبهت مريم العذراء في ورع وفقت عتسماً في الأشعار والمثل

جميع الحقوق محفوظة

ولاستكمال الحلقة الثانية من تعليمهم ينتقل الصلّة من تلك المكتبات إلى المساجد، وكان العلم يقدم لهم عن طريق السماع، وكان لكل شيخ أو فقيه حلقة درس خاصّة في ركن من أركان المسجد، ومن طريف ما يروى من أخبار تلك الحلقات، فما نظم فيه الشعر ما ذكره ابن بشكوال^(٤) عن العالم الفقيه وهب بن مسرة حين كان يلقي درساً في المسجد الجامع بقرطبة، إذ وقع لفظ وكلام في المجلس بين أصحابه، وارتفع الصوت بينهم، وكان أحدهم يعرف بالبئرلي، فأنكر عليهم ذلك بعض القومة حتّى أخذ إليهم الدرة^(٥)، وكان أبو بكر يحيى بن هذيل الشاعر الأديب بالحضرة، فقال في ذلك على البديهة^(٦):

(١) ابن بشكوال، الصلّة، ج ١، ص ١١.

(٢) أديبة شاعرة حزلة، كانت تعلّم النساء الأدب، وتحتشم لدينها وفضلها، عثرت عمراً طويلاً. ترجمتها في: الحميدي، الجنوة، ص ٤١٢.

ابن بشكوال، الصلّة، ج ٣، ص ٩٩٥، الضبي، البغية، ج ٢، ص ٧٣٠.

(٣) المصادر السابقة. وهذا الشاعر هو ابن الشاعر طاهر بن عماد المهند البغدادي، وهو شاعر مشهور كان بعد الأربعمئة. ترجمته في:

الحميدي، الجنوة، ص ٤٠٧، الضبي، البغية، ج ٢، ص ٧٢١.

(٤) ابن بشكوال، الصلّة، ج ١، ص ٤٦.

(٥) الدرة: عصا يضرب بها. [ابن منظور، اللسان، ددر].

(٦) ابن بشكوال، الصلّة، ج ١، ص ٤٦.

إِنَّ وَهَّابَ بْنَ مَسْرُورٍ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ دُرَّةٌ
كَأَنَّ فِي مَحَلِّهِ الْيَوْمِ مَعْلَى الْعِلْمِ مَعْرَةٌ
إِذْ عَلَا الْقَسِيمُ رَأْسَ الْوَهَّابِ بُنْتُ رُلِّي [مِنْهُ]^(١) بِسُرَّةِ

وقد أثر التنوع العرقي والديني في الأندلس في تفرع روافد الثقافة الأندلسية؛ إذ جمعت على أرضها العربي والإسباني والبربري والصقلبي، وتمازجت تلك العناصر على اختلاف أديانها من إسلام ومسيحية ويهودية، إلا أنهم تأثروا جميعاً بالحضارة العربية الإسلامية، ولا سيما المستعربون الذين " تأثرت حياتهم الاجتماعية بالإسلام ونظمه تأثراً بعيداً، ومن مصاديق ذلك تلك الحقيقة التي يعرفها كل الناس، وهي أنهم كانوا يؤثرون استعمال لغة العرب وأسمائهم وأزيائهم، ويجتهدون في أن يأخذوا الطابع الإسلامي في كل مناحي حياتهم "^(٢)، ونقلوا ثقافة الأندلسيين إلى معاقلهم النصرانية في الشمال، وكان العديد من المستعربين يرحلون إلى قرطبة لينالوا حظاً من العلم فيها.^(٣)

جميع الحقوق محفوظة

ولكن اليهود - في العصر الأموي - كان هم شأن آخر؛ إذ كانت إسبانيا خلال العصور الوسطى مركز الدراسات العبرية، وقد لعبت ثقافة يهود إسبانيا من مواردها الثقافية الإسلامية بصورة مباشرة، وقد بدأ حركة بحث الدراسات التلمودية في قرطبة أبو يوسف حسداي بن إسحاق بن عزرا ابن شبروط (٣٣٣هـ/٩٤٥م - ٣٥٩هـ/٩٧٠م) الوزير المعروف لعبد الرحمن الناصر، بما بسط من العون لموسى بن حانوك ومدرسته، فلم تلبث أن أُنجبت من أعلام الأدب العبري رجالاً مثل مناحيم بن سروق الطرطوشي ودناش بن ليراط (أوليراط) ممن افتتحوا عصر الازدهار للشعر العبري الحديث، وقد اقتفى أولئك الشعراء آثار الأدب العربي وتمثلوا صورته، وإن كان أساس لغتهم ولسانهم عبريًّا.^(٤)

(١) زيادة يقنضها الوزن.

(٢) بالنسبة، أنغل جونتالت، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٤٨٥، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.

(٣) للعزيد عن أثر الحضارة الأندلسية في إسبانيا للمسيحية، انظر: بروفيسال، لبني، حضارة العرب في الأندلس، ص ٧٧ - ١١١، ترجمة:

ذوقان فرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

(٤) بالنسبة، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٤٨٨ - ٤٨٩.

ومع كل التنوع الثقافي الذي شهدته الأندلس في العصر الأموي، إلا أن ما ساد في المصادر المختلفة يتحدث عن ثقافة واحدة هي الثقافة العربية الإسلامية في إطارها العام، ومع أن الأمير عبد الرحمن الأوسط زرع بذرة النزعة الثقافية الأندلسية في بداية القرن الثالث الهجري إلا أن الأندلس لم تجس ثمارها ولم تتمتع باستقلالها الثقافي إلا في القرن الرابع في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر من بعده.

ولم يكتف الأندلسيون بما حمله الفاتحون الأوائل من معارف بسيطة إلى هذه الأرض الجديدة، أو بما كان ينقله الحجاج والوفود والمرتلون إليهم، إنما سعوا للوصول إلى مراكز العلم في المشرق بأنفسهم، وتحملوا الغربة ومرارة البعد عن أهلهم حتى ينهلوا من المنبع الأصيل ما شاء لهم من العلم. وفي ذكر لوعة البعد والفراق التي يلاقيها كل طالب علم بعيد عن أهله يقول ابن الفرضي^(١):

أَعْلَلُ نَفْسِي بِالْمَنَى فِي لِقَائِكُمْ وَأَسْتَسْهِلُ الْبِرَّ الَّذِي جُبْتُ وَالْبَحْرَا
وَيُؤْنِسُنِي طَيُّ الْمَرَاكِحِ دُونَكُمْ أَرْوَحُ عَلَى أَرْضٍ وَأَقْدُو عَلَى أُخْرَى
وَتَأَلَّلَهُ مَا فَارَقْتُكُمْ عَنْ قَلْبِي لَكُمُ الْبِدَاعُ وَلَكِنَّهَا الْأَقْدَارُ تُجْزِي كَمَا تُجْزِي

وفي وصف رحلته إلى المشرق يقول محمد بن عبد السلام الحشني^(٢):

كَأَن لَمْ يَكُنْ بَيِّنٌ وَلَمْ تَكُ فَرَقَةٌ إِذَا كَانَ مِنْ بَعْدِ الْفِرَاقِ تَلَاقٌ^(٣)

(١) الحميدي، الجذوة، ص ٢٥٦، ابن خاقان، المطمح، ص ٢٥٦، ابن هشام، الذخيرة، مج ١، ص ٣٥٦، ابن بشكوال، الصلة، ج ١، ص ٣٩٥، الضبي، الجذوة، ج ٢، ص ٤٣٥، ابن سعيد، للغرب، ج ١، ص ١٠٤.

(٢) في المطمح: عنكم.

(٣) ابن عبد البر القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر الترمزي القرطبي (ت ٤٦٣ هـ)، بهجة المجالس وأنس المجالس وشهد الذاهن والفاجس، ج ١، ص ٢٥٥-٢٥٦، تحقيق: محمد مرسي الخولي، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢ م، ابن حيان، اللقبس (مكي)، ص ٢٥٧، الحميدي، الجذوة، ص ٦٨-٦٩، الضبي، البغية، ج ١، ص ١٣٧. والحشني هذا كان فصيح اللسان جزل المنطق منقبضاً عن السلطان، ت (٢٨٦ هـ). ترجمته في: ابن الفرضي، تاريخ العلماء بالأندلس، ج ٢، ص ١٦، ابن حيان، اللقبس (مكي)، ص ٢٥٠، الحميدي، الجذوة، ص ٦٨، الضبي، البغية، ج ١، ص ١٣٦.

(٤) في البغية: تلاقي.

وفتحت الأندلس - ولا سيما قرطبة - الباب على مصراعيه للعلماء الوافدين من المشرق، وإذا كان دخول هؤلاء الأساتذة المشاركة إلى الأندلس في القرنين الثاني والثالث الهجريين كان من مقتضيات الحياة الثقافية، فإن استقدامهم في القرن الرابع " كان ضرباً من ضروب الترف والمباهاة لا حاجة ماسة ضرورية، حتى تأثير أبي عليّ القالي في الأندلس قد بولغ فيه إلى حدّ كبير، فالواقع أن معظم ما أتى به القالي من كتب كان مما يعرفه الأندلسيون من قبل، إذ أتى به من المشرق قبل ذلك علماء أندلسيون، إلا أنه لم يكن هناك بأس على أية حال في أن تفاخر قرطبة أتراها بأن هناك من علماء الشرق من يتخذونها ملاذاً ومستقراً " ^(١).

لقد كانت الثقافة الأندلسية في العصر الأموي ثقافة ذات شقين: " الجانب التقليدي الصارم الذي جاء بدافع حبّ التفوق على المشاركة، ثم الجانب التحرري المنطلق الذي جاء من البيئة الثابتة والأصل المولّد والمجتمع المختلط " ^(٢).

جميع الحقوق محفوظة

ومع بروز النزعة الأندلسية في أواخر القرن الرابع الهجري إلا أن تأثر الأندلسيين بالثقافة المشرقية ظل أكثر سطوعاً مما دفع ابن خلدون أن يحذر الأندلسيين أندلسية إلى أن يخاطب عبد الرحمن ابن بشر ^(٣) قاضي الجماعة بقرطبة شاكياً ^(٤):

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عبي أن مطلععي الغرب
ولو أتي في جانب الشرق طالع لجذ على ما ضاع من ذكرى النهب
ولي نحو أكناف العراق صباة ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يملو التأسف والكرب

^(١) مكّي، مقتمة ديوان ابن دراج، ص ٣٥.

^(٢) هيكل، أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص ٥٤، الطبعة العاشرة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦ م.

^(٣) أبو المطرف عبد الرحمن بن بشر المعروف بابن الخصار، ولأه علي بن حمود القضاء، ت (٤٢٢ هـ). ترجمته في: الحميدي، الجلولة، ص ٢٧٠، ابن بشكوال، الصلة، ج ١، ص ٣١٩، الضي، البقية، ج ٢، ص ٤٩٤، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٥٨، وغيرها.

^(٤) ابن حزم، ديوان الإمام ابن حزم الظاهري، ص ٧٧-٧٨، جمع وتحقيق ودراسة: صبحي رشاد عبد الكريم، الطبعة الأولى، دار الصحابة للتراث، طنطا، ج.م.ع.، ١٤١٠ هـ، ١٩٩٠ م.

فكم قائل أغفلته وهو حاضر
هناك يدري أن للبعد قصة
أطل ما عنه تجيء به الكتب
وأن كساد العلم أفته القرب
له، ودنو السمر من دارهم ذنب
فيا عجباً من غاب عنهم تشوفوا

ومع أن العالم عند أهل الأندلس "معظم من الخاصة والعامة، يشار إليه وبحال عليه، ويتنبه قدره وذكره عند الناس، ويكرم في حوار أو ابتاع حاجة، وما أشبه ذلك"^(١)، إلا أن حركات التجديد في الثقافة الأندلسية - شأنها شأن كل حركة تجديد في كل زمان ومكان - لم تكن دروبها موطأة. وفي الإشارة إلى معاناة المحدثين يقول أبو عامر بن شهيد^(٢):

هوت أنجم العلم إلا أقلها
وأصبح في خلف إذا ما لمعهم
وما طاب في هذلي البرية آخر
أرى حمرأ^(٣) فوق الصواهل
وربت كتاب إذا قيل
وغيبن بما يحظى به كل عاقلي
جميع الحقوق محفوظة
إذا لم ينج
محكمة الجامعة الأردنية
فابكم يعني
الرسائل الجامعية
ل: زوروا الهدا
من تأليفهم صدور الرسائل

ثانياً - العلوم النظرية :

لاقت العلوم الدينية واللغوية اهتماماً منذ بداية الوجود العربي في الأندلس، وتعزز الاهتمام بعلم التاريخ تدريجياً بعد أن استقر الأمر للأمويين في تلك الأرض البعيدة، لكن علم الفلسفة لم يلق قبول

^(١) المقرئ، التفتح، ج ١، ص ٢٢٠.

^(٢) ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ١٦٤، ديب، ديوان ابن شهيد، ص ١١١ - ١١٢.

^(٣) حمرأ: جمع حمار، ويقصد فرسان كالخمر.

^(٤) زوروا: التزوير لإصلاح الشيء. [ابن منظور، اللسان، زور].

العوام على امتداد ذلك العصر، ومع ذلك فإن الصّفوة من مثقفي الأندلس لم يألوا جهداً في غرس بذرة هذا العلم، وإن تأخر جني ثماره طويلاً.

ومع أن الأندلس شهدت ازدهاراً حقيقياً في العلوم الشرعية إلا أن ما بين أيدينا من نصوص شعرية لا يكشف إلا عن السّتر اليسير من هذه العلوم على أهميتها ورسوخ قدمها. وفي اهتمام الأندلسيين بعلوم الشريعة المختلفة يقول المقرئ: " وقراءة القرآن بالسّبع ورواية العلم عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم، وسمة الفقيه عندهم حليلة ".^(١)

وقد كان مذهب مالك هو المذهب الرسمي للدولة، وكان أهل الأندلس قبله على مذهب الأوزاعي^(٢)، وقد اجتهد الدارسون في تعليل قبول الأندلسيين لمذهب مالك ورفضهم لما سواه من المذاهب، " على أن من أهم العوامل التي جعلت الأندلسيين على الإعجاب بالمذهب المالكي والتمسك به والتعصب له موافقته لطبيعتهم العقلية، فهو مذهب يعتمد على النص، ولا يفسح المجال كثيراً للعقل، وهو مذهب يكره التفريع والتفلسف والمطعن، ولما أشبه ذلك إنما شاع في المذهب الحنفي مثلاً، ومن هنا وافق المذهب المالكي طبيعة الأندلسيين التافريين من التفريع، المفضلين للتفلسف، الكارهين للمنطقة ".^(٣) وفي مدح الإمام مالك وفضل الأخذ بمذهبه يقول طالب بن عصمة الأندلسي^(٤):

إمامُ الورى - في الهدْيِ والسَّمْتِ - مالكُ	وفي الفقه والآثار ما إن يُداركُ
فأراؤه في الفقه يسقط نورها	وتسهُلُ في إيضاحهنّ المسالكُ
وآثاره يهدي العبادَ ومبضها	لعمري كما تهدي النجومُ الشوابكُ

(١) المقرئ، التفتح، ج ١، ص ٢٢١.

(٢) للتصدر السابق، ج ٣، ص ٢٣٠.

(٣) هيكل، أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص ٨٠، الطبعة العاشرة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦ م.

(٤) ابن الفرضي، تاريخ العلماء، ج ١، ص ٢٤٥ - ٢٤٦. وذكر ابن الفرضي في ترجمة الشاعر أنه من الرواة عن مالك بن أنس.

ودخل علم الحديث إلى الأندلس مع أصول الفقه، وأدخل العلماء الأندلسيون الذين كانت لهم رحلات علمية إلى المشرق - مثل محمد بن وضاح^(١) وبقي بن مخلد^(٢) - كتب الفقه والحديث المختلفة. وفي فضل كتب الحديث والحث على طلب هذا العلم يقول ابن حزم^(٣):

أناست من كتب الحديث وما	أتى عن المصطفى فينا من الدين
لمسلم والبخاري اللذين هما	شدا غري الدين في بل وتبين
أولى بأحد من روى عنهما	من كل قول أتى من رأي سحنون
هيأت رأيي من وحي خالقنا	قياس هذا بذ رأي المخاضين
يا من هدي بها اجعلني كمثلهما	في نصر دينك محضاً غير مفتون
لا تقطعن لي رسل العلم رشي دونهما	يوم الحساب وفي وضع الموازين

وفي فضل رجال الحديث يقول أبو عمرو عثمان بن سعيد المقرئ^(٤):

نور البلاد وزين الـ	أنام صخب الحديث
لولا هم ما علمنا	ضلال كل خبيث
ولا عرفنا صحيحاً	من السقيم الرثيث
فحنن فيمنا لديهم	نسعى بك كد حثيث
لكي نفر بذكر	من ربنا ميثوث

(١) محمد بن وضاح بن نويه أبو عبد الله، من الرواة الكثيرين والأئمة المشهورين، طوَّف البلاد في طلب العلم، ت (٢٨٦هـ). ترجمته في: الحميدي، الجذوة، ص ٩٣، الضي، البيعة، ج ١، ص ١٧٣.

(٢) بقي بن مخلد أبو عبد الرحمن، من حفاظ الحديث، وأئمة الدين، له رحلة إلى المشرق، وكتب للمصنفات الكبار، ت (٢٧٣) أو (٢٧٧) هـ. ترجمته في: الحميدي، الجذوة، ص ١٧٧، ابن بشكوال، الصلة، ج ١، ص ١٦٥، الضي، البيعة، ج ١، ص ٣٠١.

(٣) ابن حزم، الديوان، ص ٦٣-٦٤.

(٤) ابن بشكوال، الصلة، ج ١، ص ٢٧٤، وذكر ابن بشكوال في ترجمة الشاعر (ج ٢، ص ٥٩٢) أنه من أهل قرطبة، وله رحلة إلى المشرق، وألف في علم القراءات، ت (٤٤٤هـ).

ولم تقل منزلة الفقهاء في ذلك العصر عن منزلة رجال الحديث، وفي مدح أحد الفقهاء
وبيان فضله وعلمه يقول محمد بن عبد الرحمن التميمي^(١):

لَا عِلْمَ إِلَّا وَأَنْتَ فِيهِ مَاضٍ عَلَى وَاضِحِ السَّبِيلِ
لَنْ غَدَا الْمَرْءُ مُسْتَدِلًّا فَأَنْتَ لِلْمَرْءِ كَالذَّلِيلِ

وكانت الناس تجلّ العالم الفقيه لعلمه، فإذا زلّ أو أخطأ تناولته الألسن بالهجاء والتفريغ، ومما
يسروى في ذلك أن عبید الله بن يحيى بن يحيى^(٢) حين سئل عن الثغامة^(٣) - وهو نبت أبيض - فسرها
بأنها طير الماء، فقال الوليد بن عبد الرحمن يهجو^(٤):

ذَهَبَ الزَّمَانُ بِصَفْوَةِ الْعُلَمَاءِ وَبَقِيَ فِي ظِلِّهِمْ
وَأَتَى طَغَامٌ^(٥) رُغِعَ^(٦) مِنْ بَعْدِهِمْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُ
فَإِذَا سَأَلْتُ عَنْ الطَّغَامِ^(٧) أَشَدُّهُمْ^(٨) رَأْيًا، يُفْسِرُهُ بِطَرِيقِ السَّمَاءِ
مَرْكَزُ أَيْدَاعِ الرِّسَالِ الْجَامِعِيَّةِ

وقد أخذ فقهاء المالكية موقفاً صارماً من المذاهب الفقهية الأخرى، ويروى أن بقي بن مخلد
لما أدخل كتاب أبي بكر بن شيبه إلى الأندلس، ثار أهل الرأي عليه، ومنعوا العامة من قراءته، فلما

(١) الحميدي، الجملوة، ص ٦٧، ابن بشكوال، الخلعة، ج ٢، ص ٧٦٩، البغية، ج ١، ص ١٣٣. وقال عنه الحميدي في ترجمته: أديب
شاعر.

(٢) من أصحاب مالك، له رحلة إلى العراق، ت (٢٧٩هـ). ترجمته في: الحميدي، الجملوة، ص ٢٦٨.

(٣) في الخلعة: التعامة.

(٤) ابن حبان، للقتبس (مكي)، ص ١٧٥، ابن الأثير، الخلعة، ج ١، ص ١٦٢. والشاعر هو الوليد بن عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانم
عند ابن حبان، تولى خطبتي الوزارة والمدينة للأمير عماد، وكان كاتباً أديباً مراسلاً بليغاً. ترجمته في: ابن حبان، للقتبس (مكي)، ص ١٧٤.
أما ابن الأثير فيوردها في كتابه منسوبة لابنه الوليد وذكر في ترجمته ما ذكره ابن حبان في ترجمة أبيه، ولعل أحدهما أخطأ في نسبة هذه
الآيات لصاحبها.

(٥) الطغام: أراذل الناس وأوغادهم. [ابن منظور، اللسان، طغم].

(٦) في الخلعة: رقع.

(٧) في المصدر السابق: التعام.

(٨) في المصدر السابق: أشدهم.

بلغ الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط الأمر، بعث في طلب بقيّ والفقهاء المعارضين للكتاب، واستحضر الكتاب كلّهُ، وتصفّحه حتّى أتى على آخره، فلمّا انتهى من قراءته، قال لخازن الكتب: " هذا كتاب لا تستغني خزانتنا عنه، فانظر في نسخة لنا"، ثمّ طلب من بقيّ أن ينشر علمه على الناس، ونهى الفقهاء عن التعرّض له.^(١)

ولكنّ الأمراء والخلفاء الأمويين في الأندلس اتخذوا موقفاً صارماً من بعض المذاهب الفقهيّة الأخرى التي تهدّد ملكهم، ويروى أنّه لما ظهرت بالجزيرة خارجيّة تشبه مذهبهم مذهب الخوارج زمن عليّ ومعاوية، " كتب عباس بن ناصح^(٢) إلى الحكم شعراً يغري بهم، ويحضّ على إنكار ما أحدثوا، وفي الشّعر:

صِرْ بِالْأَقِيلِ^(٣) الَّذِي رَتَّبُوا لِفَتَنِهِمْ مِنْ قَوْلٍ أَنْ يُرْجَى لَوْهُ نَحُونَا جِدْعَا

فقال الحكم: أي والله نفع، وخرج بنفسه حتّى أتى الجزيرة، ونزل على باهما، وحمل السيّف على أكثر أهلها.^(٤)

ولكنّ مثل تلك الحوادث لم تمنع صفوة من العلماء من الأخذ بمذاهب أخرى، بل ومحاولة نشرها بين الناس، ومنهم ابن حزم الذي يقول مبيّناً منهجه في نشر العلم^(٥):

(١) انظر: الحميدي، الجذوة، ص ١١، الضيّ، البغية، ج ١، ص ٣٠١ ابن سعيد، للغرب، ج ١، ص ٥٢، للقرّيّ، التفتح، ج ١، ص ٥١٩.

(٢) عباس بن ناصح الثّقفيّ الجزيريّ، استقصاه الحكم بن هشام على شلّونة والجزيرة، وكان له حظّ من الفقه والرّواية، إلّا أنّ شهرته في الشّعر غلبت، توفيّ في أيام الحكم بن هشام. ترجمته في: ابن الفرضيّ، تاريخ علماء الأندلس، ج ١، ص ٢٤٥، ابن سعيد، للغرب، ج ١، ص ٣٢٤، للقرّيّ، التفتح، ج ١، ص ٦٣٣، وغيرها.

(٣) الأقبل: صغار الإبل من بنات المحاض ونحوها. [ابن منظور، اللسان، أفل].

(٤) ابن القوطيّة، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٠١، تحقيق: عبد الله أنيس الطّباع، مراجعة: عمر فاروق الطّباع، الطّبعة الأولى، مؤسسة المعارف للطّباعة والنّشر، بيروت، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

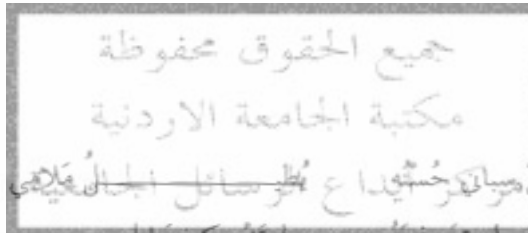
(٥) الحميدي، الجذوة، ص ٣١٠، ابن بشكوال، الصّلة، ج ٢، ص ٦٠٦، الضيّ، البغية، ج ٢، ص ٥٤٥. كما وردت في القسم المجموع من ديوان ابن حزم، ص ٩٥.

مَنْ _____ ابني من الدنيا علومُ أبثها وأنش _____ دُها في كلِّ بادٍ وحاضرٍ ^(١)
دعاءً إلى القس _____ رآنٍ والسَّننِ التي تناسى ^(٢) رَج _____ ال ذكرها في المحاضرِ

وقد كان ابن حزم نفسه شافعيًا، قبل أن يعدل إلى مذهب الظاهري، وفي شافعيته وموقفه من المعتزلة يقول أبو عامر بن شهيد ^(٣):

فَسَ _____ ل من التأويل فيها مهتداً وأخو شافعياتٍ ك _____ رتم العناصرِ
لمع _____ تزلِّي الرأي ناءٍ عن الهدى بعيد المرامي مُستَميت البصائرِ

ولمّا تحوّل ابن حزم إلى مذهب الظاهر، بدا أثر هذا المذهب واضحاً في شعره، وفي إعلانه لظاهريته يقول ^(٤):



وذي عَ _____ ذل في من سائر حُسُودٍ ع _____ ل في الهوى ويقولُ
أفي حُس _____ ون وجهٍ لاح، لم تر غيبةً ولم تدرك كيف الجس _____ م، أنت قتيلُ
فقلتُ له: أسرف _____ ت في اللوم ظالماً وعندي ردٌّ - لو أردتَ - طوبى _____ ل
ألم تر أنّي ظاهر _____ ري، وأني على ما بدا حتى يق _____ وم دليلُ

وتبدلوا الكثير من تصوّرات ابن حزم عن نظرية الحبّ متأثرة بعدد من المصادر الفلسفية المشرقية ^(٥)، ولا سيّما ما أورده من شعره في "طوق الحمامة"، ومن القصائد التي بدا فيها متأثراً

(١) في الصلّة والبيعة: مناي بدلا من مناي، وفي الديوان، وأنشدها بدلا من أنشدها.

(٢) في الصلّة: تناسى.

(٣) ابن بسّام، الذّخيرة، مج ١، ص ١٨٠، ديب، ديوان ابن شهيد، ص ٧٩. وللمزيد عن مواقف ابن حزم من المعتزلة، انظر: ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والتحلل، ج ٤، ص ١٩٢-٢٠٤، دار الفكر، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

(٤) ابن بسّام، الذّخيرة، مج ١، ص ١٠٧-١٠٨، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٣٥٦، المقرئ، التفحّ، ج ٢، ص ٨٢، كما وردت في القسم المجموع من ديوان ابن حزم، ص ٩٧.

(٥) انظر: عباس، مقدّمة طوق الحمامة، ص ٣١-٣٤.

بالفلسفة والمنطق قصيدته التي مطلعها^(١):

لَكَ الْحَمْدُ يَا رَبُّ الشُّكْرِ تَمَّ لَكَ الْحَمْدُ مَا بَاحَ الشُّكْرِ قَمَّ

وتبلغ هذه القصيدة ثمانين بيتاً، وقد نظمها ابن حزم في إثبات حدوث العالم، وصحة نبوة محمد
 ﷺ، ومنها قوله^(٢):

وَمَا قَالَ فِي صَحَّةِ نَبْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

بصدق النبوة والمبتدي	لخلق الجمل	يع ومُنشئ النعم
وأرسى	لمرسله بالهدى	على ما قضاه وما قد حتم
محمد المصطفي	في الكتاب	به أنبياء الهدى حتم
فشق لنا القمر المستنير	بحضرة راض	ين أو من زعم

(١) ابن حزم، الذیوان، ص ٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٨.

(7) المصدر السابق، ص ٤٠.

وتكاد تكون أغلب آراء ابن حزم قضايا يحكمها منطق العقل، وتتطلب منه استدلالاً، وقد بدت بنور شعر التصوف تظهر في شعره، بالمفهوم المعرفي للتصوف؛ إذ دار الشعر الأندلسي في العصر الأموي قبل ابن حزم في إطار قصائد الزهد والممخصات، ومن المقطوعات الشعرية التي تبدو فيها ملامح التصوف قوله^(١):

أمنَ عالمِ الأممِ لـاكَ أنتَ أمِ إنسي	أبن لي ففـقـدُ أزرى بتمييزي العي
أرى هـيـهـة إنسيـة غيرَ أَنه	إذا أعمـل التفكـير فالجرمُ علوي
تبارك من سوى مذهب خَلقه	على أنك التور الأنبيـة قـو الطـبيـعي
ولا شـك عندك أنك الروح ساقه	إلينا مثـال في النفوس اتصالي
عَدَمنا دليـلاً في حدوثك شاهداً	تقيـسُ عليه غيرَ أنك مرئي
ولولا وقـوع العين في الكون لم نُقل	سوى أنك العقـل الرَفيع الحقيقـي

جميع الحقوق محفوظة

ومن يتأمل الأبيات السابقة يجد أنه "ابن حزم الظاهري" لا يتشدد قد بلغ مشارف التصوف الباطني، لكن عن طريق التأمل الفكري. وهذا الجانب متأثر بطريقة أبي إسحاق النظام، معجب بها".^(٢)

أما علوم العربية من لغة ونحو وصرف وعروض، فمما تحفظه لنا المصادر قصيدة للقلظاط^(٣) يجيب فيها عن بعض مسائل الصرف، ومنها قوله^(٤):

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١٠٠.

(٢) عباس، مقدمة طوق الحمامة، ص ٧٩.

(٣) القلظاط محمد بن يحيى التحويتي، شاعر مشهور، كان في أيام التاصر أو الحكم المستنصر. ترجمته في: الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، طبقات التحويتين واللغويين، ص ٣٠٤، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، طبعه ونشره: محمد الحائلي، مصر، ١٣٧٣هـ، ١٩٥٤م، الحميدي، الجزء، ص ٩٨، الضبي، البغية، ج ١، ص ١٨٦.

(٤) الزبيدي، طبقات التحويتين واللغويين، ص ٣٠٤.

ومن أشهر ما نظم عن تاريخ الدولة الأموية في الأندلس "الأرجوزة التاريخية" لابن عبد ربه،
التي نظمها في مغازي الخليفة عبد الرحمن الناصر ابتداء من سنة (٣٠٠هـ) إلى سنة (٣٢٢هـ)^(١)،
ويقول في أحداث سنة (٣١٩هـ)^(٢):

ثم أتتني ردفاً له دُرِّيُّ (٣) في عسكرٍ قضاؤه مقضي
فحاصروها عام تسع عشرة بكلِّ محبٍ وكِ القوي ذي مُرَّة
ثم أتاهم بعدُ بالرجال فقاتلوهم أبلَّ غِغَ القتالِ

كما نظم ابن حزم قصيدة طويلة بلغت مئة وسبعة وثلاثين بيتاً يرّد فيها على قصيدة نظمها
كاتب مرتدّ عن السلام في بلاط نقفور ملك التّصاري ينال فيها من الإسلام والمسلمين، ويذكر ابن
حزم في قصيدته تلك انتصارات المسلمين المشهوددة على التّصاري منذ عهد الخلفاء الراشدين، ومنها
قوله^(٤):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

ألم ننتزع منك ممرّاً بآيدٍ نوقرةٍ (٥) الرِّسالة للجامعة
ومصرَ وأرضَ القـُـرى بآسرها وأندلساً قسراً بضربِ الجمـاحِ
ألم تنتصف منكم على ضعفِ حالها صقليةً في بحـرٍها المتلاطمِ
أحلتْ بقسطِ طينينة كلِّ نكبة وسامتكم سوءَ العذابِ الملائمِ
مشاهدُ تقدساتِك مـ وبوئها لنا وبأيديـنا على رَغَمِ راغِمِ

(١) ابن عبد ربه، العقد، ج ٤، ص ٤٦٠ - ٤٨٣، الذّاية، ديوان ابن عبد ربه، ص ١٨١ - ٢١٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٨٠، المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(٣) هو دري بن عبد الرحمن، أحد أهمّ قوافد الخليفة عبد الرحمن الناصر. أخباره في صفحات متفرقة من كتاب القفص لابن
حيّان (شاليتا).

(٤) ابن حزم، الديوان، ص ٥٣ - ٥٤.

ثالثاً - العلوم الدقيقة :

شهدت الأندلس - منذ عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط - اهتماماً واسعاً بالعلوم الدقيقة، مثل: الحساب، والجبر، والهندسة، والفيزياء، والكيمياء، والطب، والفلك، والميكانيكا. ولملت أسماء العديد من العلماء على امتداد العصر الأموي كله^(١)، إلا أن الشعر بدا غير منشغل بها عموماً، وكل ما تحفظه المصادر من نصوص شعرية إما أنها صدرت عن علماء شعراء دافعوا عن إنجازاتهم وابتكاراتهم العلمية، أو شعراء غير علماء هاجموا علم هؤلاء العلماء وإنجازاتهم وابتكاراتهم. ولعل السبب في هذا العداء الخفي أحياناً والمعلن أحياناً أخرى بين الطرفين أن كلا منهما يريد أن ينال الخطوة والمكانة عند الأمراء والخلفاء، ولعلّه استقرّ في الذاكرة الجمعية في ذلك المجتمع أن العلوم والفنون لا تضمن لنفسها الاستمرار والاستقرار إلا إذا حظيت برعاية السلطة واهتمامها وإعجابها وتقديرها.

وقد اقتضت الإشارات الشعرية - فيما أُطْلِعَ عليه من مصادر - على بعض العلوم الدقيقة، وهي: الطب، والفلك الذي اختلط في العصور الوسطى بالتنجيم، والميكانيكا من خلال الآلات التي اخترعها عباس بن فرناس، وبعض الإشارات العابرة إلى علم الكيمياء. مركز أيداع الرسائل الجامعية

أما علم الفلك الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالتنجيم في الكثير من النصوص الشعرية، فإنه لم يحظَ بالقبول بين العامة، وكانوا يطلقون على المشتغل به صفة زنديق، ويقيّدون عليه أنفاسه، "فإن زلّ في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة"^(٢)، وقيل إن المنصور بن أبي عامر أحرق كتب التنجيم كما أحرق كتب الفلسفة أول غرضه للحكم^(٣)، مع أن الشعراء الذين أقاموا في بلاطه أكثروا من ذكر الفلك والتجوم في شعرهم كما سنلاحظ، وقد ذكر الحجاري أن المنصور كان "غير حالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن"^(٤).

(١) انظر: صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢هـ)، كتاب طبقات الأمم، ص ٦٤ - ٨٧، نشره: الأب لويس شيخو اليسوعي، للطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢م، للقرى، التفح، ج ١، ص ٢٢١.

(٢) للقرى، التفح، ج ١، ص ٢٢١.

(٣) صاعد الأندلسي، كتاب طبقات الأمم، ص ٦٦، للقرى، التفح، ج ١، ص ٢٢١.

(٤) للقرى، التفح، ج ١، ص ٢٢١.

ولعلَّ السبب في نفور العامة من هذا العلم ما استقرَّ في أذهانهم من مسلّمات العقيدة الإسلامية والإيمان بأنَّ الغيب لا يطلع عليه سوى الله تعالى، فجاء هذا الرّفْض لكلِّ ما جاء به المنجّمون وعلماء الفلك دون أن يفرّقوا بين القولة الظنّية والحقيقة العلمية، أمّا قبول بعض الحكّام والخاصّة لهم ولأقوالهم فراجع إلى ثقافتهم وسعة أفقهم، مع ما قد يخفى في نفوس بعضهم من قلق حول مصيرهم ومآل حكمهم، ولا سيّما في ظلِّ ما شهدته ذلك العصر - على امتداده - من ثورات وقلّقل وفتن.

ولكن عند تجاوز التنجيم إلى علم الفلك في العصر الأمويّ بالأندلس، فإنَّ الشّعْر قد سجّل لبعض المكتشفات والآراء الفلكيّة التي قال بها العلماء المسلمون في ذلك العصر، وقد سبقوا إلى القول بكروية الأرض ووجودها كقطعة في هذا الكون الهائل، وأثر اختلاف المواقع الجغرافيّة في اختلاف مناخات الأقاليم منذ القرن الثالث الهجريّ.

ومن أشهر علماء الفلك الأندلسيّين الذين تحدّثوا بثلث الآراء أبو عبيدة البليسي^(١)، ونقف على آرائه في الفلك من خلال أبيات لابن عبد ربه^(٢) فيها لهم فيها أقواله ونظريّاته وفيها يقول^(٣):

مركز ايداع الرسائل الجامعية

أبا عبيدة والمسؤول عن خير	يحكم به إلا سـوالا للذي سأل
أبيات إلا شذوذا عن جماعتنا	ولم يُصِبْ رأي من أرحا ^(٤) ولا اعـتـزلا
كذلك القبر لـة الأولى مبدلة	وقد آيت فما تبغـي بها بدلا
زعمت بهـرام أو بيدعت يرزقنا	لا بل عطـارد أو برخيـس ^(٥) أو زحلا

(١) أبو عبيدة مسلم بن أحمد البليسي المعروف بصاحب القبلة، وكان صاحب فقه وحديث، (ت ٢٩٥هـ). ترجمته في: صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٦٤.

(٢) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٦٤ - ٦٥، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ٢، ص ١٢٦، الذّاية، ديوان ابن عبد ربه، ص ١٣٨ - ١٣٩، (نقلاً عن ابن الفرضي).

(٣) في طبقات الأمم : أرحي، ولكن السيّاق يدلّ على أنّ الحديث عن الإرجاء.

(٤) برخيـس : نجم أو هو المشتري. [الذّاية، ديوان ابن عبد ربه، الحاشية، ١٣٨].

وقلت إنَّ جميعَ الخلقِ في فلَّك^(١) والأرضُ كُـورِيَّةٌ حَفَّ السَّماءُ بها
صيفُ الجنوبِ شتاءٌ للشَّمالِ بها
فإنَّ كانونَ في صنعِها وقرطبة
هذا الدَّلِيلُ ولا قولُ عَزَّوَت^(٢) به
بهم يحيطُ ، وفيهم يقسمُ الأَجْلا
فوقاً وتحتاً وصارتُ نقطةً مثلاً^(٣)
قد صارَ بينهما هـُـذا وذا دُولاً^(٤)
برْدٌ وأيلولُ يُذكِرُ فيهما الشُّعْلا
من القولِ وانينُ يُجْلي القولَ والعَمَلا

كما حاول ابن حزم إثبات كروية الأرض من خلال النصِّ القرآني^(٥).

وتبدو بوادر "علم الأبراج" والقول بتأثيرها في تكوين الشخصية موجودة منذ ذلك العصر، ومن الإشارات الشعرية إلى ذلك قول الغزال^(٦):

يُعرِّفُ عقلُ المرءِ في أربعِ حَبَبٍ الجَمِيعَ أوَّلُها والذِّمَّةُ حَرَكَ
ودورُ عيـ... وَالْفَاطِمَةُ دَاعٍ بَعَثَ عَلَيْهَا فِي الْجَمَاعَةِ دَوْرُ الْفَلَكَ

وقد أكثر الشعراء من ذكر أسماء الكواكب السيارة ووصف التحوم في قصائدهم ممتزجة بالمدح أو الفخر أو الغزل أو الخمريات تارة، ومستقلة في مقطوعات شعرية تارة أخرى، ومن ذلك قول أبي عامر بن شهيد في سياق الفخر^(٧):

(١) في طبقات الأمم : ملك.

(٢) في تاريخ العلماء: قد صار بينهما هذا وذا دولا.

(٣) لم يرد هذا البيت في تاريخ العلماء .

(٤) في المصدر السابق : غررت.

(٥) ابن حزم، الفصل ، ج ٢، ص ٩٧.

(٦) ابن عبد البر القرطبي، مهجة المجالس، ج ٢، ص ٤٨، الذاية، ديوان الغزال، ص ٩٢.

(٧) التتالي، البيتة، ج ٢، ص ٤٩، ديب، ديوان ابن شهيد، ص ١١٢.

وكيف ارتضائي دارة الجهل منزلاً إذا كـ انتِ الجوزاءُ بعضَ منازلِي

وفي الحديث عن سهر الخبّين يقول ابن حزم^(١):

أرعى نجومَ اللـيلِ كَأَنِّي كُفِّتُ أَنْ أرعى حميرَ عِثْرِ ثبوتِها والخنـسِ^(٢)
فكأنّها والليـلِ لَ نيرانُ الجوى قد أضرمّت في فكـ ربي مِنْ خنـسِ^(٣)

وفي وصف ساقِي همر يقول محمد بن إبراهيم بن الحسين^(٤):

وسعى علينا بالكورس منطلق الحفرى دمي فاعطى
حتى بدا لي المشـري وقريته المريحُ يرفرف الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وأفرد ابن الكثاني في "كتاب التشبيهات" باباً لوصف السماء والنجوم والقمرين^(٥)، ومن المقطوعات الشعرية التي أفردت لوصف التحوم والكواكب فيه مقطوعة لطاهر بن محمد المهتد، ومنها قوله^(٦):

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١٠٩.

(٢) الخنـس : الذراري الخمسة، وهي زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد، سميت بذلك لأنها تخنس أحياناً في مجراها حتى تخفى تحت ضوء الشمس. [ابن منظور، اللسان، حنـس].

(٣) الخنـس : الظلمة. [المصدر السابق، حنـس].

(٤) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٣١.

(٥) العندم : الدّم أو الصبغ أو الشحر الأحمر. [ابن منظور، اللسان، عندم].

(٦) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٢٧ - ٣٣.

(٧) المصدر السابق، ص ٣٠.

كأنَّ التَّحَمَّ - معترضاً - وش_____اة
 كأنَّ كواكب_____بَ الجوزاءِ شَرِبُ
 كأنَّ الفرق_____دينِ ذوا عتابِ
 كأنَّ المش_____تري لما تَعَالَى
 كأنَّ الأح_____مرَ المَرِيخِ مُعْضِ
 تُسارقُ فيه لَح_____ظاً مُسْتَراباً
 تُعاطيهم ولائ_____دهُمُ شَراباً
 أجالاً ط_____ولَ ليلِهِما العِتاباً
 طليعةَ عسك_____رٍ خَنَسُوا ارتقاباً
 على حَن_____قٍ يشبُّ به شهاباً

وقد استفاد علماء الفلك من علوم الأوائل، وأطلعوا على كتبهم المترجمة إلى العربية، وقد انتقلت من المشرق إلى الأندلس مع الوافدين إليها أو العلماء الأندلسيين الذين عادوا من رحلاتهم إلى المشرق بعلم غزير، ومن كتب الفلك التي عرفها الأندلسيون السندهند والأركند والكمة، وقد أشار إليها ابن عبد ربّه في قوله^(١):

فأين الزَي_____جُ والقان_____جميع الحقن، والآن_____نُدُ والك_____ة^(٢) ؟
 وأين السن_____دُ هن_____دُ^(٣) الكلبة الجطلية الجارديونية ل_____ل ث_____مة ؟
 مركز ايداع الرسائل الجامعية

وقد احتوت مكتبات العلماء والخلفاء على عدد من كتب الفلك، وحفظت المصادر نصّاً شعريّاً لعبّاس بن فرناس يشير فيه إلى دفتر فلكيّ محفوظ في خزانة الأمير محمّد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) ، ويطلب منه الحرص عليه نظراً لقيّمته وأهمّيته، وفيه يقول^(٤):

(١) القرطبي، مبحث المجالس، ج ٣، ص ١١٨، الذّابة، ديوان ابن عبد ربّه، ص ١٥٨.

(٢) الزيج والقانون : علم تتعرّف منه مقادير حركات الكواكب السّيارة من معرفة كلّ واحد من الكواكب السّبعة بالنسبة إلى فلكه، وإلى فلك البروج وانتقالها ورجوعها. والأركند والكمة : كتابان هنديان ، يبحثان في أحكام التحوم. [الذّابة، ديوان ابن عبد ربّه، الحاشية، ص ١٥٨].

(٣) السند هند : كتاب فلك هنديّ. [المرجع السّابق].

(٤) ابن حيّان، المقتبس (مكّي)، ص ٢٨١، جرّار، صلاح، ما وصل إلينا من شعر عبّاس بن فرناس، بحلّة مجمع اللغة العربيّة الأردنيّ، مج ١٤، ٣٩٤، السّنة ١٩٩٠م، ص ١٦٢.

ولا تُنسينَ الدَفترَ الحِـمَّ الذي هو الغــــاية القصوى.....
فيا أَســــمــــى في أن نالَ مكنونَ علمِهِ سواكَ من الأمــــلاكِ في غيرِ ذا العَصرا

وقد اشتهر عباس بن فرناس باختراعاته الفلكية القائمة على أسس ميكانيكية، ومنها آلة " ذات الخلق "(١)، وتتكون هذه الآلة من عدة حلقات تمثل حركة الكواكب السيارة، ولما أحكم صنعها رفعها إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط مع هذه الأبيات (٢):

قد تمَّ ما حَمَلْتُمْنِي مِنْ آلَةٍ أعياء الفلاســــة فة الجهابذ دوني
لو كانَ بطلِيــــموسُ أهُمَّ صَنَعَةٍ لم يَنْقَلِ (٣) يحدولِ القــــانونِ
فإذا رَأَتْهُ الشَّمْسُ في آفاقِها بعثتْ إليه بندــــورها الموزونِ
ومنــــى أزلُ القمرِ الــــي حُجِيتْ مَعاً دونَ العــــونِ بكلِّ طالعٍ حينِ
يبدونَ فيــــها بالهــــارِ كما يَدْعِي الحَقُّ الــــي مَحْفُوظَةٍ ل في ظلماتِهِنَّ الجونِ

وفهم من قول ابن فرناس في البيت الأول " قد تمَّ ما حملتني من آلة " أنه صنعها بأمر من الأمير عبد الرحمن، ولعل الأمير تحمل نفقات صنعها، كما عرّض القول بأن رعاية الأمراء والخلفاء للعلم والعلماء في ذلك العصر كان لها أثر كبير في نهضة العلوم التطبيقية.

كما عمل عباس بن فرناس الآلة المسماة " المتقانة " لمعرفة الأوقات، ويبدو أنه لم يسبق إليها؛ إذ يقول المقرئ: " صنع الآلة المعروفة بالمتقانة ليعرف الأوقات على غير رسم ومثال "(٤)، ولما أحكم

(١) ذكر القنبري في نهاية الأرب (ج ١ / ص ٣٥٢) أن أول من اخترع هذه الآلة اسمه (إرخس)، ولعل ابن فرناس اعتمد فكرة إرخس لتطوير آله.

(٢) عنان، محمد عبد الله، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ص ٢٦٧، الطبعة الثانية، مكتبة الخالجي، القاهرة، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م، وقد ذكر عنان أنه قرأها في نسخة مخطوطة من كتاب القنبري لابن حيّان، جرّار، صلاح، ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ص ١٧٢ - ١٧٣.

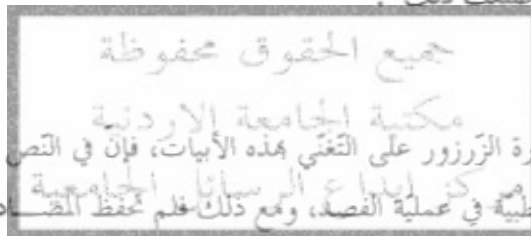
(٣) في تراجم إسلامية : لينقل، والصواب ما أورده صلاح جرّار في قراءتها.

(٤) للمقرئ، التفج، ج ٣، ص ٣٧٤.

معرض الاحتفاء بشفاء أمير أو صديق أو حبيب، ومن طريف ما يروى في هذا الباب أن عبد الرحمن التاصر لما أراد الفصد قعد " بالبهو في المجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته بالزهاء، واستدعى الطبيب لذلك، وأخذ الطبيب (الآلة)، وجس يد التاصر، فبينما هو إذ أطل زرزور، فصعد على إناء ذهب بالمجلس، وأنشد:

أيها القاصدُ رفقاً بأمر المومنينا
إنما تفصصُ رفقاً فيه مَحْيَا العالَمينا

وجعل يكرّر ذلك المرّة بعد المرّة، فاستظرف أمير المؤمنين التاصر ذلك غاية الاستظراف، وسرّ به غاية السرور، وسأل عمّن اهتدى إلى ذلك وعلم الزرزور، فذكر له أن السيدة الكبرى مرجان أمّ ولده وليّ عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك ^(١).



وبغض النظر عن قدرة الزرزور على التغني بهذه الأبيات، فإن في النص إشارة إلى استخدام الأطباء الأندلسيين للآلات الطبية في عملية الفصد، ومع ذلك فلم تحفظ المصادر - التي أطلعت عليها - أي نص يصف مثل تلك الآلات.

وقد نشطت صناعة الأدوية في الأندلس في العصر الأموي، وصنفت فيها مؤلفات كثيرة، وغصّت قصور الأمراء والخلفاء بخزائن الطبّ المشتملة على أنواع عدّة من الأدوية والعقاقير ^(٢)، وقد اعتمد الصيادلة على الأعشاب في صناعتها، وفي الإشارة إلى ذلك يقول الحمار السرقسطي ^(٣):

(١) المقرئ: التفتح، ج ١، ص ٣٦٠ - ٣٦١.

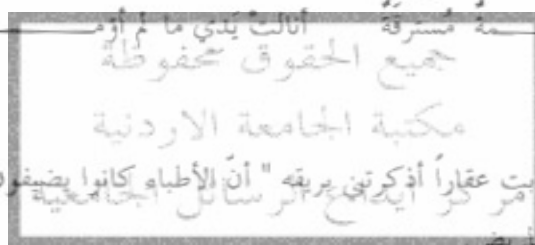
(٢) عن خزائن الطبّ في الزهاء - مثلاً - انظر: ابن حيّان، المقنّن (شامليّا)، ص ٤٦١.

(٣) ابن الكثّان، التشبيهات، ص ٢٧٤ - ٢٧٥. والحمار السرقسطيّ هذا هو أبو عثمان سعيد بن فنحون بن مكرم، كان إماماً في علم السّحو واللغة، وله تأليف في الموسيقى، ورسالة في الفلسفة، توفي في زمن المنصور بن أبي عامر. ترجمته في: صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٦٨، الحميدي، الجندوة، ص ٢٣٣، العتيبي، البقية، ج ٢، ص ٣٩٩.

لا كنت _____ مثل الطبيب تُبصره يدق إهلي _____ لجا^(١) ونانوخا^(٢)
 يلتم _____ من البرء للعليل وقد شك _____ دماغاً له ونافورخا
 حتى إذا ما الشفء _____ لآح له أراد رأس الطبيب _____ مطبورخا

كما عرفوا أنواعاً من العقاقير المهدئة والمنومة، وفي الإشارة إلى بعض تلك العقاقير يقول محمد بن مروان^(٣):

ولما حَـ _____ مي المثوق المبرح ناظري كراه _____ نازر أن يُريني مثاله
 شربتُ عقراً _____ أذكرني بريقه وأهدتُ كـ _____ ررى أهدى إلى خياله
 فهل هي إلا نـ _____ مة مُسرقة ألت يدي ما لم أزم _____ ل نواله



ويفهم من قوله " شربت عقراً " أذكرني بريقه " أن الأطباء كانوا يضيفون إلى تلك العقاقير نكهات تجعلها مستساغة في فم المريض.

ومن الإشارات الشعرية النادرة إلى علم الكيمياء قول القاسم ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط يشكو سوء ماله في هذا العلم^(٤):

شغلتُ بالكيمـ _____ ياء دهرِي فلم أفد غـ _____ ير كل خسِر
 إتعاب فكـ _____ ر، خداع عقلي فساد مال، ضيـ _____ اع عُمرِي

^(١) الإهليلج : ثم يسمى أهل الأندلس عيون البقر، وهو عقير من الأدوية معروف. [ابن منظور، اللسان، هـج].

^(٢) النانوخ : نبات معروف. [عباس، التشبيهات، الحاشية، ص ٢٧٤].

^(٣) النعالي، النعمة، ج ١، ص ٥٣٧.

^(٤) المقرئ، التفع، ج ٣، ص ٥٨١.

والذي دفع القاسم إلى مثل هذا القول أن علم الكيمياء عند العلماء المسلمين - في ذلك العصر - كان ينحصر في محاولة تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة من خلال عمليات معقدة ومكلفة، وقد عدّ البعض الإقدام على مثل هذا النوع من العلوم تدخلاً في عمل الطبيعة، وانشغالاً بعلم لا ينفع، وفي التعريض برجل من الفقهاء كان يطلب الكيمياء يقول أبو إسحاق الإلبيري من قصيدة طويلة^(١):

لو شُغِلَ المرءُ بتركيبه كان به في شغلٍ الشاغل
وعاينَ الحكمةَ مجموعةً ماثلةً في هيكلٍ مائلٍ
يا أيها الغافلُ لعلَّ عن نفسه ويك أفيقٌ من سِنَّةِ الغافلِ

وعند النظر في حال طائفي تلك العلوم نجد أنهم - مع كل ما حظوا به من تقدير الخاصة والعامة - كانوا كثيري الشكوى بسبب إحساسهم بقلة التقدير، ومنهم العالم الطيب سعيد بن عبد ربّه، ومن قوله شاكياً ضيق الحال والمقال^(٢):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
أمنٌ بعد غَـوصي في علوم الحقائق وطول انبساطي في مواهب خالقي^(٣)
ومن بعد إشـراق على ملكوته أرى طالباً رزقاً ما إلى غير رازقي^(٤)

ولم يكن تجاهل الناس وقلة اهتمامهم بهذه العلوم سبب عزلة بعض هؤلاء العلماء؛ إذ ربّما يكون العالم ذاته سبباً في هذه الجفوة أحياناً، فسعيد بن عبد ربّه هذا قيل عنه إنه كان "ثقیل الطلعة، سيئ الأدب والمقابلة، ولذلك كان عمّه أبو عمر^(٥) يكرهه"، وذكر أن الناصر المرواني استحضره لينظر عليه في العلم القديم، فقابله من الكلام العامّي الجلف بما كرهه من أجله، وأبعده^(٦).

(١) أبو إسحاق الإلبيري، إبراهيم بن مسعود بن سعد التُّخَيْمِي (ت نحو ٤٦٠ هـ)، ديوان أبي إسحاق الإلبيري الأندلسي، ص ٦٧، تحقيق: محمد رضوان الذّاية، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٤١١ هـ، ١٩٩١ م.

(٢) السَّعَالِي، اليتيمة، ج ٢، ص ٧٤، ابن حيان، المقتبس (العربي)، ص ٧٠، صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٧٩، الحميدي، الجذوة، ص ٤٠٠، الضَّيِّي، البغية، ج ٢، ص ٧٦، ابن سعيد، للغرب، ج ١، ص ١٢١، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٤٩٠.

(٣) في الجذوة والبغية: (أبعد نفوذي) بدلاً من (بعد غوصي)، وفي المقتبس: (وبعد انبساطي) بدلاً من (طول انبساطي).

(٤) في طبقات الأمم والمغرب وعبون الأنباء: (وفي حين) بدلاً من (ومن بعد)، وفي اليتيمة (شيتاً) بدلاً من (رزقاً).

(٥) هو أحمد بن عبد ربّه صاحب العقد.

(٦) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٢١.

رابعاً - الكتب والمكتبات:

ساهمت النهضة العلمية والفكرية التي شهدتها الأندلس، والرحلات المتبادلة مع المشرق، ونشاط حركة التأليف في رواج الكتب في العصر الأموي^(١)، ولا سيما في قرطبة التي وصفت بأنها " أكثر بلاد الأندلس كتباً"^(٢)، " ويباري فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتاب"^(٣)، وأهلها " أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، وصار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، والكتاب العلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به "^(٤).

وقد بلغ من اعتناء أهل قرطبة بالكتب ورواجها في بلادهم " أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية "^(٥).

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الجامعة الأردنية

ومع رواج الكتب بدأ الاهتمام بتأسيس المكتبات وخزائن الكتب في القصور والبيوت، عدا المكتبات العامة، وقد ساعد اعتناء الأمراء والخلفاء الأمويين بالكتب على نشاط سوقها في الأندلس، ومنهم الأمير عبد الرحمن الأوسط الذي " وجه عباس بن ناصح إلى العراق في التماس الكتب القديمة، فأتاه بالسند هند وغيره منها، وهو أول من أدخلها الأندلس وعرف أهلها بها ونظر فيها "^(٦).

وكانت مكتبة الخليفة الحكم المستنصر أضخم مكتبة خاصة عرفت في العصور الوسطى؛ إذ جمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من ملوك الأندلس قبله، وذلك بإرساله فيها إلى الأقطار واشترائه لها بأعلى الأثمان، ومن ذلك أنه بعث بشراء نسخة من كتاب الأغاني من الأصفهاني بمبلغ ألف دينار^(٧)،

(١) عن حركة التأليف في العصر الأموي، انظر: رسالة ابن حزم في فضائل الأندلس وأهلها، المقرئ، التفتيح، ج ٤، ص ١٥٤.

(٢) للمقرئ، التفتيح، ج ١، ص ٤٦٢.

(٣) للمصدر السابق، ص ٤٦١.

(٤) للمصدر السابق، ص ٤٦٢ - ٤٦٣.

(٥) للمصدر السابق، ص ١٥٥.

(٦) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٤٥.

(٧) للمصدر السابق، ج ١، ص ١٨٦، ابن الأثير، الحلة، ج ١، ص ٢٠١.

فبعث إليه الأصفهاني " نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق، أو ينسخه أحد منهم ^(١) ". كما كان المستنصر يطلب اختصار الكتب المطولة، ومن ذلك أنه طلب من الزبيدي اختصار كتاب العين للفراهيدي، وأجزل صلته، وأدن مكانته منه، وجعله مؤدب ولده ^(٢)، وفي الإشارة إلى احتفاء الأندلسيين بهذا الكتاب يقول عبد الملك بن زيادة الله الطنجي ^(٣):

حَسْبُ كِتَابِ الْعَيْنِ عِلْقُ مِضْنَةٍ وَمِنْ التَّعَامَةِ ^(٤) لَا أَرِيْدُ بَدِيْلًا

وقد دفع اهتمام المستنصر البالغ بالعلم والكتب أبا عليّ القالي إلى أن يطرز كتابه الأملى باسم هذا الخليفة العالم ^(٥).

وعن اهتمام الخليفة المستنصر بجمع الكتب يقول ابن الأثير: " ولم يسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والتهمم بها ^(٦)، حتى قيل " إنها بلغت أربعمئة ألف مجلد ^(٧)، ثم اضطره إلى استخدام نظام الفهرسة لضبط هذه الكتب، وذكر " أن عدد الكتب التي كانت فهارس بأسماء الكتب التي اجتمعت في خزائنه أربعة وأربعون ^(٨) في كل فهرست منها عشرون ورقة ^(٩)، ولم يكتب بجمعها فحسب، إنما كان يطلع عليها ويدقق نظره فيها، " وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته، ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن ^(١٠) ". وفي الإشادة بعلمه وسعة اطلاعه يقول محمد بن شخيص ^(١١):

(١) ابن الأثير، الحلة، ج ١، ص ٢٠٢.

(٢) انظر: ابن حبان، المقتبس (الحجّي)، ص ١٣٣ - ١٣٤، ابن خلدون، المقدمة، مج ٢، ص ١٠٦١.

(٣) ابن بشكوال، الصلة، ج ٢، ص ٥٢٩.

(٤) التعامة : اسم بغلة الشاعر.

(٥) انظر: ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٨٦.

(٦) ابن الأثير، الحلة، ج ١، ص ٢٠١.

(٧) المقرئ، التفح، ج ١، ص ٣٩٥.

(٨) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٨٦.

(٩) المقرئ، التفح، ج ١، ص ٣٩٥.

(١٠) ابن حبان، المقتبس (الحجّي)، ص ٥٦.

أَعَزُّ ذَوِي الْأَفْهَامِ وَالْعَمَلُ ظَلُّهُ فَمَا شَتَّتَ مِنْ رَاوٍ وَوَاعٍ وَوَاضِعٍ
وَمَا شَتَّتَ مِنْ شِئٍ قَرِيضٍ وَرَاجِزٍ مَشِيدٍ لَفٍّ رَوِّقٍ الْقَوَافِي وَسَامِعٍ

ومع اعتناء المصادر بذكر أخبار مكتبة المستنصر الضخمة تلك، إلا أنه لم تصل إلينا - في المصادر التي اطلعت عليها - أي نصوص شعرية في وصفها أو وصف غيرها من مكتبات الأمراء والخلفاء أو الأغنياء أو العلماء أو المكتبات العامة.

وقد سار المنصور بن أبي عامر سيرة الحكم المستنصر في الاعتناء بالكتب والمكتبات، وكانت الكتب تؤلف باسمه ويرسم طلبه، ومن الكتب التي ألقت له كتاب "الحمام"، وفي الإشارة إلى ذلك يقول زيادة الله بن علي^(١):

أَذْكُرُ الْقَلْبَ بِالتَّصَانُفِ فَحَتَّى سَاحَ فِي أُرَاكِهَ قَدْ أَرْتَا
أَخْضَلْتُ رِيشَهُ السَّمَاءَ بِظِلِّ مَعْكِبَةِ الْجَامِعَةِ الْأُرْدُنِيَّةِ
غَرَّدَ بِالسَّرُورِ فَهَاجَ بِمِزَانِ يَدَايِ الْبُرْسَانِ الْجَامِعِيَّةِ
عَبَّ فِي أُرَاكِهَ قَدْ أَرْتَا

كما وردت إشارات شعرية أخرى عن بعض الكتب المؤلفة في الأندلس في ذلك العصر، ومن أهم تلك الكتب كتاب "العقد" لابن عبد ربه، وتكمن قيمة هذا الكتاب في أنه يقدم التراث العربي المشرقي لأبناء الأندلس حتى يظل التواصل قائماً بينهما، ولذلك لم يفهم أهل المشرق قيمة هذا الكتاب أبداً، وعدّوه بضاعتهم ردّت إليهم، وقد وردت إشارة شعرية إلى هذا الكتاب في قول الرّمادي^(٢):

كَأَنَّ الْكُتُبَ أَجْيَادُ الْغَوَايِ تَبَدَّتْ مِنْ سَطْرِ وَرٍ فِي عُقُودِ
كَأَنَّ سَطْرَ وَرَهَا جَزَعٌ يَهِيمٌ بَدَّتْ فِيهِ مَعَانٍ مِنْ فَرِيدِ

(١) الحميدي، الجذوة، ص ٢٢١، وقال الحميدي عن الشاعر إنه أديب شاعر مكثر.

(٢) ابن الكائني، التشبيهات، ص ٢٢٤، جرّار، ماهر، شعر الرّمادي، ص ٦٥.

وقد سبقت الإشارة إلى بعض كتب الطَّبِّ والفلك المستوردة من المشرق^(١).

وكان غير القادرين على اقتناء الكتب يستعيرونها من أصحاب المكتبات، كما كانوا يحرسون على استعارة الكتب القيمة والتادرة التي لا يستطيعون الحصول عليها، وثمًا يروى في ذلك أن القاضي مُنذر بن سعيد البلوطي كتب إلى أبي عليّ القالي - الذي حمل معه ذخيرة الكتب المشرقية - يستعير منه كتاباً من الغريب، فقال^(٢):

بحرٍ ريمٍ مُهَفَّفٍ _____ وصَدَّغَهُ المتعطفُ
أبعثْ إليّ بجزءٍ _____ من الغريبِ المصنَّفِ

فقضى حاجته، وأجابه بقوله^(٣):

جميع الحقوق محفوظة
قُدِّرَتْ لَكِنَّةُ الْجَلِيلَةِ الْأُرْدُنِيَّةِ تَأْتِي
لأبعثُ بِمَا قَدْ مَرَّكَ لِيَتَذَكَّرَ الْمُرْسَلُ الْجَاهِلِيَّ الْغَرِيبُ الْمَصْنُفُ
ولو بعثتُ بنفسِي إليك ما كنتُ أُسْرِفُ

وتكشف الأبيات السابقة عن أدب رفيع من السائل والمسؤول، فكلاهما تحلى بأخلاق العالم الحق؛ إذ كان البلوطي - وهو قاضي الجماعة بقرطبة - غاية في التواضع، وكشف ردّ القالي عن ذوق رفيع وبادله أبياته اللطيفة والريقة بأبيات ألطف وأرق.

(١) انظر ص (١١٢).

(٢) المقرئ، التفتح، ج ٢، ص ٢٠.

(٣) المصدر السابق.

وكانت الكتب من الهدايا المحببة عند الأندلسيين في العصر الأموي، ومن الإشارات الشعرية الدالة على شدة احتفائهم بهذه الهدية القيمة قول أحمد بن كليب^(١) حين أهدى كتاب الفصيح - الذي ألفه النعالي - لأسلم^(٢):

هذا كتابُ الفصيح بكلّ لفظٍ ملّيج
وهبهُ لك طوعاً كما وهبهُ نكاحاً روجي

وفهم من البيتين السابقين - ضمناً - أن الأندلسيين كانوا مولعين باقتناء الكتب، ولم يكن سهلاً عليهم التصرف بها أو إهداؤها، ويصبح الكتاب عند صاحبه يعادل قيمة الروح، ولا يسهل التفريط فيه إلا لمن كان رديفاً لها.

ولكن ولع الأندلسيين بالكتب لم يؤثر في ذائقتهم التقنية، وما كانوا ليرضون باقتناء كتاب لا نفع فيه، ومن الأدلة على ذلك أن صاعداً البغداديّ لبساً ألف كتابه "الفصوص" دحضه أهل الأندلس ورفضوه، وقذفوه في النهر، وقال فيه بعض الشعراء^(٣):

جميع حقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز أبحاث الرسائل الجامعية

قد غـاصَّ في البحر^(٤) كتابُ الفُصوصِ وكذا كـلُّ ثَقيلٍ يَغوُصُ

فأجابه صاعد مدافعاً عن كتابه^(٥):

(١) أديب شاعر مشهور الشعر، ولا سيما شعره في أسلم، وكان قد أفرط في حبه حتى أذاه ذلك إلى موته، وقد أورد الحميدي قصتهما في الجذوة. ترجمته في: الحميدي، الجذوة، ص ١٤٣، الطيّب، البغية، ج ١، ص ٢٤٩.

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ٣١٩، الحميدي، الجذوة، ص ١٤٧، الطيّب، البغية، ج ١، ص ٢٥٣. وأسلم هذا من بيت جليل، وهو صاحب الكتاب المشهور في أغاني زرياب، وكان أديباً شاعراً. ترجمته في: الجذوة، ص ١٤٦ و ١٧٢.

(٣) ابن بسام، الذخيرة، ج ٤، ص ٨، المقرئ، التفح، ج ٣، ص ٧٨.

(٤) في التفح: النهر.

(٥) للصدران السابقان.

وكان لرواج صناعة النسخ أثر في وفرة أدوات الكتابة، والاعتناء بجودة صناعتها وتزويقها،
وابتكار أشكال تسهل على الناسخ القيام بعمله.

وعني الشعراء الأندلسيون في العصر الأموي - ولا سيما الكتاب والوزراء منهم - بوصف
أدوات الكتابة، وكان وصف القلم الأكثر شيوعاً بينها، فهو اللسان الناطق بالحكمة^(١):

ومعشر تنطق أقلامهم بحكمة تلقى بها الأعين
تلفظ ظُهاً في الصك أقلامهم كأنما أقلامهم ثم ألسن

وهو صديق كاتم للأسرار^(٢):

كاتم للأسرار
كالمحب الذي يـ
عن كل وإش غير ما في الصك
مر كبر إيعاد الرسائل الجامعية
روح لالف ثم يطوي عن كاش

وهو حبيب يجيد الإصغاء لحبيه^(٣):

ويعترك القلب مُمّ الملقى واعياً أذن المحب إلى الحبيب سبب الأغيد

وهو فارس بطل مغوار^(٤):

(١) البيتان للرمادي. ابن الكفائي، التشبيهات، ص ٢٢٢-٢٢٣ جركر، ماهر، شعر الرمادي، ص ١٢٣.

(٢) البيتان للرمادي. المصدر السابق، ص ٢٣٠، المرجع السابق، ص ٧٧.

(٣) البيت ليحيى بن هذيل. المصدر السابق، ص ٢٢٩، المرجع السابق، ص ٨٣.

(٤) البيتان للرمادي. المصدر السابق، ص ٢٢١-٢٢٢، جركر، ماهر، شعر الرمادي، ص ١٢٤.

رضيْعٌ مِّنْ بَنِي الْأَصْفَاءِ ————— رِ وَالْأُمُّ مِّنَ التَّوْبَةِ —————
ضُحَيْلٌ يُشَبِّهُهُ الصَّبُّ ————— أَدَامَ الْحَبُّ تَعَذُّبُهُ —————
تَرَى أَدْمَعُهُ سَوْدًا ————— وَلَكِنْ هِيَ مَقْلُوبَةٌ —————
كَمَا فِي بَاطِنِ الْعَيْنِ ————— مِّنَ الْأَنْوَارِ مَحْجُوبَةٌ —————
دَمَاءٌ هِيَ أَنْفَاسٌ^(١) ————— وَسَيْفٌ هُوَ أَنْبُوبَةٌ —————

وفي وصف قلم مشقوق من أعلاه - مثلاً - يقول ابن عبد ربّه^(٢):

يَا كَاتِبًا نَقَشْتُ أَنَا مِلَّ كَفِّهِ ————— سَحَرَ الْبَيَانَ بِلَا لِسَانٍ يَنْطِقُ —————
إِلَّا صَقِيلَ الْمَتِينِ مِلْمَ ————— حُدَّتْ لَهَا زُمَةٌ^(٣) وَشُقُّ الْمَفْرُقِ —————

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية

وكان الأندلسيون يستعملون تيجاناً خاضعاً من البليكر كليلي الأقدام، وفي ذلك يقول ابن بطّال
على لسان سكّين^(٤):

أَنَا فِي آلَةِ الْكَتْمِ نَابَةٌ فَرْدٌ ————— لَيْسَ مِنِّي إِذَا تَغَيَّيْتُ بُدٌّ —————
أَنَا سَيْفُ الْحَتَمِ وَفِي حَدٍّ وَلَدٌ ————— كُنْ سَيْوْفَ الْجَفِّ وَنِ مَنِّي أَحَدٌ —————
فَكَأَنِّي مِنَ الْجَفِّ وَنِ مَصُوغٌ ————— فَلْيَ السَّيْفُ فِي الْمَعْرِارِكِ عَبْدٌ —————

(١) الأنفاس: جمع نفس، والتنفس ضرب من التواقيس، وهو الحشية الطويلة. [ابن منظور، اللسان، نفس].

(٢) ابن عبد ربّه، العقد، ج ٤، ص ١٨١، الذّاية، ديوان ابن عبد ربّه، ص ١١٩ - ١٢٠.

(٣) اللهازم: أصول الحنكين، واحدها طزمة، [ابن منظور، اللسان، طزم].

(٤) ابن الكفّاني، التشبيهات، ص ٢٣٣.

ومن المرجح أن الأندلسيين ابتكروا طريقة نحو الحبر من الصحيفة وإعادة الكتابة عليها؛ إذ تروي المصادر أن الخليفة عبد الرحمن المستظهر لما تولى الخلافة سنة (٤١٤هـ) رفع إليه شاعر يوم بيعته شعراً كتبه في رقّ مبشور، واعتذر من ذلك بهذين البيتين^(١):

الرقّ مبشورٌ وفيه بشارَةٌ ببقا الإمام الفاضل المستظهر
ملكٌ أعاد العيشَ غصّاً شخصه وكذا يكـونُ به طوال الأذهر

فقبل المستظهر عنده، وأجزل صلته، ووقع على ظهر الكتاب بأبيات مطلعها^(٢):

قَبِلْنَا الْعُذْرَ فَمِى بَشْرِ الْكِتَابِ لما أَحْكَمْتِ فَمِى فَصْلِ الْخِطَابِ

وكان الورق الأندلسي من أجود أنواع الورق في العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وقد اشتهرت شاطبة من أعمال بلنسية بصناعة الورق الذي لا مثيل له^(٣)، وكانت الأندلس في العصر الأموي من أهم البلدان التي كانت تصدر الورق إلى المشرق وأوروبا على سواها، وفي وصف الورق الأندلسي الفاعر يقول ابن بطّال^(٤):

ومطويّ كمطوي الغزال يُشابه طيه خصّـر الغزال
كأنّ سطره أبناء حامٍ أقامت في المراتب لبّ للقتال
كأنّ بيض مخفي المعاني بها خدّ يغلّـل بالغـي والمي

(١) ابن هشام، الذخيرة، مج ١، ص ٣٤، ابن الأثير، الخلة، ج ٢، ص ١٦ - ١٧، ابن عذاري، البيان للغرب، ج ٣، ص ١٤٠، المقرئ، التفتح، ج ١، ص ٩٠، جرّار، صلاح (بالاشتراك)، التوقيعات الأندلسية، ص ١٢٧، الطبعة الأولى، منشورات جامعة آل البيت، الأردن، ١٤٠١ هـ، ٢٠٠١ م. ولم تذكر المصادر اسم هذا الشاعر.

(٢) المصادر السابقة، والمرجع السابق.

(٣) المقرئ، التفتح، ج ١، ص ١٦٦. وللمزيد عن صناعة الورق في شاطبة في ذلك العصر، انظر: سالم، سحر السيد، شاطبة الحصن الأمامي لشرق الأندلس في العصر الإسلامي (التاريخ السياسي والحضاري)، ص ٣٤٦ - ٣٤٨، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٥ م.

(٤) ابن الكّثاني، التشبيهات، ص ٢٢٨.

ولا تهولك قــاروري فإنهمــأفــع من ذاكا

ويلاحظ من الأبيات السابقة أنَّ الحديث عن أدوات الكتابة صدر عن شعراء كتاب ومتقِّفين، أو جاءت في سياق الحديث عن عالم أو أديب أو كاتب، مما يؤكد أثر ثقافة الشاعر في مضامين شعره، واهتمامه بتسجيل جوانب من هذه الثقافة التي قد لا تستوقف شاعراً غير مثقَّف أو ممارس لمهنة الكتابة، أو على صلة بها من قريب أو بعيد.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المبحث الثاني

الفنون

شهدت الأندلس في العصر الأمويّ لحضة فنيّة راقية لاقت الكثير من الاهتمام الرسميّ والشعبيّ، وواكب الشعر بطبيعته الفنيّة الغنائيّة تلك النهضة، وحفظت لنا المصادر المختلفة الكثير من المقطوعات والقصائد الشعريّة التي تبرز جوانب من فنون العمارة والفنون التشكيلية والموسيقية، وإن لم تُرق تلك التصوص إلى مستوى تلك النهضة الفنيّة إلا أنها ارتبطت بها ارتباطاً وثيقاً فاق ارتباطها بأيّ جانب آخر من جوانب الحضارة الأندلسيّة في العصر الأمويّ.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

أولاً - فنّ العمارة:

وصف ابن حوقل اتّساع الرقعة العمرانيّة في قرطبة لدى زيارته لها قائلاً :
" هي أعظم مدينة بالأندلس، وليس بجميع المغرب لها عندي شبيه، ولا بالجزيرة والشّام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل ، وسعة رقعة^(١)، وفسحة أسواق، ونظافة محالّ، وعمارة مساجد، وكثرة حمامات وفنادق ".^(٢)

^(١) في التفخ : عمل .

^(٢) ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل التميمي، كتاب صورة الأرض، ص ١٠٧، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دت .، المقرئ، التفخ، ج ١، ص ٤٦٠.

وقد بلغ الازدهار العمراني ذروته في عهد الخليفة الناصر؛ إذ بلغ عدد دور الرعية - دون الوزراء وأكابر أهل الخدمة - مئة وثلاثة عشر ألف دار، وكان فيها ثلاثة آلاف مسجد ومئانة وعشرون ربضاً وثلاثمئة حمام، واشتملت الزهراء وحدها على أربعمئة دار لسكنى الخليفة وأهل بيته وحاشيته.^(١)

ولم يقتصر ازدهار حركة العمران على قرطبة وحدها، إنما نشطت - كذلك - في سائر مدن الأندلس، مثل: إشبيلية، وغرناطة، وبَلَنَسِيَّة، وسَرَقُسْطَة، وغيرها من المدن.

وقد ساعد تفشي الرخاء والثرف على انتشار هذا الكم الهائل من القصور والدور والأسواق والحمامات وغيرها من أتماط العمران الحضري.

جميع الحقوق محفوظة

وقد ساد الطراز الدمشقي في بناء القصور، واتخذ الأمراء المؤسسون لها الأسماء الأموية المشرقية، ومن أشهرها قصر الرصافة الذي بُني في زعمه الأمير عبد الرحمن الداخل، واشتهر في الذاكرة الأندلسية الشعرية رمزاً لامتداد الحنين إلى بلاد الشام.

إلا أن حرصهم على الحفاظ على الطابع المشرقي في العمارة لم يطمس هوية الأمم السابقة التي تعاقبت على حكم الأندلس، فقصر قرطبة - على سبيل المثال - بناء قديم في أصله، " وفيه من المباني الأولية والآثار العجيبة لليونانيين ثم للروم والقوط والأمم السالفة ما يُعجزُ الوصف، ثم ابتدع الخلفاء من بني مروان - منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها - في قصرها البدائع الحسان، وأثروا فيه الآثار العجيبة والرياض المونقة".^(٢)

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١٢، ص ٢٣٢.

(٢) المقرئ، التفح، ج ١، ص ٤٦٣ - ٤٦٤.

ولم يقف المعمار الأندلسي عند حد الانسجام مع الماضي فحسب، إنما نجح في احتواء الفنون الفارسية والبيزنطية والمشرقية شكلاً ومضموناً، إلا أن هذا التمازج لم يفقد العمارة الأندلسية هويتها، وتلاءمت العناصر الوافدة الجديدة مع العناصر الذاتية المحلية مؤلفة وحدة فنية متناسقة في تطورها أندلسية في روحها .

وقد شغف كثير من الأمراء والخلفاء الأمويين بالعمارة، وكان عبد الرحمن الأوسط أول من اتخذ لنفسه أبهة الملك، فبنى القصور والمساجد، وجلب إليها الغرائب والتفائس من قصر الخلافة ببغداد بعد مقتل الأمين، كما أحدث الطرّز، واتخذ السكّة، وبنى الرّصيف، ومدّ قنوات المياه إلى قصره.^(١)

وكان عبد الرحمن الناصر " كلفاً بعمارة الأرض وإقامة معالمها وانبساط مياهها ^(٢) واستحلابها من أبعد بقاعها، وتخليد الآثار النافذة على قوة الملك وعزة السلطان ^(٣)، واتخذ الزّهاء - درة الأندلس قاطبة - سكناً له، تدفعه إلى ذلك رغبة قوية في مقاومة الزمن والشّعور بالفناء، وهو يقول في ذلك ^(٤):

هممُ الملوك إذا أرادوا ذكرهم من بعدهم في أئسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ملك محاه حوادث الأزمان ^(٥)
إن البناء إذا تعاطم شأنه ^(٦) أضحي يدل على عظيم الشأن

واندفع الشعراء المقربون إليه يصفون هذا الأثر العمراني الرائع، ويؤكدون حسن صنيعه، وفي ذلك يقول الوزير عبيد الله بن إدريس ^(٧):

(١) انظر: ابن عذاري، البيان للغرب، ج ٢، ص ٩١ .

(٢) في النسخ: أمرها .

(٣) ابن خاقان، للمطمح، ص ٢٤٥، المقرئ، النسخ، ج ١، ص ٥٧٠ .

(٤) ابن سعيد، للغرب، ج ١، ص ١٧٩ - ١٨٠، المقرئ، النسخ، ج ١، ص ٥٢١ .

(٥) في المغرب: حادث، والصواب ما أثبتت لضرورة الوزن، ولم يرد هذا البيت في النسخ .

(٦) في النسخ: قدره .

(٧) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٨٠، النسخ، ج ١، ص ٥٧٥ - ٥٧٦ .

سَيَشْهَدُ مَا شَيَّدَتْ ^(١) أَنْكَ لَمْ تَكُنْ مُضِيْعاً وَقَدْ مَكَّنْتَ لِلذَّيْنِ وَالذَّنَا
فَبِالْجَامِعِ الْمَعْمُورِ لِلْعِلْمِ وَالثَّقَلَى وَبِالزَّهْرَةِ الزَّهْرَاءِ لِلْمُلْكِ وَالْعَلْيَا

وقد لاقى هذا الشعر قبولاً في نفس الناصر فاهتزّ وابتهج .

وسلك الحاجب المنصور بن أبي عامر الطريق ذائعاً، فبنى الزّاهرة حماية
لنفسه ومملكه من غدر الغادرين، وفيها يقول صاعد اللغوي ^(٢):

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ مِنْ يَمَنِ وَالْمُبْتَنِي تَسَبّاً غَيْرَ الَّذِي انتسبَا
بَغْزُوةٍ فِي قُلُوبِ الشُّرَكَ رَاتِعَةٍ بَيْنَ الْمُنَايَا تُنَاغِي السُّمَرَ وَالْقُضْبَا
أَمَّا تَرَى الْعَيْنَ تَجْرِي فَوْقَ مَرْمَرِهَا هَوًى فَتَجْرِي عَلَى أَحْفَافِهَا الطُّرْبَا
أَحْرَيْتَهَا فَطَمَأَ الزَّاهِي بِحَرِيَّتِهَا كَمَا طَمَعَتْ فَسُدَّتِ الْعُجْمَ وَالْعَرْبَا

وقد دفعت رغبة هؤلاء الحكّام في إبقاء أثرهم وخلوده بعد فنائهم المعمار الأندلسي إلى تجويد
البنيان وإرسائه على أساس مكين يتحدى الزمن ويقاوم الفناء .

وقد استحدثت العمائر في ذلك العصر لأسباب أخرى منها الرفاهية والتّرف، ولا سيما في بناء
القصور والمُنَى والمنتزّهات، وكان قصر الفارسي من القصور المقصودة للنزهة والفرجة، وفيه
يقول ابن زيدون متذكراً أيام أنسه ولهو فيه ^(٣):

وَيَهْتَاجُ قَصْرُ الْفَارِسِيِّ صَبَابَةً لِقَلْبِي لَا يَأْلُو زِنَادَ الْأَسَى فَذَحَا

^(١) في التفتح : أبقيت .

^(٢) ابن خاقان، المطمح، ج ١، ص ١٨٠، ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٧٧، للقرّي، التفتح، ج ١، ص ٥٨٠ - ٥٨١ .

^(٣) ابن زيدون، الديوان، ص ١٦١ .

وفي منية الرُصافة يقول أبو حفص بن مُرد^(١):

سقى جوف الرُصافة مُستَهْلٌ تُولفُ شَمْلَه أيدي الرِّياح
محلٌ ما مشيتُ إليه إلا مشى في ابتهاجي وارتياحي

ويقول أغلب بن شُعيب^(٢) واصفاً لُحوه مع جماعة من أصحابه في أحد متنزهات قرطبة^(٣):

ربُّ يومٍ قصدتُ فيه إلى اللهوِ وحولي جماعة شُطَّارُ
فزلنا على ساطِ من النُّو ر أنيقٍ لم تُغن فيه التَّجارُ

وقد امتازت عمارة القصور والمباني والمساجد بالارتفاع الشاهق، وقد سجل الشعراء تلك الميزة في قصائدهم بإحساس الدهشة والإعجاب، ومنهم عباس بن فرناس الذي وصف ارتفاع قصر الخلافة في الرُصافة بقوله^(٤):

وأغرافهُ الشَّمُ التي لاحَ دُومُها نجومُ الثَّريا والسَّماكِينِ والعَفْرِ^(٥)
وإذ بلغَ النَّصْرُ المكثُرُ فرَعَها وصوبَ لم يبلغْ إلى الأرضِ في شهرِ

وفي قصر قرطبة^(٦) يقول محمد بن الحسين الطَّاري^(٧):

(١) ابن هشام، الذخيرة، مج ١ ص ٥١٩.

(٢) شاعر مقدّم سكن قرطبة، كان من شعراء التناصر ومن بعده. ترجمته في: الحميدي، الجذوة، ص ١٧٤، الطُّي، البيعة، ج ١، ص ٢٩٨. المصدران السابقان.

(٣) ابن حيان، اللقبس (مكي)، ص ٢٢٨- ٢٢٩، جرّار، صلاح، ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ص ١٦٠.

(٤) الغفر: منزل من منازل القمر. [ابن منظور، اللسان، غفر].

(٥) قال ابن بشكوال في وصفه: "وفي هذا القصر القصاب العالية السمو، لليفة العلوّ، التي لم ير الرُّكُودون مثلها في مشارق الأرض ومغاربها". المقرئ، التفسيح، ج ١، ص ٤٦٤.

(٦) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٧٣.

وكأئما قضبائه اللاتي سَمَتَ تبغي مناحاة النجوم الوُقدِ

ويقهر ابن شُخَيْص مِباي الزَّهراء قائلًا^(١):

هذي مِباي أمير المؤمنين غَدَتْ يُزري بها آخر الدنيا على الأولِ
كذا الدَّراري وجدنا الشمسَ أعظمها قَدراً وإن قصرت في العلو عن زحلِ

وتبارز الشعراء في وصف ارتفاع الزاهرة، فابن دراج يصف دار السرور فيها بقوله^(٢):

دارُ السَّرورِ المعِتي عُرِفَتْ بِهَا الحَقُوقُ فوقَ غُلُوقِ الزُّهُورِ في استعلائِها
وكانَ غُرُّ المِزنِ لنا حِكاكِها الجانِبِ عِزٍّ عليها لَمِنْ نَفْسِ ملائِها
وكأنما أيدي السَّعُودِ تَضُمُّنا بِإِذْنِ الإِبداءِ عِلى أهوائِها

ونافسه ابن هُذَيْل في وصفها بقوله^(٣):

قصورٌ إذا قامَتْ ترى كلَّ قائمٍ على الأرضِ يَستَحْذِي لها ثمَّ يَخْشَعُ
كأنَّ حَطيئاً مُشرفاً مِنْ سُمُوكِها وشُمُّ الرِّبَى مِنْ تَحْتِها تُسَمِّعُ

وفي علو بناء مُنَيَّة (كِنْتُش)^(٤) يقول ابن عبد ربّه^(٥):

(١) ابن الككائي، التشبيهات، ص ٧٥ .

(٢) المصدر السابق، ص ٧٠ . ولم ترد هذه الأبيات في ديوانه .

(٣) المصدر السابق، ص ٧٧، شوابكة ، شعر يحيى ، ص ٩٥ .

(٤) بناها الأمير عمّاد بن عبد الرحمن بأسفل قرطبة لرحته . انظر حواشي في: ابن حيّان، للفتيس (مكّي)، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٥) المصدر السابق، ص ٢٤٢ : الدّابة، ديوان ابن عبد ربّه، ص ٦٨ .

تعالى عُلُوًّا فَاتَ عَنْ كُلِّ وَاصِفٍ إِذَا أَكْثَرُوا فِي وَصْفِهِ كَانَ أَكْثَرًا

وفي عُلُوِّ بناء المسجد الجامع بقرطبة يقول ابن فرناس^(١):

بَنَى لَهُمْ مَسْجِدًا حَلَّتْ عَجَائِبُهُ لَوْلَا السَّمَاءُ لَمَاضَاهَا بَنِيَانُ

ويبدو أن أحد الدوافع وراء ارتفاع البنيان كان البحث عن المثل العليا، ومحاولة المعمار الأندلسي التسمي إلى ما فوق الطبيعة، كما لا يستبعد أن تكون هذه الظاهرة - في بناء القصور خاصة - شكلاً من أشكال التفوق الطبقي الذي تعزز من خلال المغالة في بناء المقابر كذلك، وفي نقد هذه الظاهرة يقول الغزال^(٢):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية

أَرَى أَهْلَ السَّارِ يَذْهَبُونَ كَوَيْلًا إِلَى الرِّسَالِ تَبْلُغُ الْحَقِيقَةَ بِرِّ الصَّخُورِ
أَبَوْا إِلَّا مَبَاهَاةً وَفَخْرًا عَلَى الْفُقَرَاءِ حَتَّى فِي الْقُبُورِ

ومن خصائص فن العمارة في ذلك العصر بروز النزعة إلى التكرار، وقد تثلث في جميع مظاهر الفن الأندلسي في العصر الأموي، وأكثر ما ظهرت في بناء الأعمدة المقوسة في القصور والمساجد. وفي أفواس قصر الرصافة يقول عباس بن فرناس^(٣):

حَنَا يَا كَأَمْثَالِ الْأَهْلِ رُكِبَتْ عَلَى عُمْدٍ تُعْتَدُّ فِي جَوْهَرِ الْبَدْرِ

(١) ابن حيان، اللقيس (مكي)، ص ٢٢٢، حرار، ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ص ١٧١.

(٢) المقرئ، التفتح، ج ٢، ص ٢٥٦، الناية، ديوان الغزال، ص ٨٥-٨٦.

(٣) ابن الكفاني، التشبهات، ص ٧٢، حرار، صلاح، ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ص ١٦٠.

ويقول ابن هُذَيْل في الزَّهْرَاءِ^(١):

كَأَنَّ حَنَائِيهَا جَنَاحًا مُصَفَّقِي إِذَا أَهْبَتْهُ الشَّمْسُ أَرْحَاهُمَا تَشْرَا

وتصوير ابن هُذَيْل للحنايا بأجنحة الطير توحى بأن ظاهرة التكرار لم تكن توحى بالرتابة والملل، بل لعلها كانت "مصدر بحجة متزايدة قد تبلغ حد الانتشاء أو الوجد".^(٢)

وكان البحث عن التفرّد والتفوّق هاجساً عند المعمار الأندلسي في قرطبة، وكان الشعر شاهداً على تفوّقها على سائر الأمصار^(٣):

بأربع فاقت الأمصار قرطبة جميع الحقوق محفوطة الوادي وجامعها
هاتان ثنّان والزَّهْرَاءُ تكاليف الجامعة والعلامة أنظم شيء وهو رابعها
مركز ايداع الرسائل الجامعية

بل ذهب الشعراء إلى أبعد من ذلك فميّزوا قرطبة عن سائر بقاع الأرض، ففي قصر الرُصافة يقول ابن فرناس^(٤):

كَأَنَّ قَصُورَ الْأَرْضِ بَعْدَ مَمَامِهِ نَتَوُّ الدُّرَى أَخْفَى شُخُوصاً مِنَ الدُّرَى

ويؤكد ابن شُخَيْص تفوّق بناء الزَّهْرَاءِ على سائر مباني الأرض في قوله^(٥):

(١) ابن الكّثاني، التشبيهات، ص ٧٨، شوابكة، شعر يحيى، ص ٨٤.

(٢) بيرغل، ج.ك، التشوة والانضباط في الفن الأندلسي: خطوات نحو مقرب جديد، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، في كتاب الحضارة

العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الجبوسى، ج ٢، ص ٨٩٣.

(٣) اللقري، التفتح، ج ١، ص ١٥٣، ونسها في الباب الرابع إلى أبي محمد بن عطية البخاري، ج ١، ص ٦١٦.

(٤) ابن حيّان، للقتيس (مكي)، ص ٢٢٩، حرر، صلاح، ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ص ١٦٠.

(٥) ابن الكّثاني، التشبيهات، ص ٧٥.

لقد جلا مصنع الزهراء عن أنس
فانت محاسنها بجهود واصفها
بل فضلها في مباني الأرض أجمعها
مؤخذ القدر عن مثل وعن مثل
فالقول كالسكت والإيجاز كالخطل
كفضل دولة بانيها على الدول

ويقول ابن العريف التحوي في المنية العامرية^(١):

فالعامة نزهة نزهة
وانت فيها كسيف
على جميع المباني
قد حل في غمدان^(٢)

كما أضفى بعض الشعراء لمسة شبيهة أسطورية على وصف القصور من خلال الموازنة بينها وبين
صرح سليمان متأثرين بما جاء عنه في القرآن الكريم، ومن ذلك قول الحسن بن حسّان^(٣):
جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز أيداع الرسائل الجامعية

أيبأى^(٤) سليمان بصرح ممرّد
وقصرك فيه كل صرح ممرّد

وقول الشاعر عبد الله^(٥) في الزاهرة^(٦):

محارب لو يسدو لبلقيس صرخها
لما كشفت ساقاً لصرح ممرّد

(١) للقرني، التفتح، ج ١، ص ٥٨٢ - ٥٨٣. وابن العريف هو أبو بكر حسن بن وليد بن نصر، من أهل قرطبة، كان فقيهاً في المسائل حافظاً للرأي، وكان نحوياً متقدماً، توفي بالشرق سنة (٣٦٧هـ). ترجمته في: ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ١، ص ١٣١.

(٢) في التفتح: ترمي، والصواب ما أثبت.

(٣) يقصد سيف بن ذي يزن وقصره غمدان في اليمن. [عبّاس، التشبيهات، الحاشية، ص ٨٠].

(٤) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٨٠.

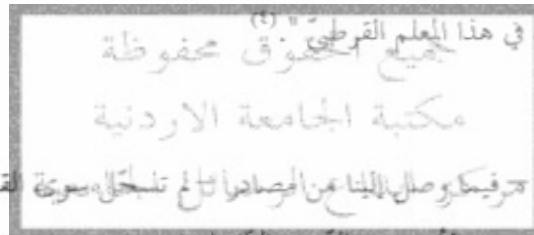
(٥) يابى: يفرح، [ابن منظور، لسان العرب، بابى].

(٦) هكذا ورد اسمه في كتاب التشبيهات، ولم يتعين للمحقق تعريفه.

(٧) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٧١.

وجدير بالذكر أنَّ هذه الملامح الفلسفية لفنّ العمارة في قرطبة موجودة في سائر المدن الأندلسية ، إلا أنَّ التفاف الشعراء حول حاضرة الخلافة، وقلة ما بين أيدينا من نصوص شعرية لم يسعفا في توضيح تلك الملامح، ولكنَّ المصادر تشير إلى إرسال المهندسين والبنّائين إلى مدن الأندلس المختلفة حاملين معهم الأسلوب القرطبيّ في البناء خارج أسوار مدينتهم العظيمة.^(١)

وقد تعدّدت أنماط العمارة في الأندلس من دينية ومدنية وحربية، وكان المسجد الجامع في قرطبة أبرز معالم العمارة الدينية في الأندلس قاطبة، وكان مفخرة من مفاخرها^(٢)، وقد احتلَّ مكانة سامية لم يعرفها مسجد في ذلك العصر أو العصور التي تلت؛ نظراً لأسلوب بنائه وزخرفته الجمالية الخاصة به، كما أنَّه "بفضل قيمته الذاتية المسجد الوحيد المؤسَّس في إسبانيا من وحي الرّوح المبدعة المتّفقة مع الطّبيعة"^(٣). وقد سجّلت المصادر التاريخية والجغرافية الكثير عنه حتّى بعد أن استولى المسيحيّون على المدينة، "وكأنما الذاكرة الجماعية الإسلامية - ولعلَّ الذاكرة المسيحية أيضاً - سلّمت من خلال



الحفاظ عليه، بوجود شيء فريد في هذا المعلم القرطبي"^(٤).
إلا أنَّ النصوص الشعرية ترفيكم وصل إلينا من المصادر التي لم تسجل سوى القليل عنه، ويشير أقدم نصّ شعريّ إلى أنَّ بناءه كان في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل في سنة (١٧٠هـ)، وفيه^(٥):

وأبرزَ في ذاتِ الإلهِ ووجهِهِ ثمانينَ ألفاً منَ لحينِ وعَسجدِ
وأنفَقها في مسجدِ زائِه التُّقَى وقَرَّبَ به دينُ النُّبيِّ محمَّدِ

^(١) يذكر ابن حيان في المقابس أنَّ الخليفة الناصر أرسل كبير المهندسين لديه مع عدد من أمهر البنّائين والتّحّارين والحفّارين والجبّارين والأشّارين والحلّادين والحصّارين لإعانة موسى بن أبي العافية في بناء قلعة حارة . انظر : ابن حيان ، المقابس (شالميتا) ، ص ٣٨٨ .

^(٢) انظر : المقري ، النسخ ، ج ١ ، ص ٥٤٥ - ٥٦٣ .

^(٣) موريسو ، مانويل جوميت ، الفنّ الإسلاميّ ، ص ١٦ ، ترجمة : لطفي عبد البديع والسيد محمود عبد العزيز سالم ، مراجعة : جمال محمّد عرزي ، الدّار للنشر والتّأليف والترجمة ، ١٩٦٨ م .

^(٤) غرابار ، أولغ ، نظرتان متضاربتان إلى الفنّ الإسلاميّ في شبه الجزيرة الإسبانيّة ، ترجمة : محمّد الأسد ، في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، سلمي الجبوسي ، ج ٢ ، ص ٨٤٨ .

^(٥) المقري ، النسخ ، ج ١ ، ص ٥٦١ ، ونسبه إلى دحية بن محمّد البلويّ ، كما ورد هذا القصّ في ج ٣ ، ص ٥٥ ، مع اختلاف في الرواية ، ودون نسبه إلى شاعر .

تَرَى الذَّهَبَ الْوَهَّاجَ بَيْنَ سُمُوكِهِ يَلُوحُ كَلَمَحِ الْبَارِقِ الْمَتَوَقَّدِ

ويبدو من الأبيات السابقة أنها جزء من قصيدة طويلة نظمها الشاعر بين يدي الأمير، وتعرضت للضياع كما ضاع الكثير من شعر ذلك العصر، وقد استند بعض المؤرخين إلى هذا النص للكشف عن أولية بناء الجامع ومؤسسه وتكاليف إنشائه، إلا أنه لا يقدم للقارئ أو الدارس صورة واضحة عن تكوينه العمراني كما وردت في المصادر الأخرى .

وقد تعرض الجامع للزيادة في العصر الأموي عدة مرات نتيجة ازدياد عدد سكان المدينة، وتطور فن العمارة، مع الرغبة في الحفاظ على هذا المعلم العمراني البديع سالماً من عادات الدهر .

ومما وصل إلينا من شعر في الزيادة الأولى في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة (٢٣٤ هـ) قول ابن المثنى^(١):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز أيداع الرسائل الجامعية

بَنَيْتَ لِلَّهِ عَمْرِيَّتَ يَحْرُسُ عَنْ وَصْفِهِ الْأَنَامُ
حُجَّ إِلَيْهِ بِكُلِّ أَوْبٍ كَأَنَّهُ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ
كَأَنَّ مَحْرَابَهُ - إِذَا مَا حُفَّ بِهِ - الرُّكْنُ وَالْمَقَامُ

ونص آخر لشاعر مجهول قال فيه^(٢):

بَنَيْتُ مَسْجِدًا لِلَّهِ لَمْ يَكُ مِثْلُهُ وَلَا مِثْلُهُ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ مَسْجِدُ
سِوَى مَا ابْتَنَى الرَّحْمَنُ وَالْمَسْجِدُ الَّذِي بَنَاهُ نَبِيُّ الْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدُ
لَهُ عُمُدٌ حُضْرٌ وَخُضْرٌ كَأَنَّمَا تَلُوحُ بِوَاقِيتٍ بِهَا وَزَبْرَجْدُ

(١) للقرني، التفح، ج ١، ص ٣٤٨ .

(٢) للصدر السابق.

ولا تكشف هذه النصوص إلا عن التّزّر اليسير من ملامح التّكوين العمرانيّ للجامع؛ إذ اعتمدت فيه الأعمدة المقوّسة الحمراء والخضراء المطلية بالذهب، وهو ملمح عمرانيّ مشترك في بناء المساجد والقصور، ويشير ابن المثنى إلى الخراب الذي بناه الأمير عبد الرّحمن الأوسط، " وهو على هيئة حنية عميقة الغور حيث كان يوضع المصحف الكريم لتلاوة القرآن في أيام الجمع، وكانت ممّا جرت به العادة أن يؤمّه الناس ويحفّون به، حتّى لقد أثرت الأقدام في الرّحام الذي يكسو أرضه ".^(١)

وعند العودة إلى النصّ الذي يشير إلى أوليّة بناء المسجد يلاحظ وعي الشّاعر الذّاتيّ التّابع من وعي جمعيّ متوارث عن حقيقة دور المسجد في التراث الإسلاميّ، وحضور المثال العمرانيّ الأوّل (مسجد قباء) القائم على أسس من الزّهد والبساطة والتّقشّف، إلا أنّه يقدّم تحليلاً ذهنيّاً تسويغيّاً تلفيقياً للخروج من مأزق التعارض بين مفهوم المسجد في الشّريعة الإسلاميّة، وهذا البذخ القائم بأمر من الحاكم بقوله:

جميع الحقوق محفوظة
وأبرز في ذات الإله
مركز أيداع الرسائل الجامعية

فالأموال الطّائلة التي بذلت في بناء المسجد إنّما هي في سبيل الله، وهكذا يحوّل الشّاعر خطابه من خطاب شعريّ فنّيّ إلى خطاب سلطويّ يذّاق عن سياسة الحاكم في إنفاق مال المسلمين، ما دام المسجد " زانه التّقى " و " قرّ به دين التّيّ محمّد "، فيستثير العواطف في النفوس، ويستحضر في وعي الأمة الخطاب القرآنيّ الأسمى (لمسجد أسّس على التقوى من أوّل يوم أحقّ أن تقوم فيه)^(٢).

ويلاحظ من خلال التّصنيّن المنظومين في عهد الأوسط وجود روح المنافسة مع المشرق، وهو إحساس عزّزته سياسة هذا الأمير في إدارة شؤون البلاد، وظهرت هذه الرّوح من خلال المقاربة بين هذا الجامع في أقصى أطراف العالم الإسلاميّ والمسجد الحرام والمسجد النبويّ في قلبه. ومع أنّ مسجد قرطبة

(١) مورينو، الفنّ الإسلاميّ، ص ١٥٨.

(٢) سورة التوبة، آية ١٠٨.

يتفوق في عمارته وجماله الفتى على المسجدين الأعموديين في التراث العربي الإسلامي، إلا أن الشعراء لم يجرؤوا - حتى ذلك الحين - على التصريح بتفوق بنائه عليهما، بل اكتفوا بالإيحاء إلى ذلك .

إلا أن هذا الأمر اتخذ خطوة حاسمة علنية فيما بعد؛ إذ بدأ الشعراء في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن يعلنون تفرد الأندلسيين وتفوقهم في بناء جامعهم، وفي ذلك يقول ابن فرناس^(١):

محمد خير مُستَرعى ومُؤتمن للمسلمين جميعاً حيثما كانوا
بن لهم مسجداً جلت عجائبه لولا السماء لما ضاهاه بنيان

ويقول مؤمن بن سعيد^(٢):

جميع الحقوق محفوظة
لعمري لقد أبدى الإمام التواضع
بن مسجداً لم يُبنى في الأرض مثله
جامع الروصائل لجامع أبي العرش راعا

ويبدو أن جهود الأمير عبد الرحمن الأوسط قد آتت أكلها على نحو ما، وبدأ الأندلسيون يشعرون باستقلالهم وتفردهم وتميزهم، مما شكّل دفعا قويا لفن العمارة في ذلك العصر .

وجدير بالذكر أن تلك الزيادات في جامع قرطبة لم تكن الوحيدة في ذلك العصر؛ إذ تشير المصادر إلى بناء الصومعة العظيمة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة (٣٤٠ هـ)، كما تشير إلى الزيادة في عهد ابنه الحكم المستنصر سنة (٣٥٤ هـ)، والزيادة الأخيرة في عهد المنصور بن أبي عامر سنة (٣٧٧ هـ)، ولا بد أن الشعر قد احتفى بها جميعاً، ولعلّ التصوص ضاعت مع ما ضاع من شعر ذلك العصر ومصادره .

(١) ابن حيان ، المقتبس (مكّي) ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ، جرّار ، صلاح ، ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس ، ص ١٧١

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢١ ، ابن عذاري ، البيان للغرب ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

(٣) ورد هذا البيت في تاريخ ابن القوطية منسوباً إلى قومس بن أتيان الصراي . ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ١١٥ .

وقد تأثرت مختلف أنماط العمارة في ذلك العصر بعمارة المسجد الجامع في قرطبة^(١)، ومع وجود الكثير من المساجد والمصليات في مختلف أنحاء الأندلس، واهتمام الحكام بعمارتهما وتحديدًا وإصلاحهما، إلا أن ما بين أيدينا من نصوص شعرية يخلو من أي إشارة إليها، ولا سيما مسجد "تُطِيلَة" في الثغر الأعلى بِسَرَقُسطَة الذي "يقوق بروعته الفن القرطبي المعاصر له"^(٢)، وقد كان لمركَبة السَلْطَة الأموية في قرطبة دور كبير في الاحتفاء بجامع قرطبة أكثر من سواه.

وبلاحظ - كذلك - خلوّ النصوص الشعرية من الإشارة إلى العمارة الدنيئة التصرايئة التي تأثرت هي الأخرى بفن العمارة الإسلامية، إلا أن هذا لا يعني أن الشعراء لم يحفلوا بتسجيل معالمها، ولا سيما مع ما شهده ذلك العصر من حسن حوار بين المسلمين والتصارى، بالإضافة إلى الدور الذي ساهم فيه المستعربون في بناء الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس.

وقد أكثر الأمراء والخلفاء الأمويون من ابتناء القصور والمحلى والمنشآت، واتخذوا قصر (قرطبة) داراً للخلافة ومجلساً لإدارة شؤون الحكم وظل كذلك حتى قام الفتنة البربرية سنة (٤٠٣ هـ).
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وفي أرباض قرطبة بنوا المنى، واتخذوها سكناً لهم ولأهلهم وحاشيتهم، وأحاطوها بالحدائق الغناء، وزرعوا فيها مختلف أصناف الثمار والأزهار. وبعد هذا التمتع من العمارة "السابقة الأولى في العصور الوسطى التي انتبقت عنها أبنية القصور الريفية والإقامة فيها في العصور الحديثة"^(٣).

وكان قصر (الرُصافة) - الذي بناه عبد الرحمن الداخل لنزهته وسكنه أكثر أوقاته - من أشهر تلك القصور، وهو من القصور الأثيرة عند الأمراء الأمويين، ولا سيما الأمير عبد الله بن محمد،

(١) لسليزيدي، انظر: سالم، السيد عبد العزيز، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، ج ١، ص ١٦ - ١٨، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.

(٢) مورينو، الفن الإسلامي، ص ٦٧.

(٣) بدر، أحمد، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها (من الفتح حتى الخلافة)، ص ١٥٩، الطبعة الثانية، دمشق، ١٩٧٢ م.

وقد زادوا في عمارته حتى نافس قصر قرطبة فخامة وأبهة، وظلّ بعد سقوط الدولة الأموية منتدئاً للأدباء وملثقيّ للشعراء، وقد ذكره الأمير محمد بن عبد الرحمن حين خرج غازياً متشوقاً إليه^(١):

سقى القصر غيثاً بالرّصافة مثله وجادت عزاليه كجودي في الجذب
عـلاني علو عن حبيب، فزرتة يبحش تضيق الأرض عن عرضه الرّحب

وقال فيه مؤمن بن سعيد^(٢):

يا حبّذا أرض الرّصافة منـزلأ لقـي القواذ بذكره ما لاقى

ولم يكتفِ الأمويون بالرّصافة، إنّما بنّوا قصوراً فخامة وأبهة، ولا سيما قصر (الزّهاء)، و (الزّاهرة)، و (المنية العامرية)، وقد سكّبت الإشارة إلى ذلك^(٣) في مركز أيداع الرسائل الجامعية

وكانت القصور سكنى الوزراء وأكابر أهل الخدمة كذلك، وقد وردت إشارات في الشعر إلى بعض أسماء تلك القصور، ولا سيّما في شعر ابن زيدون بعد رحيله عن قرطبة^(٤)، ومنها (الجوسق النّصري) الذي كان لتصرّ الخصي مولى عبد الرحمن الأوسط، وقد ذكره ابن زيدون في قوله^(٥):

وكانتْ عَدَوْنَا - مُصْعِدِينَ - إِلَى الْجَسْرِ
إِلَى (الْجَوْسَقِ النَّصْرِيِّ) بَيْنَ الرَّبَا الْعَفْرِ

(١) ابن الأثير، الخلة، ج ١، ص ١٢٠.

(٢) للتحالي، التيمية، ج ٢، ص ٢٤.

(٣) انظر ص ١٣٥-١٣٦.

(٤) انظر: سالم، السيّد عبد العزيز، معالم قرطبة في شعر ابن زيدون، في كتاب بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، ج ٢،

ص ١١٥-١٢٨.

(٥) ابن زيدون، الديوان، ص ١٣٥.

كما اتخذ نصر لنفسه منية عرفت بمنية (نَصْر)، وقد انتقلت إلى زرياب بعد موته، ثم آلت إلى الأمير عبد الله، كما اتخذها الحكم المستنصر داراً للسكن عندما كان ولياً للعهد، وكانت له منية أخرى أهدها إياه فتاه الكبير دري الخازن.

ومن أسماء القصور الأخرى - التي وردت في شعر ابن زيدون - المنية (الجعفرية) أو (المصنعية) التي بنيت في عهد الخليفة المستنصر ليقيم فيها حاجه جعفر بن عثمان المصنف، ومنية (العقاب)، كما وردت إشارة إلى قصر (ناصح) في قوله^(١):

وأحسِنَ بآيَامِ - عَمَلُونَ - صَوَالِحِ
(بمصنعة الدُّولابِ) ، أو قصر (ناصح)

وقد امتازت تلك المنى باعتدال هوائها، وطيب موقعها، وكان الخلفاء ينزلونها للترويح أو الاستشفاء. وتذكر المصادر أن المستنصر نزل قصر ناصح بعد إبلالة من مرضه سنة (٣٤٦ هـ) بعد أن نصحه الأطباء بمغادرة قصر الزهراء المقام على جبل مرتفع^(٢)، وقد احتفى به الشعراء بعد عودته، ونما قيل في ذلك^(٣):

ويا لمرورِ القصرِ يومَ حَلَّتْهُ
وكان زماناً من حُلُولِكَ مُفَرِّداً
مَشْهُوقاً إلى الوجهِ السَّيِّئِ الَّذِي إِذَا
بدا قِيلَ ضوءُ الشَّمْسِ هذا الَّذِي بدا

وفي اعتدال هواء العامرية يقول عمرو بن أبي الحباب^(٤):

(١) ابن زيدون، الذويان، ص ١٣٥ .

(٢) ابن حيان، للفتيس (الحنفي)، ص ٢١١ .

(٣) المصدر السابق، والأبيات لمالك بن حسن بن عيسى .

(٤) ابن خاقان، للمطمح، ص ٣٩٥، ابن عذاري، البيان للغرب، ج ٢، ص ٢٧٧، المقرئ، التفتح، ج ١، ص ٥٨١ .

لا يـوم كاليـوم في أيامك الأول
هواؤها في جميع الدهر معتدل
ما إن يُـبالي الذي يحتل ساحتها
بالعامرية ذات المَاء والظُّلل
طيباً وإن حلَّ فصلٌ غير معتدل
بالسَّعدِ ألاَّ تحلَّ الشمسُ بالحملِ

وقد بنيت القصور والني على طراز عمريّ متشابه، إذ اعتنى الأمراء - ولا سيّما الأوسط وابنه محمد - بتشبيد المجالس في قصر قرطبة متخذين لكل منها اسماً، مثل: الزّاهر، والبهر، والكامل، والمنيف، والمجدد، والحائر، والمعشوق، المبارك، والسُّرور، وغير ذلك من الأسماء. وقد وردت الإشارة إلى بعضها في قول الحسن بن حسّان^(١):

رشيقي ومعشوق ومو زاهر
وعليّة تُدعى المنيف كأن جميع الحقوق
بمجالس طالت في السَّماء وأشكرت الجامعيّة
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وفي وصف مجلس للمنصور يقول الوزير الجزي^(٢):

وعلى يمينك سوسنات أطلعت
فكأنما هي في اختلاف رُقومها
زهر الربيع منهن حسناً تشرق
رايات نصرِكَ يومَ بأَمِكَ تخفقُ
في مجلس جمع السُّرور لأهلِهِ
ملكٌ إذا جُمعت قناه يفرقُ

(١) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٨٠. والشاعر هو أبو علي الحسن بن حسّان المعروف بالسُّنّاط، شاعر مشهور مقدّم مكثر، كان في أيام الخليفة الناصر. ترجمته في: الحميدى، الخفوة، ص ١٩٦.

(٢) المقرئ، التفتح، ج ١، ص ٥٣٠.

وفي وصف مجالس الزهراء^(١) يقول الرمادي^(٢):

فيها مجالسٌ مثلُ الخورِ قدُ فرشتُ فيها الرياضُ ولم يحلُ بها مطرُ

وكانت الأعمدة المقوسة المصقولة من أبرز ما اشتملت عليه تلك المجالس، وفي أعمدة قصر قرطبة يقول الحسن بن حسّان^(٣):

ومن عمُدِ نزهي بماءٍ محاسنٍ يصوبُ عنه كلُّ طرفٍ مُصعَّدِ
حكّتْ حرَّها الياقوتُ والدرُّ بيضُها ومن خضبرها اشتقَّ احضرارُ الزبرجدِ

وفي الأقواس والأعمدة يقول محمد بن الحسين الطائري^(٤) في محفظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز أيداع الرضا في الجامعة
فكانتْ أهْلُهُ يَهْوُهُ عَقْدُ الشُّوفِ عَلَى خُدُودِ الْخُرْدِ

من تحيتها عمُدٌ كأنَّ فريدها من جوهرٍ ولآلي وزبرجدِ
تحكي الحسانَ قدودُها لكنها في خلقها ليست بذاتِ ثأودِ

وقد امتازت الأعمدة بالارتفاع والأقواس بالدقة في قصر الرصافة كذلك، وذلك ما نلمسه في قول ابن فرناس^(٥):

^(١) قال التويري في وصف مجلس الزهراء: "ومن غريب ما بناه فيها مجلس مشرف على البساتين، مرفوع على العمدة، مبني بالرخام المخزوع، مصفح بالذهب، مرصع بالياقوت والجواهر. وصنع أمسام المجلس بحراً ملاء بالزئبق فكان النور ينعكس منه إلى المجلس". التويري، نهاية الأرب، ج ٢٣، ص ٣٩٨، تحقيق: أحمد كمال زكي، مراجعة: محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠.

^(٢) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٧٣، حرّار، شعر الرمادي، ص ٧٠.

^(٣) المصدر السابق، ص ٧٩-٨٠.

^(٤) المصدر السابق، ص ٧٢.

^(٥) المصدر السابق، ص ٧٢، حرّار، صلاح، ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ص ١٦٠.

حنـايا كأمثالِ الأهـلةِ رُكِّبَتْ على عمدٍ تُعْتَدُ في جوهرِ البـدرِ
كَأَنَّ مِنَ الْيَاقُوتِ قِيسَتْ رُؤُوسُهَا على كلِّ مَسْنُونٍ مَقِيضٍ مِنَ السَّـدْرِ

وقول مؤمن بن سعيد^(١):

بِحَالِـسٍ يُرْضِي الْعَيْنَ إِفْرَاطُ حُسْنِهَا كَأَنَّ حَنَايَاهَا أَقْوَاسُ خُـرْدِ
عَلَى عُمْدٍ لِلدَّرِّ أَبْشَارُ بَعْضِهَا وَأَبْشَارُ بَعْضِ حُسْنِهَا لِلزَّبْرِ جَدِ
وَأُخْرَى مُقَانَاةُ الْبِيضِ بِحُمْرَةٍ كَحَمْرِ الْغَضَا فِي لَوْنِهِ الْمُتَوَقَّدِ
وَلَا بَسْـوَةَ وَشْيًا كَأَنَّ رَقِيقَهُ رَقِيقُ الْهَشَامِيِّ الْعَتِيقِ الْمَسْرُودِ

وفهم من الأبيات السابقة أن ألوان أعمدة القصرين كانت مزيجاً من الأبيض والأحمر والأخضر،
أما أعمدة الزهراء والزاهرة فيبدو أنها كانت مصنوعة من الرخام الأبيض فقط، وتكرر أسلوب الأقواس
في بنائها كذلك . وفي الزهراء يقول ابن شحَّص^(٢):

كَادَتْ قِيسِي الْحَنَايَا أَنْ تُضَارِعَهَا أَهْلَةُ السَّعْدِ لَوْلَا وَصْمَةُ الْأَفْلِ
تَأَلَّفَتْ فَعْدَا نُقْصَائُهَا كَمَلًا وَرَبَّمَا تَنْقُصُ الْأَشْيَاءُ بِالْكَـمْلِ
أَوْفَى سَنَاهَا عَلَى أَعْلَى مَفَارِقِهَا مِنْ لَوْلُو حَالِيَاتِ الْخَلْقِ بِالْعَطَلِ

ويقول من قصيدة أخرى^(٣):

كَأَنَّ حَنَايَاهَا الْأَهْلَةُ وَافَقَتْ سَعُودَ الْجَارِي فَاسْتَرَدَّتْ كَمَالَهَا

(١) ابن الكفائي، التشبيهات، ص ٦٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٣) المصدر السابق، ص ٨١ .

وفي أعمدة دار السرور بالزهاء يقول ابن درّاج^(١):

قامت على عمُد الرّحامِ كمثلِ ما نُسِقتْ نجومُ النّظْمِ في حوزائها
بمقابلِ مَنْ مُلتقى أرواحِها ومُشاكِه من سفلها وعلائها
ككتيبي رَحْلٍ ورُكُوبٍ وافقت يومَ الوغى مثلي في أكفائها

ويصفها عبد السلام بقوله^(٢):

كأنما عمُدُ الأبهاءِ إذْ برَزَتْ سوقُ تبدّتْ من الأنوارِ مُنَحْبرَةٌ

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ويقول فيها عبد الله^(٣):

على عمُدٍ يحكي طُلَى الغيدِ حُسنُها كأنّ حناياها أهلةٌ أسعدُ

وعند السّنظر في الأبيات السابقة يلاحظ أنّ تكرار أسلوب العمارة نفسه في مختلف الأعمدة والأقواس قد أثار في صور الشعراء وطرائق تعبيرهم عن هذه التجربة الجمالية الماثلة أمامهم، فاستوقفهم الألوان في أعمدة قرطبة، واللمس الصّقيل لأعمدة الزّهاء والزّاهرة، وتشبيها بقدود الحسان، وتشبيه الأقواس بالأهلة أو بحواجب الخرد.

(١) ابن الكّثاني، التشبيها، ص ٧٠، ولم ترد هذه الأبيات في ديوانه .

(٢) المصدر السابق، ص ٧١ .

(٣) المصدر السابق .

وقد أدى أسلوب العمارة هذا إلى تجاوب الصدى داخل المباني، وهي ظاهرة تنبّه لها الشعراء وسجلوها في شعرهم، ومن ذلك قول الحسن بن حسّان في قصر قرطبة^(١):

كَأَنَّ صَدَى الْأَنْفَاسِ بَيْنَ صَحُونِهَا أَهَازِيحُ تُرْنِمُ الْحَمَامِ الْمَغْرُورِ
كَأَنَّ الْهَوَى قَدْ شَفَّهَا وَكَأَنَّهَا صَدَاها شَهيقٌ فِي جَوَابِ التَّنْهِيدِ

وفي انتشار أخفت الأصوات في الرُصافة يقول ابن فرناس^(٢):

يَنِمُّ بِأَخْفَى سِرِّهَا غَيْرَ كَاسَاتِمٍ صَدَاها فَأَخْفَى السِّرَّ فِيها مِنَ الْجَهْرِ
كَأَنَّ الَّذِي يُخْفِي الْحَدِيثَ بَنَجْوَاهَا عَلَى أَخْفَى الْأَصْوَاتِ يَشْدُو عَلَى وَثَرِ

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية
وفي الزاهرة يقول ابن هُذَيْل^(٣):

تَبُوخُ بِأَسْرَارِ الْحَدِيثِ كَأَنَّهَا وَشَاةٌ بِتَنْقِيلِ الْأَحَادِيثِ تُوَلِّعُ

ويصفها عبد الله قائل^(٤):

تُزَانُ بِأَقْبَاءِ يُغَرِّدُ بَيْنَها صَدَاها كَتَغْرِيدِ الْحَمَامِ الْمَغْرُورِ
إِذَا خَفَضَ الشَّادِي بِهَا فَكَأَنَّهَا يُؤَدِّي إِلَى الْأَسْمَاعِ قَاصِفَ مُرْعِدِ

(١) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٨٠.

(٢) ابن حيان، المقتبس (مكي)، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٣) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٧٧، شوابكة، شعر يحيى، ص ٩٦.

(٤) المصدر السابق، ص ٧٠.

كما وفّرت عبقرية المعمار الأندلسي في تصميم تلك الأعمدة المقوّسة ضوءاً طبيعياً نهاراً ،
بالإضافة إلى إضاءتها بالسّرج ليلاً، وقد وصف ابن فرناس سنا قصر الرّصافة السّجّسي^(١) في قوله^(٢):

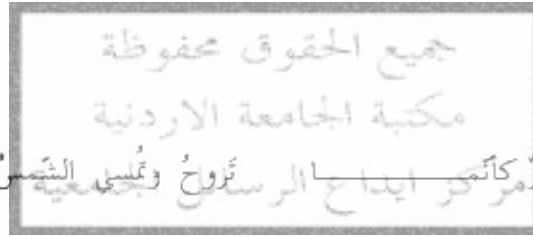
نُورُ الضُّحَى ضَا فِي الْعُـلَا سَجَّجَ السَّنَا نُضِيءُ بِلَا شَمْسٍ عَلَيْهَا وَلَا بَـ____دِرْ

ويقول الحسن بن حسّان في انتشار الضّوء بين أعمدة القصر^(٣):

يَجُولُ السَّنَا فِيهَا مَـ____جَالُ الشَّعَاعِ فِي صَفِيحَةِ سَيْفِ الصَّيْقَلِ الْمَتَقَلَّدِ

وفي إضاءته ليلاً يقول^(٤):

ظِلَامُ الدُّجَى فِيهَا نَهَارٌ كَأَنَّمَا كَانَتْ أَيْدِي الرُّسُلِ وَتُـلِـيـسـي الشَّمْسُ فِيهَا وَتَغْتَمُـدِي



وفي الزّهاء يقول ابن زيدون^(٥):

مَقَاصِيرُ مُلْكٍ أَشْرَقَتْ جَنَابُهَا فَحَلَلْنَا الْعِشَاءَ الْجَوْنَ أَثْنَاءَهَا صُبْحَا

ويقول ابن هُذَيْل في إنارة الزّاهرة معروضاً بكثرة أبوابها^(٦):

(١) السّجّج : لاظلمة فيه ولا شمس. [ابن منظور ، لسان العرب ، سجّج] .

(٢) ابن حيّان، المقتبس (مكّي)، ص ٢٣٠، حرّار، صلاح، ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ص ١٦١ .

(٣) ابن الككّاني، التشبيهات، ص ٨٠ .

(٤) المصدر السابق، ص ٨٠ .

(٥) ابن زيدون، الدّيون ، ص ١٦٠ .

(٦) ابن الككّاني ، التشبيهات ، ص ٧٧ ، شوابكة، شعر يحيى، ص ٩٥ .

تَرَى نُورَهَا مِنْ كُلِّ بَابٍ كَأَنَّمَا سَنَا الشَّمْسُ مِنْ أَبْوَابِهَا يَتَقَطُّعُ

وكان لطلّاء غرف القصور والمنى باللون الأبيض أثر في إضفاء المزيد من الإنارة والسّعة. يقول عباس بن فرناس في قصر الرّصافة^(١):

لَهَا الْغُرْفُ الْبَيْضُ الَّتِي يَضْحَكُ الضُّحَى وَتُلْجِفُهَا مِنْ نُورِهَا فِي سَنَا الْغُرُرِ

ويقول ابن عبد ربّه في وصف مئنة كنّش^(٢):

تَرَى الْمُنْيَةَ الْبَيْضَاءَ فِي كُلِّ شَارِقٍ تُلْبَسُ وَجْهَ الشَّمْسِ ثَوْبًا مُعَصَّفًا رَا
إِذَا سَـ دَلَّتْ سِتْرًا عَلَى كُلِّ كَوْكَبٍ كَبَا نُورُهُ مِنْ نُورِهَا فَتَسْتَرَا
فَإِنْ عَذَرَتْ شَمْسُ الضُّحَى فِي مَحْوَرِهَا الرُّسُلُ عَلَى الْجَوِّ كَانَتْ الْقِيَّةَ صَرُّ فِي الشَّمْسِ أَعْذَرَا

وقد ألحقت بتلك القصور العديد من المباني لسكنى أكابر رجال الدّولة وحاشية السّلطان، وفي المباني الملحقة بالزّاهرة يقول ابن هُدَيْل^(٣):

كَأَنَّ الدَّكَائِنَ الَّتِي اتَّصَلَتْ بِهَا صَفَائِحُ كَافُورٍ تَضِيءُ وَتَسَطُّعُ

(١) ابن حيّان، المقتبس (مكّي)، ص ٢٢٩، حرّار، صلاح، ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ص ١٦٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤٢، الدّاية، ديوان ابن عبد ربّه، ص ٦٨.

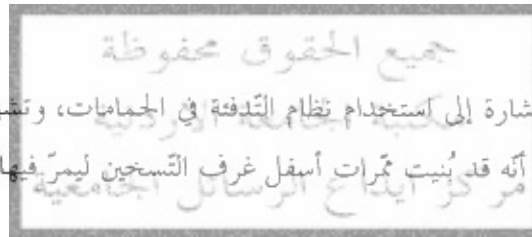
(٣) ابن الككّاني، التشبيهات، ص ٧٧، شوابكة، شعر يحيى، ص ٩٦.

وقد مثل تنظيم قرطبة (الزهراء) و (الزاهرة) قمة فن العمارة الأندلسي، إلا أن ما بين أيدينا من نصوص شعرية لا يسعف بإلقاء مزيد من الضوء على ذلك التنظيم الذي بلغ غاية الإتقان حتى في بناء الحمامات والمراحيض في تلك القصور^(١)، ومن المقطوعات الشعرية النادرة في هذا الباب - في المصادر التي أطلعت عليها - مقطوعة لابن شهيد، وقد نظمها لما أخلى حمام داره للمنصور بن أبي عامر لبنيان عرض في حمام المنصور منعه من دخوله، فقال مرحباً^(٢):

يا حُسْنَ حَمَامِنَا وَقَدْ غُـرِّبَتْ شمسُ الضُّحَى فيه بعدما مَتَّعَا

ومنها قوله^(٣) :

نِيرَانُهُ مِنْ زِنَادِكُمْ قُـدِ دَحَتْ وماؤُهُ مِنْ بَنَانِكُمْ تَبَعَا



وفي البيت الأخير إشارة إلى استخدام نظام التدفئة في الحمامات، وتشير الآثار الباقية من قصور قرطبة إلى يومنا هذا إلى أنه قد بُنيت تُمَرَات أسفل غرف التسخين ليمرّ فيها البخار ويشيع الدفء في المكان^(٤).

أما المقطوعة الشعرية الثانية فكانت في بناء حمام للمنذر بن يحيى التُّجِيبِي. يقول ابن درّاج مقدِّماً صورة أوضح لنظام بنائها واستخدام المياه فيها^(٥):

(١) أُنَاحَتِ الحَفَائِرُ الَّتِي قَامَ بِهَا عُلَمَاءُ الْآثَارِ فِي الزَّهْرَاءِ وَالزَّاهِرَةِ الْفُرْصَةَ لِلإِطْلَاقِ عَلَى نِظَامِ بِنَاءِ الْحَمَامَاتِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ . انظر: موريو، الفن الإسلامي، ص ٨٣ و ٢٠٠، جرّار، صلاح، الحمامات في الأندلس، بحلة الفصيل، ع ٤٠، آب/ أغسطس - سبتمبر/ أيلول، الرياض، ١٩٨٠م، ص ١٢٨-١٣٢.

(٢) ابن بسّام، الذخيرة، مج ١، ص ٢٣٤، التويري، لحماية الأرب، ج ١، ص ٤١٥، ديب، ديوان ابن شهيد، ص ٩٢.

(٣) ورد هذا البيت عدا المصادر السابقة في: العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الأندلس والمغرب)، ج ٢، ص ٦٤٠، تحقيق: آذرنوش، تونس، ١٩٦٦-١٩٧١.

(٤) انظر: موريو، الفن الإسلامي، ص ٢٠٠.

(٥) ابن درّاج، الديوان، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

وتدفقت فيه المياه كما حــــرى
متألف الأضداد إلا أنه
فكان سيفك في يمينه شــــادة
وكأنما يسري لمثعب مائــــه
متفرج الأبواب عن صحنــــى نوى
في كفك الإفضال والإنعام
فيه طباع زمانه أقســــام
حتى التقى فيه ندى وضــــرام
ديم يُخالط برقهن غمــــام
فيه الصبح وشرد الإظلام

وكانت هذه الحمامات مقصورة على الخلفاء وأهلهم وحاشيتهم وأكابر رجال الدولة والموسرين، أما عوام الناس فكانوا يستخدمون الحمامات العامة المنتشرة في أرجاء قرطبة وسائر مدن الأندلس، " وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه، فيطويه هائماً ويتنازع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها " ^(١)

جميع الحقوق محفوظة

ولم تحفظ المصادر التي اطلعنا عليها على أي نص شرعي يكشف جانباً من تصميم الحمامات العامة في ذلك العصر، ومن الإشارات النادرة التي ستلك الحمامات في ذلك العصر نص شرعي لابن المَعْلَس يتحدث فيه عن مشهد اختلاط الناس في الحمامات دون تمييز، واستمتاعه الشديد بتنظيف جسده، وفيه يقول ^(٢):

ومنزل أقوام إذا ما اغتــــدروا به
يخالط فيه المرء غير خليــــطه
يفرج كربي إن تزايد كــــربه
إذا ما أعرت الحوض ماء تكائــــرت
تشابه فيه وغدّه ورئيســــه
ويضحى عدو المرء وهو جليــــم
ويونس قلبي أن تُعد أنيســــه
على مائه أقماره وشموســــه

(١) المقرئ، التفح، ج ١، ص ٢٢٣.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٣.

أما المياه فقد وصلت إلى القصور والمنازل منذ عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، فمُدت القنوات لإيصال المياه الصالحة للشرب والاعتسال^(١). كما أجرى الحكم المستنصر الماء " إلى سقايات الجامع والميضأتين اللتين مع جانبيه : شرقيّه وغربيّه، ماءً عذباً جلبه من عين جبل بقرطبة، فرّق له الأرض، وأجرّاه قناة من حجر متقنة البناء، محكمة الهندسة، أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كلّ دنس"^(٢)، وقد سجل ابن شُحَيْص هذه الحادثة في قوله^(٣):

وقد خَرَقَتْ بطون الأرض عن نُطْفِ
طُهِرَ الجسوم إذ زالت طهارئُها
مِنْ أعذب الماء نحو البيت تُخْرِها
ريُّ القلوب إذ حَرَّتْ صَوادِيها
فررت فخرأ بأجر قل ما اقتـرنا
في أمة أنت راعيها وحاميها

وساعدت وفرة المياه وسهولة وصولها إلى القصور في بناء المنشآت وإحاطتها بساتين غناء تُطرب الرّوح، وتستميل العين، وتشتف الأذن، وتدغدغ المشاعر والأحاسيس. وفي بساتين قرطبة يقول ابن عبد ربّه^(٤):

تُخَفُّ به جناتُ دنيا تُعْطَفُ
مُطَبِّقَةُ الأفنان طَيِّبَةُ الثُّرى
لصائغ في الحَلْي شاتيةٌ عَطْلَى
مُحَمَّلَةٌ ما لا تُطِيقُ له حَمَلًا

ويشير ابن فرناس إلى اصطناع العرائش في بساتين الرّصافة اتّقاءً لحرّ الصّيف في قوله^(٥):

وَأَعْجَبُ مِنْ أَفْيَانِهَا الْعُـرُ الرُّ الَّتِي
يَقِيلُ بِهِنَّ الْبَرْدُ فِي وَغْرِ الْحَرِّ

(١) انظر: المقرئ، ج ١، ص ٤٦٤ .

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١، ص ٢٤٠ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) ابن الكّثاني، التشبيهات، ص ٧٤ ، الدّاية، ديوان ابن عبد ربّه، ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٥) ابن حيّان، المقتبس (مكّي)، ص ٢٢٩، حرّار، صلاح، وصل إلينا من شعر عبّاس بن فرناس، ص ١٦٠ .

وفي جوٍّ من الدَّعة والهدوء التَّنسيّ ينقل لنا ابن هُدَيْل تَوْهَجاً حَسَبَ جَمَالِيَّاً بَعِيداً عَنْ شَفَافِيَةِ
الرُّوحِ فِي وَصْفِ بَسَاتِينِ الزَّاهِرَةِ بِقَوْلِهِ^(١):

فَلَمَّا نَشَا النُّوَارُ فِيهَا ظَنَنْتُهَا _____ قِبَابُكَ يَا مَنْصُورُ حِينَ تُرْفَعُ
وَلَمَّا اكْتَسَتْ أَغْصَانُهَا خَلَّتْ أَتْلُهَا قِيَانُ بَزِيٍّ أَخْضَرٍ تَتَقَنَّعُ
وَلَمَّا تَنَاهَى طَيْبُهَا وَتَمَايَلَتْ عَلَيْنَا حَسِبْنَاهَا حَبِيباً يُودَّعُ

ولم يكتفِ الخلفاء وأكابر أهل الدولة وأغنياؤها بتأنيق دور سكناهم والإفراط في تحميلها وخلع
مظاهر الأبهة والفخامة عليها، إنما بنوا المقابر الخاصة الفخمة لدفن موتاهم قرب القصور، وكأنهم لا
يريدون مغادرة هذه الجنة الأرضية فتركوا لرفاههم فرصة الاستمتاع بالكوثر قربها. وفي نقد هذا التفخيم
في البناء يقول الغزال^(٢):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

أَرَى أَهْلَ الْيَسَارِ إِذَا تُوفِّيَتْ رَأْسُكَ تِلْكَ الْمَقَابِرِ بِالصَّخْرِ
أَبَوْا إِلَّا مَبَاهَةً وَفَحَرَا عَلَى الْفَقْرِ رَأْسُكَ فِي الْقَبْرِ

أَمَّا عَامَّةُ النَّاسِ فَقَدْ كَانُوا يُدْفَنُونَ بِمَقَابِرِ الرِّبْضِ قَرِبَ النَّهْرِ، وَلَمْ تَكُنْ بَعِيدَةً عَنْ تِلْكَ الْقُصُورِ
وَالْمَنَى، وَقَدْ لَفَتَتْ هَذِهِ الْمَفَارِقَةُ السَّاحِرَةَ انْتِبَاهَ الْغَزَالِ فَقَالَ مَخَاطَباً نَصْرًا الْخَصِيَّ فَيَ الْأَمِيرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ
الْأَوْسَطِ^(٣):

أَيَا لَاهِيَا فِي الْقَصْرِ قُرْبَ الْمَقَابِرِ يَرَى كُلُّ يَوْمٍ وَارِداً غَيْرَ صَادِرٍ
كَأَنَّكَ قَدْ أَيْقَنْتَ أَنَّ لَسْتُ صَانِئاً غَدَاً بَيْنَهُمْ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْخَفَاثِرِ

٥٦٩١٣٢

(١) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٧٨، شوابكة، شعر يحيى، ص ٩٦.

(٢) المقرئ، النفع، ج ٢، ص ٢٥٦، الداية، ديوان الغزال، ص ٨٥-٨٦.

(٣) ابن حيّان، المقتبس (مكي)، ص ١٢، ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ٢٥٨، الداية، ديوان الغزال، ص ٨١-٨٢.

ولا يوجد - فيما اطلعت عليه من مصادر - نصّ شعري يلقي ضوءاً على منازل عامّة الناس أو شيئاً من محتوياتها أو تصميمها، ولكنّ بعض الدراسات تشير إلى أنّ القصور والدور في قرطبة تأثّرت بعمارة الجامع وأسلوب تصميمه، كما سبقت الإشارة إلى ذلك^(١)، وكذا الحال في أسواق قرطبة وشوارعها وبيمارستاناتها.

وكثرت في قرطبة وسائر مدن الأندلس القناطر والجسور، وتعدّ قنطرة قرطبة "إحدى غرائب الأرض في الصّناعة والإحكام"^(٢)، وكانت القناطر والجسور تبني على حنايا، وتستخدم لعبور الناس والأهمل والدوابّ، ومن الإشارات القليلة الواردة عن القناطر والجسور قنطرة طليطلة التي هدمها الأمير محمّد سنة (٢٤٤ هـ)، وفي ذكر هذه الحادثة يقول ابن فرناس^(٣):

ما كان يُبني في الله قنطرةً أضحت سبيلَ كتائب الكُفْرِ
جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مرکز أبحاث الرسائل الجامعية

وكمّ مشهدٍ عند "العقيق" وجسره
فعدّنا على حُمُر التّباتِ وصفّره

ومن معالم العمارة المدنيّة في الشّعر الفنادق، وكانت - في أغلب الأحيان - بناءً متواضعاً يتكوّن من عدّة غرف خالية من الأثاث، وليس فيها سوى غطاء يتدبّر به المسافر وحصير ينام عليه.

(١) انظر ص (١٥١) من هذا المبحث.

(٢) المقرئ، التفح، ج ١، ص ٤٦٠.

(٣) ابن حيّان، المقنيس (مكي)، ص ٣٠٧، المقرئ، التفح، ج ١، ص ١٦٢، جرّار، صلاح، ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ص ١٥٩.

(٤) ابن زيدون، الديوان، ص ١٣١.

وكان السَّبب في تواضع هذا التَّمَط من العمارة أنه كان مقصوداً على إيواء الغرباء أو خزن السِّلَع. أمّا الوفود الرّسميّة وصفوة الزّوّار من الأشراف فكانوا ينزلون في المني أو تخلّي لهم الدّور الفخمة في أرباض قرطبة، وتجهّز بكلّ أسباب الرّاحة^(١).

وقد أحيطت العمائر في قرطبة - وفي سائر مدن الأندلس - بالأسوار والأبواب، وبلغ عدد أبواب قرطبة سبعة أبواب، وأطلقت عليها أسماء تتعلّق بأبرز المعالم أو الطّرق الّتي تشرف عليها، وقد ورد في شعر أبي عامر بن شُهَيْد إشارة إلى أحد تلك الأبواب وهو "باب اليهود" الّذي يقع على الجانب الشّماليّ من المدينة ويطلّ على حيّ اليهود، وذلك في قوله^(٢):

لَقَدْ أَطْلَعُوا عِنْدَ بَابِ الْيَهُودِ دَبْدُرًا أَبَى الْحُسْنُ أَنْ يُكْسِفَا
تَرَاةَ الْيَهُودِ عَلَى بَابِهَا أَمِيرًا فَتَحَسَّبُهُ يَوْسُفَا

وشهدت الأندلس نشاطاً واسعاً في بناء الحصون والقلاع خارج أسوار قرطبة، ولا سيّما عندما اشتدّت الأزمات وقامت الفتن والثّورات في عهديّ الأميرين المنذر وعبد الله، وكان الثّوار أكثر حرصاً على بنائها حماية لأنفسهم من بطش السّلطان بهم، وتخيّروا لها المناطق الجبلية الوعرة الّتي يصعب الوصول إليها.

(١) عند قدوم الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرّحمن قافلاً من العُدوة ومعه بنو إدريس الحسنيّون القرشيّون ملوك المغرب وبنوهم وأهلوهـم سنة (٣٦٤ هـ) اجتمعوا إلى الدّور الّتي أخليت لهم "بعد أن فرشت بحالها بالوطاء السّيّ والغطاء السّريّ، ونضّدها الفراشون آتم تنضيد ومهدوها أوطاً تمهيد، وأترعت محازمها بالأطعمة وما يتخذ من الأصباغ والأدهان والأباريز والأحطاب وغير ذلك من العدة إلى ما صير فيها من الآلات والعدد والآنية وجميع المرافق اللّاتنيّ تُعمر بها المنازل". انظر: ابن حيّان، المقتبس (الحجّي)، ص ١٩٤ -

١٩٥.

(٢) المقرئ، التّفح، ج ١، ص ١٥٦ - ٦٣٥، ديب، ديوان ابن شهيد، ص ٩٦.

وقد بلغ عدد الحصون التي فتحها الخليفة الناصر في إحدى غزواته سنة (٣٠٠ هـ) مائتي حصن، وفيها يقول أحمد بن عبد ربه^(١):

في غزوة مائتا حصن ظفرت بها في كل حصن غواة للعناجيح^(٢)
ما كان ملك سليمان ليدر كها والمُبَتني سدّ ياجوج وماجوج

وكان حصن (بُشتر)^(٣) من أكثر الحصون منعة ومتانة، وفي فتحه على يد الناصر يقول عبيد الله بن يحيى^(٤):

أحقاً خضوع المعقل المتجبر وفتح أمين الله حصن بيشتر
كفى خيراً مُستشعاً من محب وحسبك بيشري أعظم من مبشر

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
وفي فتح حصن (الكرم)^(٥) في عهد المستنصر يقول ابن شخيص^(٦):
مرکز ايداع الرسائل الجامعية

لقد حلّ بأس الله بالكرم الذي غدا وهو في حزب الضلال

(١) ابن حيّان، المقتبس (شاليتا)، ص ٦٢، مؤلف مجهول، تاريخ عبد الرحمن الناصر، ص ٣٨، تحقيق: إ. ليفي برونفسال وإميليو غرسية غومس، مدريد - غرناطة، ١٩٥٠م، الداية، ديوان ابن ربه، ص ٣٨.

(٢) العنحوج : الرائع من الخيل [ابن منظور، لسان العرب، عتج] .

(٣) بيشتر : حصن منيع بينه وبين قرطبة ثمانون ميلاً. [الحميري، عبد المنعم، الرّوض المعطار، ص ٧٩].

(٤) ابن حيّان، المقتبس (شاليتا)، ص ٢٢١ .

(٥) من الحصون التي اعتصم بها حسن بن قنّو الحسني من أرض العدو، وتمكّن غالب بن عبد الرحمن من فتحه سنة (٢٦٢ هـ).

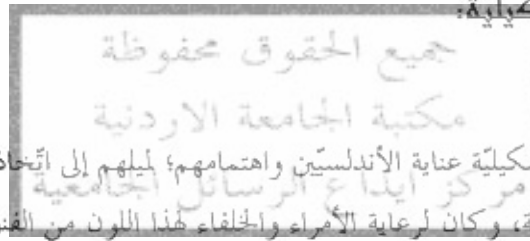
انظر: ابن حيّان، المقتبس (الحجّي)، ص ١٣٧ .

(٦) المصدر السابق.

وخلت المصادر التي اطلعت عليها من الإشارات الشعرية إلى الحصون التي بناها الأمراء والخلفاء لصدّ الهجمات عن حاضرة ملكهم، ولم يحفل الشعر بالحديث عن النظام العمراني لتلك الحصون من الدّاخل أو الخارج، وكلّ ما يفهم من النصوص السابقة أنّها كانت حصينة ومنيعة حتّى اضطر الأمير محمّد إلى ضرب حصن (الحنش)^(١) بالمنجنقات حين ثار عليه عبد الرحمن الجليقي^(٢) سنة (٢٦١ هـ)، وفي ذكر هذه الحادثة يقول ابن فرناس^(٣):

كأليمٌ تسمعُ في حافاته قصافاً من كلّ أوبٍ له كالرعد هينوم^(٤)
كأما بين لجّيه وقد درجّت سفينة عطّبت في جوفها روم

ثانياً - الفنون التشكيلية:



لاقت الفنون التشكيلية عناية الأندلسيين واهتمامهم؛ بليلهم إلى اتّخاذ الزينة في مختلف جوانب حياتهم العامّة والخاصّة، وكان لرعاية الأمراء والخلفاء لهذا اللون من الفنون واهتمامهم به وإنفاق الأموال الطائلة في اقتناء التحف النفيسة التي يبدعها التشكيلي^(٥) أثر في رواجها. ودفع ذلك الاهتمام التشكيلي الأندلسي المسلم إلى إتقان صنّعه وتجوّدها انطلاقاً من فلسفة العمل في الإسلام: "إنّ الله يحبّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"، ونجح في تطوير مواهبه والوصول بفنّه إلى درجة عالية من الجودة القريبة من الكمال.

(١) حصن الحنش من أعمال ماردة، فتحه الخليفة التّامر سنة (٣١٦ هـ). ابن حيّان، المقتبس (شاليتا)، ص ٢٣٩.

(٢) من أهل جليقة، كان من الخوارج في أيام بني أميّة، جمعت أخباره في كتب. ترجمته في: الحميدي، الجذوة، ص ٢٧٩، الضيّ، البغية، ج ١، ص ٤٨٣، وغيرهما.

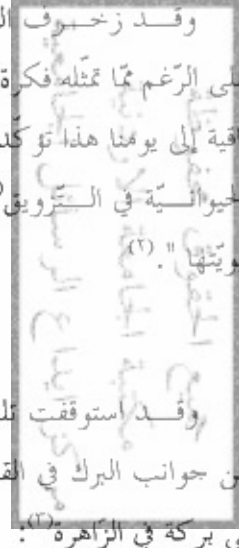
(٣) ابن حيّان، المقتبس (مكي)، ص ٣٥٨، جرّار، صلاح، ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ص ١٦٩.

(٤) المينوم: الكلام الخفي، وقيل: الصّوت الخفي. [ابن منظور، اللسان، هنن]. ولعلّ المقصود هنا الصّوت المكتوم.

(٥) يستخدم هذا اللفظ في هذه الدّراسة بمعنى الفنّان التشكيلي.

وقد شكّل المعمار والتشكيليّ في الأندلس فريقاً متجانساً ومتكاملاً في رؤاه الفنيّة؛ إذ اعتمد المعمار على التشكيليّ ليضفي الجمال على عمارته بما يبدع من زخارف ونقوش وما ينحت من تماثيل، وأتاح تصميم المعمار المتقن الفرصة للتشكيليّ لإطلاق العنان لخياله وتحويل الجدران والأعمدة والتوافذ والأبواب وكلّ الأسطح الخرساء فنّاً ناطقاً.

وقد زخرف التشكيليّ الأندلسيّ تلك الأسطح بمختلف الزخارف الهندسيّة والنباتيّة الرائقة، وعلى الرّغم ممّا تمثله فكرة التجسيد من محاذير في فلسفة الفنّ الإسلاميّ إلّا أنّ المصادر والآثار الأندلسيّة الباقية إلى يومنا هذا تؤكد أنّ التشكيليّ الأندلسيّ في العصر الأمويّ استخدم الأشكال الإنسانيّة والحيوانيّة في التزيين^(١)، ولكنّه اتّجه إلى "تجريد الصّور الأدميّة أو الحيوانيّة وحتىّ النباتيّة من حيويّتها"^(٢).



وقد استوقفت تلك الأشكال المنقوشة الشّاعر الأندلسيّ فوصفها، ومنها النقوش الحيوانيّة الّتي تزيّن جوانب البرك في القصور، ومن ذلك قول صاعد البغداديّ في وصف نقوش الثّعابين والسّلاحف على بركة في الزّاهرة^(٣):

وأعجبُ منها أنّهم نواظرون	إلى بركة ضمّت إليها الطّرائف
حصّاهم اللّآلئ سابح في عابها	من الرّقش مسموم الثّعابين زاحف
ترى ما تراه العين في جنباتها	من الوحش حتّى بينهنّ السّلاحف

وفي النّصّ السّابق إشارة إلى شدّة إتقان النقوش حتّى ليظنّها النّاظر حيّة تدبّ فيها الرّوح.

(١) لم يكن تحت الأشكال الإنسانيّة والحيوانيّة فنّاً أندلسيّاً خالصاً، إلّا ما تأثّر بالفنون المشرقيّة والبيزنطيّة؛ ومن الأدلّة على ذلك أنّ الخليفة عبد الرّحمن النّاصر استعجب حوضاً من الشّام أو القسطنطينيّة إلى قصره بالزّهراء، وكانت فيه نقوش وتماثيل على صور الإنسان، فنصبه في وسط المجلس الشرقيّ المعروف بالمؤنّس، ونصب عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصّعة بالثّرّ التّفيس الغالي ممّا عمل بدار الصّناعة بقرطبة، وكانت تلك التّماثيل على أشكال الحيوانات. انظر: المقرئ، التّفح، ج ١، ص ٥٢٦ - ٥٢٧ و ٥٦٨ - ٥٦٩، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٣٨.

(٢) سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج ١، ص ٢٣٧.

(٣) المقرئ، التّفح، ج ١، ص ٤٦٤.

كما اتخذت التوافير في تلك القصور على أشكال الأسود، وقد انتشر تحت صورة هذا الحيوان في الأندلس أكثر من غيره، ولعل سبب ذلك ما يمثل هذا الحيوان من قوة تناسب شدة اندفاع الماء من فيه، وتحاكي زثيره الهادر. وفي وصف تمثال لأسد يقذف الماء في صهريج بالزهراء يقول علي بن أبي الحسين^(١):

وهزير هـادر في غـاية	يردغ اللامح عنه بالـ	زؤد ^(٢)
فاغر فـاه فما يُلقه	سائل الريق مشـيح ^(٣) ذي كبـد	
لا يرى منتقـلاً من موضـع	لا، ولا مفترسـاً سـرب نقـد	

وقد صممت بعض التوافير على شكل أسدين متقابلين أو أكثر، وفي وصف نافورة بأسدين يقول الرمادي^(٤):

بحر تـفجـر من لـيـثـين مـلـئـط
يا من رأى البحر من لـيـثـين يـتـفـجـر
مركز ايداع الرسائل الجامعية
مكتبة الجامعة الاردنية
جميع الحقوق محفوظة

ويقول ابن هذيل واصفاً نافورة بالزاهرة تقبع فوقها أسود يخرج الماء مندفعاً بقوة من أفواهها^(٥):

كأن الأسود العامرية فوقها	تهم بمكروه إليك فتفزع	زغ
كأن خرير الماء من لهواتها	ع	
أعدت لإحياء البساتين كل ما	سقت موضعاً منها تأكد موضع	
دعتها بصوب الماء فانتبهت له	عيون كأمثال الدنانير تلمع	ع

(١) ابن الكفائي، التشبيهات، ص ٦٨.

(٢) الزؤد: الذعر والفرع. [ابن منظور، اللسان، زاد].

(٣) مشيح: جاذ حذر. [ابن منظور، اللسان، شيح].

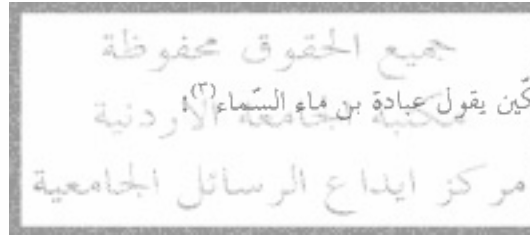
(٤) ابن الكفائي، التشبيهات، ص ٧٤، جرار، ماهر، شعر الرمادي، ص ٧٠.

(٥) المصدر السابق، ص ٧٨، شوابكة، شعر يحيى، ص ٩٦.

ولم يكتف التشكيليّ الأندلسيّ في ذلك العصر بزخرفة العمارة، إنّما اعتنى بزخرفة الأثاث والكتيب والثياب وأدوات الكتابة وأدوات الطّعام والشّراب والحليّ وأدوات الزّينة وغير ذلك، وتشير المصادر إلى أنّ تلك النقوش كانت غاية في الإتقان وآية في الجمال، وتؤكد الآثار الباقية إلى يومنا هذا ذلك، ولا سيّما زخارف الصّناديق العاجيّة الّتي أكثر الخليفة الناصر من اقتنائها لزوجاته وبناته، وأنفق فيها أموالاً طائلة.^(١)

وقد وصلت إلينا إشارات شعريّة نادرة عن تلك النقوش لا تكاد تفي هذا الفنّ الرّاقى حقّه، ومنه بيت لابن بطّال في وصف نقش على دواة، وفيه يقول^(٢):

زُجْجِيَّةٌ فَضُضْتُ كَوَاكِبُهَا فَهِيَ تُبَارِي كَوَاكِبَ الْعَبَّاسِ



وكذاك يَحْكِي بِاصْفَرَارِ نَقُوشِهِ مِنْ عَاشِقٍ مِثْلِي نَحِيْلُ خَدُّهُ

وتكشف الأبيات الشعريّة الّتي تتناول معالم هذه الفنون الزّخرفيّة عن جانب مهمّ من نفسيّة الشّاعر الأندلسيّ في العصر الأمويّ، فهذا الإنسان اللاهث وراء الاستمتاع بجمال الأشياء من حوله تستهويه الزّخارف والنقوش، ولكنّه لا يقف عليها وقفة المتأمّل المتفحّص، فهذا أمر يحتاج إلى صبر ودربة وطول نفس وإنعام نظر، وهو ما لا نلاحظه في تكوين الشّاعر الأندلسيّ، ولولا عشقه الفطريّ للجمال لما استوففته هذه التجربة الفنّيّة الدّقيقة المعقّدة.

(١) للمزيد عن صناعة صناديق العاج الأندلسيّة، انظر: الباشا، موسوعة العمارة، مج ٢، ص ٢٩١ - ٢٩٤.

Bekwith John , Caskets From Cordoba (Victoria & Albert Museum) Her Majestys Stationery, London,

(٢) ابن الكيّان، التشبيهات، ص ٢٢٧، ابن حميس، أدباء مالقة، ص ٢٨٨، ونسبه المؤلّف لعبادة بن ماء السّماء.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٣٠.

ووظف التشكيلي الأندلسي - أسوة بنظيره المشرقي - الخط العربي المتميز بطواعيته في التشكيل في زخارفه ونقوشه منذ بداية العصر الأموي، فنقش الآيات القرآنية والأدعية والأمثال والحكم، وأسماء الأمراء والخلفاء، وأسماء المعمارين والفنانين، والتواريخ وأبيات الشعر على الأبنية والممتلكات.

وكان للشعر مكانة خاصة بين تلك النقوش والزخارف؛ لأنه فن راقٍ يصلح أن يكون تعبيراً جميلاً عن المعاني التي يتضمنها النقش، وقد يقصد من استخدامه إلى المبالغة في التزيين من خلال تزيين أحد الفنانين، فمن آخر، لكي يرقى النقش في النهاية إلى مستوى المضمون الشعري الذي قد يكون فيه مدح للسلطان أو ذكر لاسمه^(١).

وقد سبقت الإشارة إلى النقش الشعري المطرز على عاتقي ثوب ولادة^(٢)، وإلى نقش أبيات عباس بن فراس على "المقانة" التي صنعها^(٣).

وكان النقش على القبور من الطلُوس الشائعة في ذلك العصر، ويروى أن أبا عامر بن شهيد أوصى أن يكتب على قبره في لوح رخام بضعة أسطر من النثر، وهذا النظم^(٤):

يا صاحبي قُـمُ فَقَدْ أَطْلَنُـ	أَنْحُنْ طَوْلَ الْمَدَى هُجـ
فَقَالَ لِي: لَنْ تَقُـومَ مِنْـ	مَا دَامَ مِنْ فَوْقِـنَا الصَّعِـ
تَذْكُرُ كـُـمَ لَيْلَةَ هَوْنِـ	فِي ظِلِّهَا وَالزَّمَانُ عِـ
وَكَمْ سـُـرُورَ هَمَى عَلـِـ	سَحَابَةُ ثُرَّةٍ تَجـ
كُلُّ كَأَنَّ لَمْ يَكُـنْ نَقْضُـ	وَشَوْمُهُ حَاضِرٌ عَتِـ

(١) جرار، صلاح، ديوان الحمراء، ص ١٤-١٥، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩م.

(٢) الفصل الأول، ص ٧٠.

(٣) الفصل الثاني، ص ١١٣-١١٤.

(٤) ابن حاقان، قلائد العقبان وعحاسن الأعيان، ص ٤٤٠-٤٤١، تحقيق وتعليق: حسين خربوش، الطبعة الأولى، مكتبة المنار للطباعة والنشر والتوزيع، الزرقاء، الأردن، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م، ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ٢٠٥، للقرني، التفح، ج ١، ص ٦٣٦، ديب، ديوان ابن شهيد، ص ٦٧.

(٥) في القلائد والتفح: نعمتا.

حَصَلَهُ كَسَاتِبٌ حَفِيظٌ وَضَمَّهُ صَادِقٌ شَهِيدٌ
 يَا وَيْلَهُ نَا إِنَّا نُنْكَبُ نَا رَحْمَةً مِّنْ بَطْشِهِ شَدِيدٌ
 يَارَبُّ عَفْوًا فَأَنْتَ مَوْلَى قَصَّرَ فِي أَمْرِكَ ^(١) الْعَبِيدُ

ونقش على قبر المنصور بن أبي عامر ^(٢):

آثَارُهُ تُنْبِئُكَ عَنْ أَحَبِّهِ ^(٣) حَتَّى كَأَنَّكَ بِالْعَمِيَانِ تَرَاهُ
 تَالَلَاهُ لَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ أَبَدًا، وَلَا يَحْضُرُ مِثْلُ التَّغَوَّرِ سِوَاهُ

كما أصبح الشعر جزءاً من التشكيل الفني، ونظم الشعراء أبياتاً شعرية بقصد التزيين والترين، ونحى بذلك منحى عملياً وفيلسوفياً، ولم يخل من الروح الشعرية، ومن ذلك أبيات شعرية نظمها ابن عبد ربه لتكتب على كأس ماء الذهب ^(٤):

مكتبة الجامعة الاردنية
 مركز ايداع الرسائل الجامعية

اشربْ عَلَى مَنْظَرِ أَنْبِيَاءٍ ^(٥) وَأَمْزِجْ بَرِيقَ الْحَبِيبِ رِيْقِي
 وَاحْلُلْ وَشَاحَ الْكَعَابِ رِفْقِي ^(٦) وَاخْذَرْ عَلَى خَصْرِهَا الرِّقِي
 وَقُلْ لِمَنْ لَامَ فِي التَّصَنُّعِ ^(٧) إِلَيْكَ خَلَّ عَنِ الطَّلْ رِيْقِي

^(١) في الفلاند والتفح : شكرك.

^(٢) ابن الأثير، الحلق، ج ١، ص ٢٧٣، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٢٠٢-٢٠٣، ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٣٠١، التباي للمالقي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٨٢، التويري، نهاية الأرب، ج ٢٣، ص ٤٠٦.

^(٣) في المغرب : أوصافه.

^(٤) ابن عبد ربه، العقد ج ٦، ص ٣٠٦ و ٤٣٤، للقرني، التفح، ج ٣، ص ٥٦٨، الناقة، ديوان ابن عبد ربه، ص ١١٨.

^(٥) في التفح : المنظر الأنيق.

^(٦) في المصدر السابق : حلّ قليلاً.

ومن النقوش الشعرية التي وصلت إلينا بعض أحبارها النقوش على الخواتم ، فالأمير عبد الرحمن الأوسط كان نقش خاتمه " عبد الرحمن بقضاء الله راضٍ " ، فلما تلف أمر فتاه نصرأ فبعث في طلب عبد الله بن الشمر، وقال له: " إن الأمير أمر بنقش الخاتم، فقل ما ينقش فيه ". فقال^(١):

خاتم للملك أضحي حكمه في التماس ماضي
عابد الرحمن فيه بقضاء الله راضٍ ي

فاستحسن ذلك الأمير عبد الرحمن، وأمر بنقشهما في الخاتم.

وكان للقضاة والعلماء والوزراء خواتم منقوشة كذلك، ومن طريف ما يروى - في هذا الباب - أن القاضي صهيب بن منيع^(٢) قاضي إشبيلية كان نقش خاتمه:

يا علي ما بكل غيب
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز أبحاث الرسائل الجامعية
ب

وكان هذا القاضي يشرب النبيذ، فلما شرب مرة عند الحاجب موسى بن حذير^(٣) غافله موسى، وأمر باختلاس خاتمه، وأحضر نقاشاً فنقش تحت البيت المذكور:

واستر العيب عني إن فيه كل عيب

ورد الخاتم إليه، وختم القاضي به زماناً حتى فطن إليه^(٤).

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٨١.

(٢) من أهل قرطبة، استقضاء الأمير عبد الرحمن الأوسط على إشبيلية، توفي سنة (٣٠٨هـ) أو (٣١٨هـ). ترجمته في: ابن الغضائري، تاريخ العلماء، ج ١، ص ٢٣٨، الحميدي، الجفوة، ص ٢٤٥، البغية، ج ٢، ص ٤١٩.

(٣) موسى بن محمد بن حذير الحاجب، كان في أيام الخليفة الناصر، من أهل الأدب والشعر، ومن بيت رياة وعلم، ت (٣٢٠هـ) ترجمته في: الحميدي، الجفوة، ص ٣٣٧، ابن الأثير، الحلة، ج ١، ص ٢٣٢ و ٢٣٥.

(٤) انظر: الحميدي، الجفوة، ص ٢٤٥، الضي، البغية، ج ٢، ص ٤١٩، ابن الأثير، الحلة، ج ١، ص ٢٣٧.

ومثل هذه النقوش على الخواتم تصوّر أهمّ الشعارات التابعة من العقيدة الإسلامية للأمرء والخلفاء والقضاة والعلماء، إذ تذكّرهم بوجوب التقوى في عملهم خشية الوقوع في المزالق، والإيمان بالقضاء والقدر، وطلب المغفرة والرحمة من الله تعالى.

كما وصف الشعراء التحف النادرة التي جمع فيها التشكيلي بين الغرابة والابتكار، ومن أشهرها القبة الحمراء التي أرسلها الخليفة المستنصر إلى الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن، " وكانت غريبة الابتداء، عجيبة الاختراع، لها منظر رائع ومرأى فائق، جرى للناس في اتخاذها كلام كثير ^(١)، وفي وصفها يقول الرّمادي ^(٢):

وقبة مالهـا في حُسْنِها ثَمَنٌ لو أنّه يبيـع، فيه العِزُّ والعُمُرُ

جميع الحقوق محفوظة

وكان الأمر والخلفاء والأثرياء مولعين باقتناء التحف النادرة والشمعة، وأنفقوا في صنعها أو شرائها أموالاً طائلة، وكانوا يهدونها للمقرّبين إليهم، ويروى أن المنصور بن أبي عامر صاغ لصباح زوجته الخليفة الحكم المستنصر قسراً من فضة وقت ولايته السكة، عمل فيه مدق، وأنفق فيه مالاً جسيماً، فحساء بديعاً لم ترّ العيون أعجب منه، وحمل ظاهراً لأعين الناس من دار أبي عامر، وتحدث الناس بشأنه دهرًا ^(٣)، و من المرجّح أن الشعراء احتفوا بهذه القطعة الفنية الرائعة إلاّ أنّه لم يصل إلينا أيّ شعر عنها في المصادر التي اطلعت عليها.

وعمد التشكيلي إلى تزيين قاعات القصور بتشكيلات فنية جميلة، ومن ذلك طبق عظيم في الزاهرة، فيه سقائف مصنوعة من كلّ التواوير في الزاهرة، وفي وصفه يقول صاعد البغدادي ^(٤):

(١) ابن حبان، للقبس (الختي)، ص ١١٦.

(٢) ابن الكثير، التشبهات، ص ٧٣، جرّار، ماهر، شعر الرّمادي، ص ٧٠.

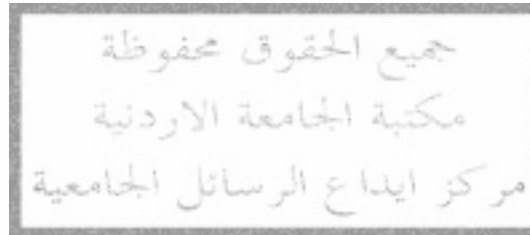
(٣) ابن عذاري، البيان للغرب، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٤) المقرّي، التلح، ج ٢، ص ٢٥٢.

يسـوقُ إليك الدهرُ كلَّ غريبةٍ وأعجبُ ما يلقاهُ عندك واصفُ
وشائعُ نورِ صاغها هاميرُ الحيا على حافتيها عبَّـرُ^(١) ورَّافُ
ولما تناهى الحُسْنُ فيها تقابلتْ عليها بأنواعِ الملامهي الوصافُ
كمِثْلِ الظِّباءِ المستكنةِ كُنْسا تُظللُها بالياسمينِ السَّقاءُ

ثم ينتقل إلى وصف جارية مصنوعة من التُّوَارِ تحذف بمجاديف من ذهب، فيقول:

وأعجبُ منها غـداةُ في سفينةٍ مكَلَّةٌ تصبـو إليها المـهـاتفُ
إذا راعَها موجُ من الماءِ تتقي بسكَّانِها^(٢) ما أُنْدرتْهُ العواصفُ
متى كانتِ الحسناءُ رُبَّانَ مركبٍ تصرِّفُ فـي يَمْنَى يَدِيهِ المـجـادِفُ



ثالثاً - الفنون الموسيقية :

كانت الموسيقى الأندلسية في العصر الأموي " خلاصة التلاقح والتمازج الفنيّ التابع من طبيعة العناصر البشرية التي سكنت الأندلس كالعرب والبربر والقوط والصقالبة واليهود "^(٣)، إلا أنّ ملامح الموسيقى العربية المشرقية برزت أكثر من غيرها في ذلك العصر؛ إذ انتقلت مع الفنانين الوافدين الأوائل إلى الأندلس من أمثال غُلون وزَرْقون والعجفاء قينة الأمير عبد الرحمن الداخل وغيرهم^(٤)، وكان لدخول زرياب إلى الأندلس سنة (٢٠٦ هـ) أثر كبير في تأصيل ملامح الموسيقى المشرقية ، كما

(١) العفر : البسط الموشية . [ابن منظور، اللسان، عفر].

(٢) السَّكَّان : ذنب السفينة التي به تعدل . [المصدر السابق، سكن].

(٣) عيد، يوسف، الفنون الأندلسية وآثرها في أوروبا القروسطية، ص ٤٩، الطبعة الأولى، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٣ م.

(٤) المقرئ، التفح، ج ٣، ص ١٣٠.

استفاد من التراث المحلي للشعوب القاطنة في الأندلس لتطوير موسيقاه، وما إن جاء عصر الخلافة حتى صقلت الموسيقى الأندلسية، وحملت هويتها الخاصة بها.

ومع أن زرياب كان من أبرز الشخصيات الحضارية في عصره^(١)، إلا أن إرجاع الفضل في النهضة الموسيقية الأندلسية له وحده أمر فيه مبالغة، فهذا الرجل الذي لم يجد له موطناً قدم له في المشرق لغيرة أستاذه منه توقرت له في تلك الأرض البعيدة ظروف مناسبة للإبداع في الميادين الثقافية المتنوعة، ولأنه يمتلك موهبة حقيقية فذة استطاع أن يخلد اسمه في آفاق الأندلس والمغرب بوصفه واحداً من أهم عباقرة الموسيقى، لا في عصره فحسب بل في كل العصور بعده، ونجح في تكوين مدرسة موسيقية خاصة به.

وقد وجد الشعر في هذا الجانب من الحياة ملاذه، ولكن التصوص الشعري - في المصادر التي أطلعت عليها - قليلة، ولا تسعف كما لا تسعف الأبحاث والحكايات في تحديد معالمه بدقة، وما زال الغموض يشوب الكثير من جوانب هذا اللون من الثقافة الأندلسية، ولا سيما ما يتصل منه بفنون العامة، أو ما يتعارف عليه اصطلاحاً "الفنون الشعبية" التي رافقتها لون خاص من الشعر هو الشعر الشعبي، وقد بدأت طلائعه في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط^(٢) في القرن العاشر الهجري.

وقد غلبت سمتان أساسيتان على ما وصل إلينا عن الموسيقى الأندلسية مما أفلتت من برائن الزمن "الأولى: الدوران في فلك السلاطين والأمراء، وعدم تجاوز ذلك إلا في النادر، مع توخي الحذر الشديد مما قد عس بمهية السلطان أو صورته أو يغمز فيه. وثانيتهما: الترفع عن الخوض فيما يتصل بشؤون العامة وطرائق حياتهم، والأنفة من إيراد أخبارهم وتصوير أخطأ معيشتهم بحجة أن العادة عند المؤلفين لم تجر على إيراد ذلك، وأن من يتجاوز هذا المألوف يرتكب سابقة قد تحط من شأنه بين العلماء".^(٣)

(١) يعرف د. حسين مؤنس الشخصيات الحضارية بقوله: "أولئك الأفاضال الذين يتميزون بخصال وخصائص شخصية أو علمية أو فنية يكون لها أثر في تطوير الحضارة ومستواها في عصورهم". مؤنس، معالم تاريخ الأندلس والمغرب، ص ٢٨٨.

(٢) مؤنس، معالم تاريخ الأندلس والمغرب، ص ٢٩٥.

(٣) حرار، صلاح، الفنون الشعبية في الأندلس وصلتها بالتمثيل، مجلة مونة للبحوث والدراسات، المجلد الأول، الكرك، الأردن، ١٩٩٤، ص ٩٢.

وقد أُنسِر بعض المتشدّدين من الفقهاء في عدم تدوين الكثير من تلك الفنون وما يتّصل بها من أخبار وأشعار، لكنّ أهل الأندلس الشغوفين بالحياة وملذّاتها كانوا يأخذون برأي أهل الحجاز في جواز سماع الغناء والمعاذف، وفي ذلك يقول ابن عبد ربّه^(١):

دِينُنَا فِي السَّمَاعِ دِينُ مَدِينِي، وَفِي شَرْبِنَا الشَّرَابُ عِـرَاقِي

إلّا أنّ هذا التشدّد من بعض الفقهاء لم يمنع بعضهم الآخر من الاستماع إلى الغناء والميل إلى الطّرب، ومما يروى عن القاضي أبي عبد الله محمد بن أبي عيسى - علّم الأندلس وعالمها النّدى^(٢) - كما يصفه ابن خاقان^(٣) - أنّه " خرج إلى حضور جنازة بمقابر قریش، ورجل من بني حُدَير يواخيه^(٤) له منزل، فعزم عليه في الميل عليه وعلى أخيه، فنزلا عليه، فأحضر طهما طعاماً، وأمر بجارية له بالغناء، فغنت تقول :

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
طابت بطيب الثباتك الأقداح وزهبا بجمرة خذلك التفاح
وإذا الرّيب مع تنسّم أرواحك كز أيداع الرسائل الجامعية طابت بطيب نسيمك الأرواح
وإذا الخناس أدس ألّبت ظلمها فضاء وجهك في الدّجى مصباح

فكتبها القاضي في ظهر يده، وخرج من عنده".^(٥)

(١) التّعالّي، البيّنة، ج ٢، ص ١٠، الذّاكة، ديوان ابن عبد ربّه، ص ١٢٥.

(٢) النّدى : السّريع الفهم القطن. [ابن منظور، اللسان، ندى].

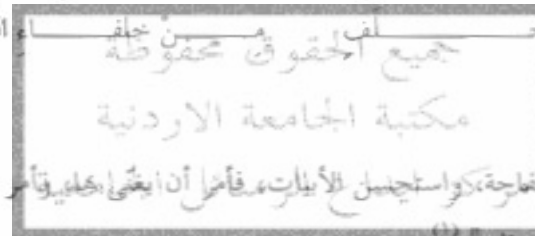
(٣) ابن خاقان، المطمح، ص ٢٥٩.

(٤) يواخيه : يواخيه..

(٥) ابن خاقان، المطمح، ص ٢٦١ - ٢٦٢، كما وردت هذه القصة في: الحميدي، الجنوة، ص ٧٥، الضّي، البغية، ج ١، ص ١٤٥-١٤٦.

وقد كان للمناخ الثقافي السائد ورعاية الأمراء والخلفاء الأمويين أثرهما في التخفيف من تدخل بعض الفقهاء المشددين في تحريم الغناء ؛ إذ حفلت المجالس في القصور ومنازل الأغنياء بالشعراء والمغنين والعازفين الذين كانوا يتسابقون لنيل الجوائز والمكافآت، فسالت قرائح الشعراء بشعر عذب رقيق، وتفتقت أذهان الموسيقيين عن ألحان أكثر رقة وعذوبة، وشدت حناجر المغنين بأعذب الأصوات وأجلاها. ويروي ابن حبان في "المقتبس" أن عباس بن فرناس "كان يصنع للأمير محمد قطعاً من رقيق الأشعار تنتظم بمدحه، وتصوغ قياته فيه الألحان، فيغنيه بها، فيحزل عليها صلته، منها أربعة أبيات كتبها بالذهب على تفاحة محمولة رفع بها إليه، وهي:

تَفَاحَةٌ مَصْفُورَةُ البَعَضِ بِخَوْفِهَا مِنْ أَلَمِ العَضِ
أَمْنُهَا ذَاكَ وَكَثْبُهَا حُسْنُهَا بِنَا مِنْ ذَهَبِ مَحْضِ
وَقُلْتُ فِيهَا الْحَقُّ مِنْ بَعْدِ ذَا وَمَا لِقَوْلِ الْحَقِّ مِنْ تَقْضِ
مُحَمَّدٌ أَكْرَمُ مُسْتَحَقِّهِ أَلِلَّهِ فِي الْأَرْضِ



قال: فاستلمح الأمير الفتحية، واستجلى الأبيات، فأمر أن يغنيها، فأمر لعباس بأربعمئة دينار بعدها صلة، وقال: لو زاد لزدناه^(١).

ولم يكتف الأمراء والخلفاء بالاستمتاع بالغناء والطرب، إنما كانوا يشاركون فيما يدور في تلك المجالس بالتعليق أو التقيد أو إبداء الرأي في الشعر المغنى، ومما يروى في ذلك أن الأمير عبد الرحمن الأوسط غنى عنده زرياب يوماً - والشاعر عبيد الله بن قرقمان^(٢) حاضر - أبيات العباس بن الأحنف:

(١) ابن حبان، للمقتبس (مكي)، ص ٢٨٤ - ٢٨٥، جرار، صلاح، ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ص ١٦٣.

(٢) هو عبيد الله بن قرقمان بن بدر الداهلي، وهو من شعراء الأوسط. وجاء في التفتح (ج ٣/ ص ٦١٥) أنه عبيد الله بن فرناس، ولم يعرف شاعر أندلسي في العصر الأموي بهذا الاسم؛ وقد اجتهد د. صلاح جرار - قبل صدور كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية محققاً - أنه عيسى بن فرناس (ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس/ ص ١٧٠)، ولكن الأرجح أنه عبيد الله بن قرقمان كما ذكر ابن القوطية (تاريخ افتتاح الأندلس/ ص ١٠٧)، وأن التصحيف وقع بين اسمي فرناس وقرقمان.

أحبُّكُمْ مَا عَشْتُ فِي الْقَرَبِ وَالنَّوَى وأذكرُكُمْ فِي حَالَةِ الْوَصْلِ وَالصَّدِّ
عَلَى أَنْتُمْ لَا تَشْتَهُونَ زِيَارَتِي قَرِيباً، وَلَا ذَكَرْتُمْ رَأْيِي فِي فِتْرَةِ الْبُعْدِ

واستحاز وزيره، فقال : الابتداء لأمير المؤمنين. فقال:

وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمْ مُهْجَتِي مَسْكَنَ الْجَوَى وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمْ مُقْلَتِي مَسْكَنَ السَّهْدِ

ثم قال الوزير :

وما لي عنكم حُرْمٌ أَوْ عَدْلٌ سَعَمَ عَلَى كُلِّ حَالٍ فاعلموا ذاك من بُدِّ
جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
وكان للألحان العذبة الجميلة التي تطرب النفوس أثر في تلك التهضة، وتساوى في الولع بالغناء
الخاصة والعامة، ولعلَّ الخاصة كانوا أكثر ولعاً؛ فغناهم يجعلهم قادرين على استحضار أفضل المغنين
والعازفين والجواري. ويروى عن الأمير عبد العزيز أخي الخليفة الحكم المستنصر أنه " كان مغرماً بالخمير
والغناء، فترك الخمر لبغض أخيه فيها، فقال^(١): لو ترك الغناء لكمل سروره. فقال: واللَّه لا تركته
حتى ترك الطيور تغريدها "^(٢)، ثم أنشد^(٣):

أَنَا فِي صَحَّةٍ وَجَاهٍ وَنُعْمَى هِيَ تَدْعُو لِلذَّهْرِ^(٤) الْأَلْحَانِ
وَكَذَا الطَّيْرُ فِي الْحَدَائِقِ تَشْدُو لِذِي سَرَرٍ تَفْسُهُ بِالْقِيَانِ^(٥)

(١) يعني: الحكم المستنصر.

(٢) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٨٩.

(٣) المصدر السابق، القرني، التفح، ج ٣، ص ٥٨٤.

(٤) في التفح : هذه.

(٥) في المغرب : العيان، والصواب ما ورد في التفح.

وكان من تقاليد الغناء في تلك المجالس أن تبدأ القينة بالغناء بأمر من المضيف، وتستعيده بأمر منه، فإذا ما استعادها أحد ضيوفه أغضبه ذلك، ويروى أن المنصور بن أبي عامر استدعى أبا المغيرة بن حزم لمنادمته، ولما غنت الجارية أنس القلوب أبياتاً مطلعها:

قَدِمَ اللَّيْلُ عِنْدَ سِيرِ النَّهَارِ وبدا البدرُ مثلَ نصفِ سِوَارِ

استعادها أبو المغيرة، فغضب المنصور، وأراد معاقبتهم، إلا أنه عاد وعفا عنهما، ووهبه الجارية.^(١)

ولم تكن مجالس الغناء في قصور الأمراء والخلفاء والأثرياء متاحة للشعراء دائماً؛ إذ كانوا يتجنبون الفرصة في كثير من الأوقات للمشاركة فيها والاستمتاع بما تقدمه من صنوف اللهو والطرب، ويروى أن ابن عبد ربّه حين سمع غناء جارية^(٢) في قصر الكاتب أبي حفص عمر بن قهليل^(٣) كتب الأبيات التالية في رقعة^(٤):

يا مَنْ يَضُنُّ بِصَوْتِ الطَّائِرِ الْغَرْدِ ما كُنْتُ أَحْسَبُ هَذَا الْبَحْلَ فِي^(٥) أَحَدٍ
لو أَنَّ أَسْمَاعَ أَهْلِ الْأَرْضِ قَاطِبَةٌ أَصْفَتْ إِلَى الصَّوْتِ لَمْ يَنْقُصْ وَلَمْ يَزِدْ
فَلا تَضُنَّنَّ عَلَيَّ سَمْعِي وَمَنْ بِهِ^(٦) صَوْتاً يَحُولُ بِحَالِ الرُّوحِ فِي الْجَسَدِ
لو كَانَ زُرِّيَّابُ حَيًّا، ثُمَّ أُسْمِعُهُ لَمَاتَ مِنْ حَسَدٍ أَوْ ذَابَ مِنْ كَمَدٍ^(٧)

فلما قرأها أبو حفص وعرف موضعه، جاء حافياً إليه، وسأله الحضور ففعل.

(١) انظر القصّة في: المقرّي، التّفح، ج ١، ص ٦١٦ - ٦١٧.

(٢) ذكر المقرّي (ج ٣/ ص ١٣١) أنّها مصابيح التي أخذت الغناء عن زرياب.

(٣) ذكره ابن دحية في المطرب، ص ١٥٢، والمقرّي في التّفح، ج ٣، ص ١٣١، ولم يرد اسمه في المطمح.

(٤) ابن خاقان، المطمح، ص ٢٧٠ - ٢٧١، الضّي، البغية، ج ١، ص ١٩٢ (وفيه أنّ الشاعر استدعى بعض ألواح الصبيان، وكتب عليها)، ابن دحية، المطرب، ص ١٥٢ - ١٥٣، (وهي فيه ستة أبيات)، الذّاية، ديوان ابن عبد ربّه، ص ٥١ (نقلا عن المطرب)،

وورد البيتان الأوّل والثّاني في: المقرّي، التّفح، ج ٣، ص ١٣١.

(٥) في المطرب والتّفح: الضّنّ من.

(٦) في البغية: تفلّده، وفي المطرب: فلا تضنّ على أدني تقرّطها.

(٧) في البغية: لذاب من حسد أو مات من كمد.

إلا أن الأبواب قد تبقى مغلقة في وجه الآخرين، ويذكر ابن حيّان في "المقتبس" أن الشاعر الفارس سعيد بن جودي^(١) شغف بجارية للأمير عبد الله بن محمد اسمها جيجان، سمعها يوماً تغني للأمير في عليّة بالقصر، "فأنصت للصوت، وقد ذهب بلبّه، وعدل ناحيته يمتّع سماعه"^(٢)، إلا أنه مات دون أن يراها أو تراه. ومن قوله فيها^(٣):

سَمِعِي أَيْ أَنْ يَكُونَ الرُّوحُ مِنْ بَدَنِي فاعتاض قلبي منه لوعة الحزن
أعطيتُ جيجانَ رُوحِي عَنْ تَذَكُّرِهَا هذا ولم أرها يوماً ولم تُرني

ولم تكن تلك المجالس مقصورة على الرجال من الأمراء وصفوة القوم؛ إذ كانت للصفوة من النساء مجالسهنّ، ومن أشهرها مجلس ولادة بنت المستكفي الذي كان مجلس أدب وطرب.

أمّا عامّة النّاس فكانت الحانات مجالس كهوهم ونظريتهم وغنائهم، وقد عرف العرب الغناء في الحانات منذ العصر الجاهليّ، وجاءت صورة الحانة الأندلسيّة في شعر ذلك العصر شبيهة بصورة الحانة في العصر الجاهليّ على اختلاف الزّمان والمكان^(٤)، كما لم يتعدّ عن نظيرها المشرقيّة في بغداد، والقاسم المشترك الأوّل بين تلك المجالس في القصور والحانات اجتماع الغناء والشّراب فيها معاً، و"كأنما كانت الخمر أمراً لا بدّ منه لا طراح الهموم ومشاكل النفوس، وجلاء الأرواح وصقلها، وبذلك تعدّ للدخول في الجوّ الفنيّ للغناء عند من يطلبون من الغناء متعته الرّوحيّة أو الفنيّة، أو كأنما كانت الخمر أمراً لا بدّ منه لتحريك الشّهوة، وانطلاق الجسد من قيود الوفاق والتحفّظ، فتتعاون مع الغناء على التّمتّع بأجساد هؤلاء القيان في الحانات"^(٥).

(١) من التّوّار الخارحين على الأمير عبد الله بن محمد، وهو شاعر أديب. ترجمته في: الحميديّ، الجذوة، ص ٢٢٩، الضّيّ، البغية، ٣٩٣،

ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ١٠٥.

(٢) ابن حيّان، للمقتبس (شاليتا)، ص ١٤٨.

(٣) المصدر السّابق، ابن الأثير، الحلة، ج ١، ص ١٥٧.

(٤) لسليمان عن غناء الحانات في العصر الجاهليّ، انظر: الأسد، ناصر الدّين، القيان والغناء في العصر الجاهليّ، ص ٩٥ - ١٢٨، الطّبعة

الثّالثة، دار الجليل، بيروت، ١٩٨٨.

(٥) المرجع السّابق، ص ١١٠.

وقد أكثر الشعراء الأندلسيون من ذكر الغناء والشرب معاً في شعرهم على طريقة المشاركة، ومن ذلك قول عبيد الله بن إدريس^(١):

كَأَنَّ مُــدَارَ الْكَأْسِ فِي الشَّرْبِ طَيِّبُهُ عَلَى الْعُودِ لَمَّا اسْتَنْطَقَتْهُ الْأَصَابِعُ

وقول مازن بن عمرو^(٢):

أَمْسَى يُعَلِّلُنِي الْمُدَامَ وَعِنْدَهُ عُوْدٌ تَرْنُ بِشَجْوِهِ أَوْتَارُهُ

وقد بدا الأثر المشرقي واضحاً - كذلك - من خلال ورود أسماء أشهر الموسيقيين الأندلسيين، ومن ذلك قول محمد بن الحسين في هذيل الحمام^(٣):

تَغَنَّتْ عَلَى الْأَغْصَانِ أَيْوَمًا حَمَائِمُ الرِّسَاكِ بِتَغَنِّي الْقَمِيَّةِ أَنْ الْأَوَانِسُ يَظُنُّ الَّذِي يُصْغَى إِلَيْهِنَّ مُعْبِداً
أَوْ ابْنَ سُرَّةٍ فِي ذُرَى الْأَيْكِ جَالِسُ

وفي وصف ذباب الروض يقول ابن هذيل^(٤):

فَكَأَنَّ وَتَرَ الْمُوصِلِيَّ وَمَعْبِدَ بِيَدِهِ فَهْوَ وَيَصْـوُغُ كُلَّ نَشِيدِ

(١) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ١٤١.

(٢) التتالي، البيتة، ج ٢، ص ٣٦، وذكر التتالي أن اسمه مازن بن عمرو بن مروان بن محمد بن عاصم، وأورد له شعراً.

(٣) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٦٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٥١، شوابكة، شعر يحيى، ص ٨٢.

ولما كانت الجوارى من أهم عناصر اللهو والطرب والمتعة، فقد كان هن نصيب وافر في مختلف النشاطات الفنية، وقد حملت القادما منهن من المشرق ثقافة موسيقية وأدبية مشرقية^(١)، وكن يغنين الشعر المشرقي في المجالس الأندلسية، وقد مرت أبيات العباس بن الأحنف التي غنتها جارية في مجلس الأمير عبد الرحمن الأوسط قبل قليل^(٢)، وقد لاقى شعر العباس قبولاً في نفوس الأندلسيين لرقته وعذوبته، ولم تتوقف الجوارى عن التغني به على امتداد ذلك العصر، وقد أثار هذا الأمر غيرة الشعراء الأندلسيين، ومنهم ابن حزم الذي قال معاتباً جاريته^(٣):

وقد غنيت للعباس شعراً هنياً ذا لعباس هنيئاً
فلو يلقاك عباس لأضحى لفوز قالياً، وبكم شجياً

وقد حرص تجار الجوارى على تعليمهن وتثقيفهن؛ لأن من الجارية كان يتحدد بمقدار ما تحسنه من فنون اللهو وما تحبده من علوم^(٤)، وكانت إشبيلية من أهم مراكز تدريب هؤلاء الجوارى بالإضافة إلى مركز الخلافة بقرطبة.

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وعن طريق هؤلاء الجوارى - أيضاً - انتقلت الموسيقى الأندلسية إلى إسبانيا المسيحية وسائر أوروبا، وكن يغنين الشعر العربي بآلات موسيقية عربية وأحياناً أندلسية في بلاد العجم، ويروي ابن بسام^(٥) أن الخليفة سليمان بن الحكم وهب شائخة بن غرسية زوج العلجة بنت ملك البشكنس عدة

(١) لسليمان عن التهضة الموسيقية في بغداد في عصرها الذهبي، انظر: فارمر، هنري جورج، تاريخ الموسيقى العربية، ص ١٠٨ - ١٦١، ترجمة: حسين نصار، مراجعة: عبد العزيز الأهواني، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٦م.

(٢) انظر: ص ١٧٥-١٧٦.

(٣) ابن حزم، طرق الحمامة، ص ٢٥١.

(٤) يقول ابن الكثير من رقة يصف فيها تعليمه الفيان: "فأنا من أهل الحجاره، فضلاً عن أهل الفدامة والجهالة، واعتبر ذلك بأن في ملكي الآن أربع روميات، كن بالأمس جاهلات، وهن الآن علمات حكيما منطقيات فلسفيات هندسيات موسيقيات أسطوانات معذلات نجوميات نجوميات عروضيات خطاطات..."، ابن بسام، الذخيرة، مج ٣، ص ٢٠٢. ومهما بدا ابن الكثير مبالغاً في وصف علم جواريه، إلا أنه مما لا شك فيه أنه كن يحظن بتعليم جيد.

(٥) ابن بسام، الذخيرة، مج ٣، ص ٢٠١.

قينات مسلمات، وكانت العليجة قد طلبت من إحداهن أن تغني، فأخذت العود، وغنت بأبيات
لسليمان بن مهران السرفسطي^(١):

خليلي ما للريح تأتي كأنما	يخالطها عند الهبوب خلوق
أم الريح جاءت من بلاد أحبتي	فأحسبها ريح ^(٢) الحبيب تسوق
سقى الله أرضاً حلها الأغيد الذي	لتذكره بين الضلوع حريق
أصار فؤادي فرفقتين، فعنده	فريق، وعندني للسياق ^(٣) فريق

ولم تكتف الجوّاري بغناء شعر أهل المشرق أو الأندلس؛ إذ كانت الشعّرات منهنّ تغنيّ أبياتاً
من نظمهنّ، ومن أشهر هؤلاء الجوّاري الشعّرات "مُتعة" جارية زرياب، ومن شعرها المغنّى في الأمير
عبد الرحمن الأوسط^(٤):

يَا مَنْ يُغَيِّطُ هَوَاهُ
قَدْ كُنْتُ أَمَلِكُ قَلْبِي
يَا وَيْلَتَا أَتُورَاهُ
يَا أَبَايَ قَرَشِيْ
لِي كِيَانٌ، أَوْ مُسْتَعَارَا
خَلَعْتُ فِيهِ الْعِزَارَا

ولم تحفل مجالس الطّرب الأندلسيّة في العصر الأمويّ بالجوّاري المشرقيّات فحسب، إنّما كانت
بعض الجوّاري المغنّيات من سبايا الحروب، وقد نقلت هؤلاء الجوّاري ثقافة الشّعوب التي كنّ ينتمين
إليها وفنونها وعاداتها وتقاليدها إلى البيوت الأندلسيّة، ممّا أضاف لونا جديداً إلى الفنون الموسيقيّة

(١) الحميدي، الجذوة، ص ٢٢٥-٢٢٦، ابن بسّام، الذّخيرة، مج ٣، ص ٢٠١، الضّبيّ، البغية، ج ٢، ص ٣٨٣، ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٤٤٢. وذكر ابن بسّام في ترجمة الشّاعر أنّه شاعر مشهور، وله شعر كثير، إلّا أنّه لم يسمع له سوى أبيات جمع القوالين يتداولونها لعذوبتها وسلاستها. وله ترجمة في المصادر المذكورة هنا.

(٢) في المغرب: عَرُف.

(٣) في الجذوة والبغية: في السّياق.

(٤) للقرّبي، التّفح، ج ٣، ص ١٣١.

الأندلسية، إلا أن عدم وصول ما دون من ذلك التراث الموسيقي يحول دون معرفة حقيقة أثرهن في هذا اللون من الثقافة، كما تفتقر المصادر - التي اطلعت عليها - إلى أي إشارة شعرية عن ذلك.

وكان للتراث المحلي الموجود في الأندلس - قبل الفتح الإسلامي - أثر كذلك في النهضة الموسيقية في ذلك العصر، عدا التراث الموسيقي الذي حمله البربر معهم إلى الأندلس، وتشير بعض المصادر إلى أن الأندلسيين كانوا يغنون ويلحنون على طريقة التصاري أحياناً، ولا سيما ما كانوا يترتلونه من الأناشيد الدينية " التي أضحت أساساً للموسيقى الكنسية الكاثوليكية " (١) فيما بعد، أما البربر فلا تشير المصادر - التي اطلعت عليها - إلى أثر لهم يذكر في النهضة الموسيقية في عصر بني أمية، ولعل من أسباب ذلك الأوضاع السياسية المتذبذبة التي عاشوا فيها على امتداد ذلك العصر.

وقد كان بعض الشعراء المسلمين يدخلون كنائس التصاري، ويسجلون في شعرهم مشاهد من التراتيل والأناشيد الكنسية، وما حفظه المصادر في ذلك قول أبي عامر بن شهيد (٢):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
وَلَرُبُّ حَـاَنٍ قَدْ شَمِتَ بِدِينِهِ
مَرَكَنَ إِيذَامِ الرِّسَالِ أَجَامِغِيَّةٍ
فِي فِتْنَةٍ جَعَلُوا السُّرُورَ نِكَاءَهُمْ (٣)
وَالْقُسُوسُ نَمَّا شَاءَ طَوْلَ مَقَامِنَا يَدْعُو بَعُودَ (٤) حَوْلَنَا بَزْبُورِهِ

وفي معرض الحديث عن " أم الحسن " (٥) يقول الرمادي (٦):

(١) عيد، الفنون الأندلسية، ص ٥٠.

(٢) ابن خاقان، اللطمح، ص ١٩٥، اللقري، التفتح، ج ١، ص ٥٢٥-٥٢٦، ديب، ديوان ابن شهيد، ص ٨٥. ورد البيتان الأول والثاني في:

ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ١٦٠، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٨١.

(٣) في اللطمح والتفتح : (شمت) بذلا من (أدت)، و (بصرف عصبه) بذلا من (بصفو حموره).

(٤) في المصدرين السابقين : شعارهم.

(٥) المقصود العصا التي يحملها القس عند صلاته.

(٦) أم الحسن : الطائر الذي يعرف عند المشاركة باسم الحسون.

(٧) ابن الكفائي، التشبيهات، ص ٦٠، جرار، ماهر، شعر الرمادي، ص ٥٤. وقد أشار ماهر جرار إلى أن الأبيات الثلاثة الأولى نسخها

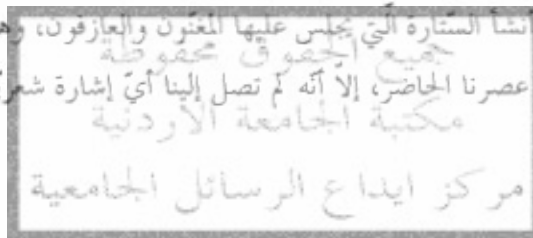
القيفاشي في كتابه سرور النفس بمدارك الحواس الخمس (مخطوط) إلى ابن عبد ربه.

وقد أورث زرياب هذه الصنعة أبنائه وبناته من بعده، وكانت ابتناه عليّة وحمدونة مرجعاً لتعلّمي الغناء، وكانت حمدونة متقدمة على أختها، إلا أنّ عليّة عمّرت أكثر^(١)، وقد أشار إليها زيادة الله بن عليّ الطيّبيّ في قوله^(٢):

أدُنْتُ إِلَيَّ صَبَابًا بَنِي مُعَرَّدَةً أَذْكَى الْجُودَى بَيْنَ أَضْلَاعِي تَرْثُمُهَا
كَأَنَّمَا مَكُنْتُ فَرْسِي عُسْثَا زَمَنًا عَلِيَّةُ بِنْتُ زُرِيَابٍ تُعَلِّمُهَا

وتخرّج في مدرسة زرياب عدد من أبرز الموسيقيين والموسيقيّات في ذلك العصر، وفي مقدّمتهم قَلَمٌ - التي كانت تمثّل تراث المدينة المشرقيّ الأمويّ قبل أن يعلّمها زرياب - وعَلَمٌ وشِفَاء.

وكان زرياب أوّل من نشأ الستارة التي يجلس عليها المغنون والعازفون، وهي تشبه المسرح الذي تجلس فوقه الفرق الموسيقيّة في عصرنا الحاضر، إلا أنّه لم يصل إلينا أيّ إشارة شعريّة عنها فيما بين أيدينا من مصادر.^(٣)



لقد بذل زرياب جهوداً كبيرة في تطوير الموسيقى الأندلسيّة، وألّف أسلم صاحب أحمد بن كلّيب كتاباً مشهوراً في أغاني زرياب^(٤)، إلا أنّه لم يصل إلينا. أمّا النصوص الشعريّة - في المصادر التي أطلعت عليها - فلم تشر إلى تلك الجهود، ولعلّ المنزلة التي حظي بها - عند الخاصّة والعامة - ولدت الغيرة في نفوس الشعراء؛ إذ أصبح منافساً خطيراً لهم في بلاط الأمراء، فانشغل بعضهم في الطعن فيه وإنكار إنجازاته وابتكاراته، وقد سبقت الإشارة إلى موقف الشاعر مؤمن بن سعيد منه وهجائه المقلّد له في غير موضع من هذه الدراسة.

(١) انظر: المقرئ، التفتّح، ج ٣، ص ١٣١.

(٢) ابن الكثير، التشبيهات، ص ٦٤.

(٣) لم يصل إلينا من أخبار تلك الستائر في العصر الأمويّ سوى قصّة الهبار ستارة للأمير أبي عثمان بن الحكم - أخو عبد الرحمن الأوسط - على من كان فيها، ولم ينبج إلاّ هو وحاربه من حواربه الأربعة عشر. انظر القصّة في: ابن حيّان، اللقيس (مكي)، ص ٩٢.

(٤) الحميدى، الجفوة، ص ١٤٦.

وكان صوت القينة الجميل من أهم مقومات نجاحها، وأكثر ما يلفت انتباه الشاعر الأندلسي المسكون بكل تجربة جمالية حسية، وفي وصف جمال صوت قينة يقول علي بن أبي الحسين^(١):

واهـاً لـذاك الغـناء منك لـقد أباـح للقلـب منك ما خـافا
تاه بالـحـياء على البـصر والسـمـ مع وهـز السـرور أعـطافا
كأنه والقلـوب تألـفـه ألف منها فـسر أضـعافا

وفي وصف سحر صوت قينة أخرى يقول ابن عبد رب^(٢):

رَجْعُ صَوْتِ كَأَنَّهُ نَظْمٌ دُرٌّ ما يَرَى سِلْكُهُ مَوَى الْأَذَانِ
تَنْفُتُ السَّخَرُ بِالْبَيَانِ مِنَ الْقَوِي لِي، وَلَا سِخْرٍ مِثْلُ سِخْرِ الْبَيَانِ

جميع الحقوق محفوظة

إلا أن وجود تلك الأصوات الجميلة لم يمنع من توالي الأصوات التي تثار إلى الساحة الفنية، وقد لاقت تلك النماذج من الشّعراء أو من خرج بها من الأغلبي أن جوالاء القينات وجدن ملاذهن في بعض الحانات الرخيصة، فمن المستبعد أن يدخلن القصور أو بيوت الأثرياء. وفي وصف إحداهن يقول أحد الشعراء^(٣):

وَقِينَةٍ تُدْعَى بِتَفْتِيرٍ مُفَرَّغَةٍ فِي قَالِبِ الزُّورِ
تَبْدُو بِوَجْهِهِ مَا رَأَهُ امْتَرُورٌ إِلَّا تَعْنَى التَّفْخِخِ فِي الصَّوْرِ
كَأَنَّهَا وَالْعَمُودُ فِي حِجْرِهَا حَاسِبَةٌ تُنْبِئُ بِمَخْنُورٍ^(٤)

^(١) ابن الككائي، التشبيهات، ص ١٠٤.

^(٢) المصدر السابق، ابن الدراج السبيعي، أبو عبد الله محمد بن عمر الأنصاري السبيعي (ت ٦٩٣ هـ)، كتاب الإمتاع والانتفاع بمسألة السماع (الجاهات أدبية وحضارية في عصر بني مرين)، ص ١٤٣، (نسب للوُلف البيهقي إلى رقيق الأندلس، ولعله يقصد ابن عبد رب)، دراسة وإعداد: محمد بن شقرون، الرباط، ١٩٨٢، الذّاقة، ديوان ابن عبد رب، ص ١٧١.

^(٣) ابن الككائي، التشبيهات، ص ٢٤٦، ولم ينسبها لشاعر.

^(٤) للمعنى: كأنها في كباها على العمود حاسبة تنسج قيمة الحساب. [عبّاس، التشبيهات، الحاشية، ص ٢٤٦].

لَكَ عَاءٌ مِنْ أَحْسَنِ حَالَاتِهَا صَفُّهُمْ قَفَّاهَا بِالْمَسَاوِيرِ^(١)
 وَصَيْدُهَا الْأَعْرَادُ فِي خَلْوَةٍ يُنْسِيكَ مِنْ صَيْدِ السَّيَّانِيرِ
 تَبَّاهَا مِنْ قَسِيْنَةٍ ، عَقْلُهَا أَخَفُّ مِنْ رِيْشِ الْعَصَافِيرِ

وكانت تلك القيان يجدن لأنفسهن متسعاً في بيوت البخلاء الذين لا يدفعون المال إلا بشقّ الأنفس. ومن نوادر ما يروى عن الشاعر إسماعيل بن بدر^(٢) أنه التقى بإحداهن في بيت أحد البخلاء، فلما سمعها تحرك في نفسه حبّه للدعابة ، فقال ساخر^(٣):

فَأَسْمَعَنَا ذَرْدَاءَ صُلَّ عَاءَ رَجَعَتْ بِصَوْتِهَا تُسْتَكُّ مِنْهُ الْمَسَامِعُ
 فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي كَيْلَابُ تَهَارَشَتْ بِخُلُقِ قَوْمِهَا أَمْ تَقْنَقَتْ بِبِي ضَفَادِعُ

ويمكن من خلال هاتين الصورتين المتناقضتين للقيان الوقوف على الشروط التي ينبغي وجودها في القينة كي تلاقي الاستحسان والقبول، وهي: جمال الصوت والمشكل، وقدر من العقل والثقافة.

مركز ايداع الرسائل الجامعية

وقد بلغ من شدة إعجاب الشعراء بأصوات القيان الجميلة أن جعلوها أصلاً، وجعلوا غناء طيور الروض وذبابها تقليداً لها، ومن ذلك ما أنشده عبادة لأبيه في وصف روضة^(٤):

وَكأنَّ شَدُوْ ذُبَابِهَا وَغِيْرَ سَنَاءُ عَزَفُ الْقِيَانِ تَنَاحَتْ أَوْتَارُهَا

(١) اللكاء : اللبنة الحماة. [ابن منظور، اللسان، لكع]. والمساور : جمع مِسْوَرة، وهي المِخْدَة للسترة أو مَتَكاً من أَدَم. [المصدر السابق، سور].

(٢) إسماعيل بن بدر بن إسماعيل، شاعر أديب مشهور، كان في أيام الناصر أئماً عنده. ترجمته في: الحميدي، الجذوة، ص ١٦٣، الضبي، البغية، ج ١، ص ٢٨١.

(٣) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٢٤٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٥٥.

ولم يحظَ المغنون بما حظيت به القيان من اهتمام الشعراء، ولعلَّ من أسباب ذلك أن عدد القيان فاق عدد المغنين في ذلك العصر، والأهم من ذلك أن الشاعر مسكون دوماً بالمرأة وبكل تجربة جمالية في هذه الحياة، ومن البديهي أن تظهر القيان بهذا الوضوح في شعره، ولاسيما إذا جمعت بين جمال الشكل والصوت.

ولكن الشعر لم يغفل الإشارة إلى بعض المغنين الأندلسيين في العصر الأموي، ومما وصل إلينا من شعر في ذكرهم - في المصادر التي اطلعت عليها - مقطوعتان لمومن بن سعيد: الأولى في ربيع المغني الذي كان يتغنى أمامه ويتقر في الدواة، فقال فيه^(١):

غَنَّاؤُكَ يَا رَبِّيعُ أَشَدُّ بَرْدًا إِذَا حَمِيَ الْمَجْمُوعُ مِنَ الصَّقَايِعِ
وَنَقْرُوكُ فِي الدَّوَاةِ أَشَدُّ مِنْهُ فَمَا يَصُوبُ إِلَيْكَ سِوَى رَقِيعِ
أَغْنِنَا فِي الْمَصِيفِ إِذَا تَلَطَّى وَدَعْنَا فِي الشِّتَاءِ فِي الرَّبِّيعِ

جميع الحقوق محفوظة

والمقطوعة الثانية قالها في منصور المغني، وقوله مكانه من الأصل يهودي^(٢)، فقتال يخاطبه ويتغزل بمن يلقب بابن القط^(٣):
مركز ايداع الرسائل الجامعية

قُـوْلا لِمَنْصُورٍ: أَبـُـرْ نَصْرٍ بِحُرْمَةِ الْمِضْرَابِ وَالْوُتْرِ
أَلَا حَكَمْتَ الْيَوْمَ لَابِنِ الْوَلْدِي لَقَبَ بِالْقِطِّ عَلَى الْبَدْرِ

وعرفت الأندلس في العصر الأموي مختلف الآلات الموسيقية، وقد عدَّ ابن الدراج السبتي في كتابه "الإمتاع والانتفاع" أسماء إحدى وثلاثين آلة موسيقية معروفة في الأندلس^(٤)؛ منها الآلات الوترية، وآلات النفخ، وآلات النقر، وقد امتزجت في تلك الآلات الموسيقية الأشكال المشرقية العربية

(١) ابن عبد ربه، العقد، ج ٦، ص ٨٤.

(٢) للقرني، التفح، ج ٣، ص ١٤٢ - ١٢٥.

(٣) ابن حبان، للفتيس (شالينا)، ص ١٦١.

(٤) ابن الدراج، الإمتاع والانتفاع، ص ٣٣.

والفارسية والبربرية والإغريقية والأندلسية، واستطاع الأندلسيون تطوير عدد منها، لتكون نواة الآلات الموسيقية الغربية فيما بعد.^(١)

ويعدّ "العود" من أشهر الآلات الموسيقية المشرقية التي أدخلت إلى الأندلس، ويسمى كذلك "المزهر"^(٢)، وفيه يقول ابن هُدَيْل^(٣):

قَامَ عَلَى الْيُسْرَى خَطِيباً بِهَا	يَنْطَلِقُ عَنْ جُمْلَةٍ الْخِطَابِ
كَأَنَّمَا يَقْرَأُ مِنْ قَرْعَةٍ	فِي أَوَّلِ مِمنْ نَقْرَةٍ الْوَلَانِ
كَأَنَّهُ فِي فِعْلِهِ عَاشِقٌ	رَوَّعَهُ الْعِشْقُ بِمَجْرَانِ

وفي وصف شكله الأحوف يقول ابن عبد ربه^(٤):

خَوْفٌ مَضْمُونَةٌ أَصَابُهُ مَكْتَبَةُ الْجَامِعَةِ الْأُرْدُنِيَّةِ تَحْرِيكُهَا نَعْمٌ^(٥)
مَرْكَزُ إِيدَاعِ الرِّسَالَةِ الْجَامِعِيَّةِ

وفي خفّته يقول ابن هُدَيْل^(٦):

صُنِعَتْ كَأَجْنَحَةِ الْحَمَامِ خِفَّةً كَادَتْ تَطِيرُ مَعَ الرِّيحِ الْخَفِيفِ

(١) لسميذ عسن تاريخ تلك الآلات الموسيقية، انظر: المهدي، صالح، للموسيقى العربية/ مقامات ودراسات، ص ٧٩ - ٩٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.

(٢) اختلف القدماء واخذت في تعريف المزهر؛ هل هو العود أو الدف. انظر: ابن الدراج، الإمتاع والانتفاع، ص ٣٤ - ٣٥، خليل، عيد للنعم، الموسوعة الموسيقية المختصرة، ص ٢٤ و ٢٩، الطبعة الأولى، مكتبة مديبول، القاهرة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

(٣) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ١٠٧، شوابكة، شعر نبي، ص ١٢٧.

(٤) ابن عبد ربه، العقد، ج ٦، ص ٨٢، ابن الدراج، الإمتاع والانتفاع، ص ٣٥، الذّاية، ديوان ابن عبد ربه، ص ١٦٢.

(٥) في الإمتاع: (خوفاً) بدلاً من (خوفاً)، و(محطوة) بدلاً من (مضمومة)، و(بساكنات) بدلاً من (مسكنات).

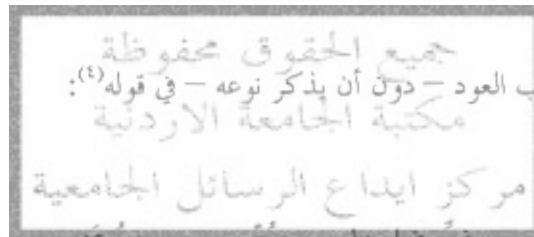
(٦) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ١٠٨، ابن الدراج، الإمتاع والانتفاع، ص ٣٦، شوابكة، شعر نبي، ص ١٠٨.

وكان زرياب أول من صنع العود الخفيف، وقد بلغ وزنه ثلث وزن العود العادي، وأضاف إليه وترًا خامسًا، واتخذ المضرب من قوادم التسر^(١)، ومع أهمية هذه الابتكارات الزريابية إلا أن القليل - في المصادر التي اطلعت عليها - لم يُشر سوى للعود الرباعي الأوتار، حتى في المقطوعات الشعرية التي تأخر زمنها عن زمن زرياب، ومن ذلك قول ابن عبد ربّه^(٢):

أرْبَعَةٌ جَزُؤَاتُ لَأَرْبَعَةٍ أَجْزَاؤُهَا بِالتَّفْوِيسِ ثَلَاثُ حُمْ
أَصْغَرُهَا فِي الْقُلُوبِ أَكْبَرُهَا يُبْعَثُ مِنْهُ الشِّفَاءُ وَالسَّقَمُ

وقول ابن هذيل^(٣):

رَقَّتْ مَعَهُ سَانِيَهُ بِرِقَّةٍ أَرْبَعٍ صَارَتْ عَلَيْهِ قَلَانِدًا وَعُقُودًا



هَاسَانٌ بِكَفِّ صَارِبِهَا يُعْرَبُ عَنْهَا وَمَا هُنَّ فَمٌ^(٥)

ويسبق من النصوص الشعرية القليلة التي بين أيدينا أن زرياب كان من أولئك الذين ظلمتهم شهرتهم، فلم يحفل به أكثر الشعراء، وتدخّلت مآرهم الخاصة وميولهم الشخصية في إقصائه عن الساحة الشعرية وتجاهله إلا في ذم أو هجاء، وكل ما عثرت عليه في مدحه - في المصادر التي اطلعت عليها - بيتان لعبد الرحمن بن الشَّمر^(٦)، وفيهما يقول^(٧):

(١) للقرني: التفح، ج ٣، ص ١٢٦.

(٢) ابن عبد ربّه، العقد، ج ٦، ص ٨٢، ابن الدراج، الإمتاع والانتفاع، ص ٣٦، الذّاية، ديوان ابن عبد ربّه، ص ١٦٢.

(٣) ابن الككّاني، التشبيهات، ص ١٠٦، ابن الدراج، الإمتاع والانتفاع، ص ٣٦، شوايكة، شعر يحيى، ص ٧٨.

(٤) ابن عبد ربّه، العقد، ج ٦، ص ٨٢، ابن الدراج، الإمتاع والانتفاع، ص ٣٦، الذّاية، ديوان ابن عبد ربّه، ص ١٦٢.

(٥) في العقد: نعم، والصواب ما أورده ابن الدراج.

(٦) هكذا ورد اسمه في التفح، ولعله يقصد عبد الله بن الشمر منحه الأمير عبد الرحمن الأوسط ونذبه، أو الشاعر عبد الرحمن بن بشر.

(٧) للقرني: التفح، ج ٣، ص ١٣٠.

كما كان العود غير جليس وسمير للجنود المتعبين من القتال، يستمعون إليه في وقت راحتهم، ويرفّهون به عن أنفسهم، وفي ذلك يقول عبد الملك بن جهور^(١):

حَسَنَـوْنَا غُبَارَ الْعَزْوِ حَتَّى أَمَلْنَا وَلَا غَسَّاسِلُ إِلَّا الْمَصَفَّى الْمِرْدُ
وَأَضْحَرْنَا صَوْتَ التَّوْقِيسِ بُرْهَةً وَنَاسِـخُهَا فِي السَّمْعِ وَثَرٌ مُشَدَّدُ

ومن الآلات الوترية التي عرفها الأندلسيون في ذلك العصر " الرّباب "، وهو على شكلين: أندلسي ومشرقي^(٢)، وهو يشبه العود، إلا أن حجمه أصغر، وفيه يقول ابن هُذَيْل^(٣):

يُخَالِفُ الْعُودَ فِي تَصَرُّفِهِ وَهُوَ عَلَى خَلْقِهِ وَإِنْ صَغُرَا
وَإِنَّمَا يَحْتَضِرُ الَّذِي عَلَى نَعَمٍ مِنْ حِكْمِ الْفُرْسِ^(٤) كُلَّمَا حَضَرَا^(٥)
كَأَنَّهُ فِي يَدَيْ مُخَلِّقٍ كَمُخَلِّقِ الْغُرُفَةِ لِي بِمِثْلِهَا شَعْرَا
كَأَنَّ دَاوُدَ حَمَلَهُ يَوْمَ قُتِلَ الْأَمِيرُ فِي الزُّبُرِ وَالسُّورَا^(٦)

مركز ايداع الرسائل الجامعية

ومن الآلات الوترية المهمة عند الأندلسيين - كذلك - " الطنبور "، وفي وصف شكله يقول ابن هُذَيْل^(٧):

لَهُ لِسَانَانِ مِنْ قَرْنٍ^(٨) إِلَى قَدَمٍ لَا يَنْتَ طِقَانِ بَغِيرِ السَّحَرِ وَالْحِكَمِ
كَأَنَّ أَوَّلَهُ مِنْ حَيَّةٍ مَكْنُوتٍ إِلَى لِيَاثَةٍ كَفَّ غَضَّةَ الْعَنَمِ^(٩)

(١) ابن الككائي، التشبيهات، ص ١٠٦.

(٢) الطنجي، الطرائق والألحان، ص ١١٥.

(٣) ابن الككائي، التشبيهات، ص ١٠٧، ابن الدراج، الإمتاع والانتفاع، ص ٣٦، شوابكة، شعر يحيى، ص ٨٦.

(٤) في الإمتاع : القوس.

(٥) في المصدر السابق : خطرا.

(٦) لم يرد هذا البيت في المصدر السابق.

(٧) ابن الككائي، التشبيهات، ص ١٠٧-١٠٨، شوابكة، شعر يحيى، ص ١٢٣-١٢٤.

(٨) القرن : الرأس. [ابن منظور، اللسان، قرن].

(٩) العنم : واحدتها عنمة، وهو شجر لثين الأغصان لطيفها، يشبه به البنان. [ابن منظور، اللسان، عنم].

وَيَصِفُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ بَدْرِ جَمَالَ صَوْتِهِ بِقَوْلِهِ^(١):

خُـلِّقَ نَظْمًا وَشِيعَ سَكْرَةً فِي سَكْرَةٍ فَمُشِّعُ الطُّنْبُورِ لَيْسَ يُفْـسِقُ
لَا وَالَّذِي خَلَقَ الْخَلِيقَةَ رَحْمَةً مَا فِيهِ اسْتِمَاعُ الْمُحْسِنِينَ فُسُوقُ

وقد كان العازفون يعزفون على تلك الآلات منفردة وبمجموعة، ولابن عبد ربّه مقطوعة شعرية يتحدث فيها عن عدد من الآلات الوترية، وهي: العود، والصنّج، والجهارة، والكيثار (القيثارة)، وذلك في قوله^(٢):

يَا مَجْلِسًا أُتِنَعَتْ مِنْهُ أَزَاهِرُهُ يُنْسِيكَ أَوَّلُهُ فِي الْحُسْنِ آخِرُهُ
لَمْ يَذَرِ هَلْ بَاتَ فِيهِ نَاعِمًا جَدًّا أَوْ بَاتَ فِي جَنَّةِ الْفَرْدَوْسِ سَامِرُهُ
وَالْعُودُ يَخْفِى مَنَاقِبُهُ وَمِثْلُهُ وَالصَّنْجُ^(٣) قَدْ غَرَدَتْ فِيهِ عَصَافِرُهُ
وَاللَّجْهَارَةُ أَهْزَاجُ إِذَا نَطَقَتْ أَجَابَهَا الْكَيْثَرُ الْمُخْطِئُ نَاقِرُهُ^(٤)
وَخَنٌّ مِنْ بَيْنِهَا الْكَيْثَارُ^(٥) مَعْنَى الْيَنْعَمُ الْوَسَائِلُ الْجَامِعَةُ مَا تُخْفِي ضَمَائِرُهُ
كَأَنَّمَا الْعُودُ فِيهَا بَيْنُهَا^(٦) مَلِكٌ يَمْشِي الْهُوَيْنَا وَتَلُوهُ عَسَاكِرُهُ
كَأَنَّهُ إِذَا تَمَطَّيَ وَهِيَ تَتَبَعُهُ كَسَرَى بِنُ هُرْمَزٍ^(٧) تَلُوهُ أَسَاوِرُهُ
صَوْتُ رَشِيْقٍ وَضَرْبٌ لَوْ يُرَاجَعُهُ مَحْجَعُ الْقَرِيضِ إِذَا ضَلَّتْ أَسَاطِرُهُ

(١) ابن الكفّاني، التشبيهات، ص ١٠٩.

(٢) ابن عبد ربّه، العقد، ج ٦، ص ٦١، ابن الدّراج، الإمتاع والانتفاع، ص ٣٧، الذّابة، ديوان ابن عبد ربّه، ص ٧٤ - ٧٥، كما ودت الأبيات: الثالث والرّابع والسادس والسّابع في: ابن الكفّاني، التشبيهات، ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٣) في العقد والتشبيهات والذّيوان: الصنّج.

(٤) في جميع الروايات: الجهارقة، وقد اجتهد د. إحسان عباس أن هذه الكلمة معناها الصنّج، أو أن فيها تصحيف، والمقصود بها الجهارقة؛ أي " جهارة ترك"، وهي آلة موسيقية فارسية (عبّاس، التشبيهات، الحاشية، ص ١٠٦)، وبذلك ينسجم المعنى مع الحديث عن الآلات الموسيقية، إذ لا معنى للجهارقة في هذا السياق. وقد وردت رواية الشطر الثاني من هذا البيت في العقد والذّيوان على النحو التالي: أحابها من طيور النّار نافرته، وفي الإمتاع وردت كلمة الكبر بدلا من الكيثار، والصواب ما أثبت، ولأنّ انكسر الوزن.

(٥) في العقد والذّيوان: الكيثان، ولا معنى لها في هذا السياق؛ إذ لا علاقة بين الكيثان والأنعام.

(٦) في الذّيوان: بينا. (نقلا عن الطّبعة الأولى للتشبيهات).

(٧) في الإمتاع: هرموز، وهذا البيت يؤكّد ما ذهب إليه في تثبيت أسماء الآلات الموسيقية في الأبيات السابقة.

لو كان زرياب حياً ثم أسمعته لما من حسنٍ إذ لا يُناظره

وعند التدقيق في نص ابن عبد ربّه هذا يلاحظ أنّه يتحدّث عن حفل موسيقيّ اجتمعت فيه عدد من الآلات الوترية في جوقة موسيقية واحدة، إلّا أنّ صوت العود يطلغي على أصواتها " وكأما العود فيما بينها ملك "، وهذا اللون من الموسيقى يعرف في الغرب باسم " الكونشرتو المنفرد Solo Concerto " أو " الكونشرتو الحديث "، ويعني هذا المصطلح الحوار بين آلة موسيقية منفردة مع سائر الآلات من مجموعتها نفسها، وهو فنّ لم تعرفه أوروبا قبل القرن السابع عشر الميلادي^(١)، في حين أنّه - كما يبدو من النصّ السابق - قد شاع في الأندلس منذ أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع الهجريّين.

وقد اجتهد سليمان العطار في فتح مغالبي هذا النصّ على تأويلات متعدّدة^(٢)، ووجد في العديد من العبارات تورية تؤكد تطوّر فنّ الموسيقى ونشأة الموشحات في الأندلس منذ العصر الأمويّ، وفسّر قول ابن عبد ربّه " تفقوه أساوره " بأنّها إشارة إلى القوافي وتبعيتها للحج، والأساور تورية عن الأدوار الموسيقية التي تتوازي مع أواخر شعرية^(٣) يابوت عزّوق هذه الأبيات - في الجاهلية - بأنّ الموشحات عرفت في زمن الأمير عبد الله بن محمّد، ويستند في رأيه إلى كلمة " أساطره " الواردة في البيت الثامن؛ لأنّ لفظة أسطر استخدمت للدلالة على البيت في الموشحة والزجل.

ويشير البيت الأخير إلى أنّ الحياة الغنائية قد تطوّرت بعد زرياب، وأنّ الموسيقيين الأندلسيين قطفوا ثمار جهوده في القرن الرابع؛ إذ توفّي زرياب سنة ٢٤٣هـ، وتوفّي ابن عبد ربّه سنة ٣٢٨هـ.

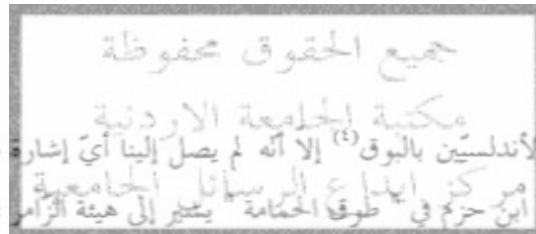
(١) انظر: راغب، نيل، أساسيات النقد الفنيّ، ص ١٨١-١٨٢، الطبعة الأولى، الشركة المصرية العالمية للنشر، بيروت، ١٩٩٦م.
(٢) انظر: العطار، سليمان، الخدانة العباسية في قرطبة (دراسة في نشأة الموشحات)، ص ١٢١-١٢٢، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.

(٣) لمزيد عن الأدوار الموسيقية، انظر: ابن أبي الفلاح، صفّي الدين عبد المؤمن بن أبي الفلاح الأرمويّ البغداديّ (ت ٦٩٣هـ)، كتاب الأدوار في الموسيقى، تحقيق: غطّاس عبد الملك خشبة، مراجعة وتصدير: محمود الحفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م.

أما آلات التفر فمن أشهرها الدفّ والطّار والطبل، وخلت المصادر — التي اطلعت عليها — من أيّ إشارة شعريّة إليها، عدا إشارة عابرة إلى الطبل في معرض حديث ابن حزم عن مخالفة الظنّ الرّؤية، وذلك في قوله^(١):

فَالطَّبْلُ جِلْدٌ فَرَّارٌ وَطَبْنُهُ يَرْتَعَاغُ مِنْهُ وَيَفْرُقُ الْإِنْسَانُ

وأما آلات التفر فمن أشهرها البوق، وهو ما يختصّ به أهل الأندلس، ويعدّ "أشرف آلة عندهم وأكملها لذّة في الرقص والغناء"^(٢). وكان الأمير محمّد بن عبد الرحمن الأوسط من أشدّ أمراء بني أميّة احتفاءً به، وكان "يُنقَرُ عن الحذاق بصناعته المبالغين في العلم به، فيتخذهم لنفسه، ويجمعهم عنده، ويخصّهم بإحسانه، حتّى جمع منهم لديه عدّة لم يأت الزّمان بمثلهم حذاقاً بصناعتهم، واستيطاءً لرسومها واختراعاً في طرقها"^(٣).



ومع عظيم احتفاء الأندلسيين بالبوق^(٤) إلا أنّه لم يصل إلينا أيّ إشارة شعريّة عنه — فيما بين أيدينا من مصادر — ولكنّ ابن حزم في "طوق الحمامة" يشير إلى هيئة الزّامر في حديثه عن عرس في بعض شوارع قرطبة في قوله: "والتكوريّ الزّامر قاعد في وسط الحفل، وفي رأسه قلنسوة وشي، وعليه ثوب مخزّ عبيديّ، وفرسه بالخلية المحلاة بمسكه غلامه، وكان فيما مضى يزمر لعبد الرحمن الناصر، وهو يزمر في البوق بقول أحمد بن كلّيب في أسلم:

أَسْلَمَ مَنِي فَمَنِي هَوَا	هَ أَسْلَمَ هَذَا الرُّشَا
غَزَالٌ لَه مُقَلَّة	يُصِيبُ بِهَا مَن يَشَا
وَمَشَى بَيْنَا حَاسِدٌ	سَيَسْأَلُ عَظَمًا وَشَى
وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَرْتَشَى	عَلَى الْوَصْلِ رُوحِي ارْتَشَى

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١١٨.

(٢) الطنجي، الطرائق والألحان، ص ١١٥.

(٣) ابن حبان، اللقيس (مكي)، ص ٢٩١.

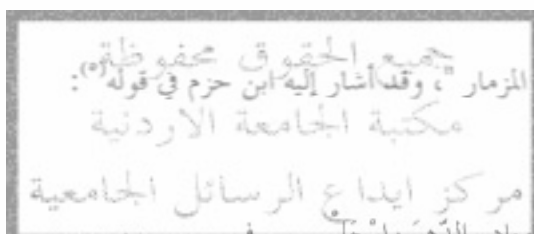
(٤) للمزيد عن فنّ الزّمر في الأندلس، انظر: جرّار، صلاح، الفنون الشعبيّة، ص ١٠١ - ١٠٤.

ومغنّ محسن يسايره فيها".^(١)

ومن الواضح أنّ ابن حزم الفقيه العالم في النصّ السابق يساير الأندلسيّين في احتفائهم بالزمر؛ إذ اعتنى بوصف الزّامر وهيئته وجلوسه بين النّاس وصفاً دقيقاً، ويبدو منساقاً وراء الإحساس بجمال العرف والغناء، فلا يبدو منزعجاً أو متحفّظاً في رصد المشهد المائل أمامه.

ومن آلات التّفخ التي عرفها الأندلسيون في العصر الأمويّ "الكُوبة"^(٢)، وقد أشار إليها أحمد ابن نعيم^(٣) في قوله^(٤):

كَأَنَّ كُلَّنا صَفْحَتَيَّ وَجْهِهَا رُكْبَتَا مِنْ كُوبَتِي نَافِخِ



نَحْلُ هَذَا وَبَاهِ الدَّهْرِ وَارْحَلْ فَنَسِيَ رُبَّ ضَاحٍ الرُّبِّيَّ مَطِيَّ الْعِقَارِ
وَأَخَذَهَا بِالْبَيْدِ مِنْ نَعْمَاتِ الْ— عَوْدِ كَيْمَا تُحَثُّ بِالْمَزْمَارِ

وجاءت دعوته لافتتاح القصائد بالمقدّمات الغنائيّة دليلاً على رهاقة حسّه، ومن قوله في ذلك^(٥):

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ٣١٥ - ٣١٦، كما وردت الأبيات التي في سياق القصة في: الخميدّي، الجلود، ص ١٤٣، الطيّبي، البغية، ج ١، ص ٢٥٠.

(٢) الكوبة: الطبل الصغير، ولكنّ السياق يشير إلى أنّ المقصود بها آلة موسيقيّة تنفخ بالفم. انظر: عباس، التشبيهات، الحاشية، ص ٢٤٦.

(٣) أحمد بن نعيم السّلمي، أديب شاعر قديم، مشهور الشعر، قبيح المصداق، ولعله كان في أيام النّاصر. ترجمته في الحميدّي، الجلود، ص ١٤٨.

(٤) ابن الكيّ، التشبيهات، ص ٢٤٦.

(٥) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ٢٥٥.

(٦) المصدر السابق.

إِنْ خَـمِرٌ مِّنَ الْوَقْفِ عَلَى الدَّارِ، وَقَفَ الْبَنَانُ بِالْأَوْتَارِ

ومن الفنون التي ارتبطت بالغناء والعزف فنّ الرقص، ولاقي - كما لاقت غيره من الفنون - اهتمام الأندلسيين المسكونين بالجمال وحبّ الحياة والإحساس بكلّ ملذاتها ومباهجها.

وقد عرفت الأندلس ألواناً من الرقص الذي يتطلّب حفة ورشاقة وليونة، ويقول عبادة بن ماء السّماء في وصف راقصة^(١):

تُصَابِعُ الدُّسُوسَاتِ لَا تُخَالِفُهُ فِي رَفْعِهَا تَارَةً وَفِي الْخَفْضِ
وَتُلْتَمِسُ وَيْ ثُمَّ تَسْتَلِ وَيْ قَرْنِي عَصِيْبًا مَرْوَحًا مِنْهَا عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ وَطِئْتُ مُقَلَّةً يَرْقُطُ جَمِيعَ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةً لَمْ تَمْتَنِعْ مِنِّي مِنْ حِفَّةِ الْعَمَلِ ضِي

مكتبة الجامعة الأردنية
مركز أيداع الرسائل الجامعية

ولا بدّ للراقصة كي تحوز إعجاب المشاهدين أن تتمتع بصفات جسديّة أساسيّة، منها: طول العنق والسّوالف، ورقّة الخصر، وحسن تناسق الجسم، ولين الأصابع، وخفة القدمين، وسرعة في الدّوران^(٢). وفي المصادر المختلف العديد من المقطوعات الشعريّة التي تصف المرأة بتلك الصّفات، ولكنّ انقطاعها عن السّياق الذي قيلت فيه لا يمكن من الجزم بأنّ الشّاعر يتحدّث عن راقصة أو امرأة جميلة تتوفّر فيها تلك الصّفات، ومّا فيه إشارة واضحة إلى المقوّمات الجسديّة للراقصة قول عبادة^(٣):

يُعْجِبُنِي أَنْ تُقَدِّمَ وَمَ قَدِّمًا تُفْتَلِّ قَبْلَ الْجَفَّوْنَ أَكْمَامًا
كَأَنَّهَا فِي اعْتِدَالِهَا أَلْفٌ تُرْجِعُ عِنْدَ انْعِطَافِهَا لَامًا

(١) ابن حميس، أدباء مالقة، ص ٢٨٩، ابن الأثير، تحفة القادِم، ص ١٣١، أعاد بناءه وعلّق عليه: إحسان عباس، الطّبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) انظر: صفي، عبد الرّحمن، ألحان الحان، ص ١١٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٧.

(٣) ابن حميس، أدباء مالقة، ص ٢٨٩.

وقوله^(١):

راقصة لا تحس وطأتها كأنها في الميـوب كالطيف
تثقل أقدامها على عجل كأنما رقصها على سيف

وهذا التصوير الدقيق لحركات الراقصة - ولا سيما حركات القدمين - يوحى بأن الشاعر يصف أمامه راقصة " باليه "، وهي من الرقصات الأوروبية المشهورة، وتتطلب مهارة فائقة في نقل حركة القدمين، وقد تكون هذه الرقصة قد انتقلت مع الصقالية إلى الأندلس، أو أنها انتقلت من الأندلس مع غيرها من التراث الموسيقي الأندلسي إلى أوروبا، وطورها الأوروبيون كما طوروا فنونا كثيرة.^(٢)

ولم يكن الرقص في ذلك العصر مقتصرًا على النساء؛ إذ ينسب إلى عبادة أنه وصف أحد فتيان بني حمود - وهو يرقص - بقوله^(٣):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز أيداع الرسائل الجامعية

ومتوَّع الحركات يلعب بالتهى لبس الخامس عن عند خلع لباسه
متأوِّد كالغصن عن عند كتيه متلاعـب كالطلي عن عند كناسه
بالعقل يلعب مقلًا أو مذبـرًا كالدهر يلعب كيف شاء بناسه
ويضمُّ للقدمين من راسه رأسه كالسيف ضمُّ ذهابه لرياسه

كما قال فيه^(٤):

(١) ابن حميس، أدباء مالقة، ص ٢٨٩.

(٢) عن الرقص الأندلسي وأثره في الرقص الأوروبي، انظر: عيد، الفنون الأندلسية، ص ١٠٣ - ١٠٨.

(٣) ابن حميس، أدباء مالقة، ص ٢٨٩، وقد نسبها للمؤلف في موضع آخر من هذا الكتاب إلى ابن خروف، ص ٣٢٦.

(٤) للصدر السابق، ص ٢٨٩.

أَلَا رُبُّ ظُلْمٍ قَدْ ثَنَّى قَلْبَهُ
فَأَخْجَلَ فُجْـيَ حَالَاتِهِ الْعُصْنَ الرُّطْبَا
إِذَا يَسْتَرْسِي أَوْ يَتَنَّى وَهُوَ لَاعِبٌ
فَطَوَّرَ تَسْرِي عَيْنًا وَطَوَّرَ تَرَى قَلْبًا

وتشير هذه الأبيات والأبيات التي سبقتها - في وصف هذا الرقص - إلى شكل من أشكال العروض البهلوانية، فحركات الرقص متنوعة، وثيابه خفيفة لا تعيق الحركة، ويمتاز بالخفة والسرعة، وله قدرة على تطير جسده في الهواء ووضع رأسه بين قدميه، وهذه الصورة تشبه صورة لاعب " السيرك " في وقتنا الحاضر، ولو صحّت نسبة الأبيات الأربعة الأولى لعبادة، فإنّ ذلك دليل على أنّ الأندلس قد عرفت هذا اللون من الفنون منذ القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس الهجريين.

وعلى الرغم من قلة ما وصل إلينا من نصوص شعرية توضح معالم الفنون الموسيقية وما يتعلق بها من فنون أدائية^(١)، إلّا أنّها - في مجملها - تؤكد أنّ الأندلس شهدت لهضة موسيقية راقية منذ بداية العصر الأموي، وأنّ ثمة علاقة تربط بين الغناء والعزف والرقص والألعاب البهلوانية وغيرها وبين فنّ التمثيل.^(٢)

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وعلى الرغم من تشدّد بعض الفقهاء في التخفيف من انتشار هذا اللون من اللهو الدنيويّ إلّا أنّ الأندلسيّ كسر تلك الحواجز والقيود، وأبى إلّا الاستمتاع بمباهج الحياة وملذاتها، وانقاد لسحر الموسيقى، وكانت المرأة عنصراً مؤثراً لا يستغنى عنه في هذا اللون من الثقافة أيضاً.

(١) الفنون الأدائية : هي تلك الفنون التي تؤدّى أمام جمهور من المتلقين ، مثل : الغناء ، والإنشاد ، والعزف ، والرقص ، والعروض البهلوانية ، والتمثيل وألعاب السحر وخفة اليد ، وما يشبهها ، وتتطلب مهارات فردية أو جماعية ، وقدرات جسدية عالية .

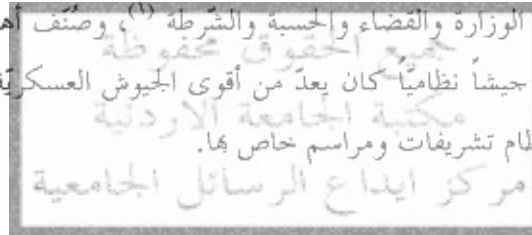
(٢) عن علاقة التمثيل بالفنون الشعبية في الأندلس ، انظر ، حرّار ، صلاح ، الفنون الشعبية ، ص ٩١ - ١٤٢ .

الفصل الثالث

جميع الحقوق محفوظة
معالم المدنية في الشعر
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المبحث الأول النظم والمراسم

بدأت معالم الحياة السياسية والإدارية والعسكرية تتضح في الأندلس منذ عهد الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ)، وشهدت تطوراً كبيراً في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ)، وبلغت أوجها في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ)، مما أضفى على ملك بني أمية بالأندلس أبهة وجلالة، وجرى تنظيم أمور الدولة والرعية على أحسن وجه، وتطورت خطط الوزارة والقضاء والحسبة والشرطة^(١)، وصنّف أهل الخدمة إلى مراتب وطبقات، وامتلكت الدولة جيشاً نظامياً كان يعدّ من أقوى الجيوش العسكرية في العصر الوسيط، وأصبح لكل مناسبة عامة نظام تشريفات ومراسم خاص بها.



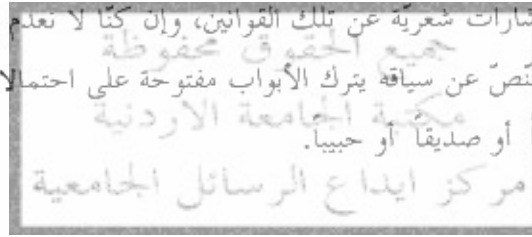
وواكب الشعر هذه التطورات، إلا أنه لم يُعنَ بتسجيل جوانب هذه الحياة لذاها؛ فوصفُ التنظيمات السياسية والإدارية صدر عن شعراء تقلّدوا مناصب إدارية معينة، أو كانوا من المقرّين إلى أصحاب المناصب العليا، وجاء في سياقات اجتماعية مختلفة كالتّهنئة والمديح والهجاء والشكوى والعتاب، ورسمت التصوُّص جانباً من النظام العسكري من خلال مدح الخلفاء والقادة العسكريين والإشارة إلى انتصاراتهم المختلفة، كما حفلت بإشارات متناثرة عن المظاهر الاحتفالية القريبة إلى الوجدان الشعبي، والمنسجمة مع طبع الأندلسي المحب للحياة وبهجتها وملذاتها. وفي المصادر المختلفة الكثير من الإشارات إلى طول تلك القصائد التي عجز المؤرخون عن تسجيلها، فاندفع كلٌّ منهم لانتقاء بعض الأبيات الشعرية المنسجمة مع مذهبه وولائه وذوقه، دون إغفال أهمية الشاعر ومكانته في بلاط الحكام.

(١) انظر: ابن حبان، للمقتبس (شاليتا)، ص ٢٥٢، المقرئ، التفح، ج ١، ص ٢١٦ - ٢١٩.

أولاً - التنظيم السياسي والإداري :

بدأ عبد الرحمن الداخل بتأسيس الإمارة الأموية في عام (١٣٨هـ)، وهو أول من تلقب بالأمير، وكان متواضعاً مع رعيته، كما كان " يقعد للعامة ويسمع منهم، وينظر بنفسه فيما بينهم، ويتوصل إليه من أراده من الناس، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلامته إليه دون مشقة، وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقت طعامه، ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه " ^(١).

ومع تطور أساليب الحياة الحضارية في الأندلس بدأ التواصل بين الحكام والرعية يأخذ منحى منتظماً، فأصبحوا " يظهرون للناس في الأحيان على أبهة الخلافة، وقانون لهم في ذلك معروف " ^(٢)، إلا أن المصادر لم تحتفظ بإشارات شعرية عن تلك القوانين، وإن كنا لا نعدم شاعراً يشكو حجاباً منيعاً، ولكن انقطاع النص عن سياقه يترك الأبواب مفتوحة على احتمالات كثيرة فقد يكون المحجوب عنه أميراً أو وزيراً أو صديقاً أو حبيباً.



وقد شهد نظام الوزارة - في ذلك العصر - تطوراً فاق المشرق بكثير، بل هو نظام أقرب إلى نظام الوزارات في العصر الحديث، وكان تعيين الوزراء وعزلهم مرتبطاً بالخليفة نفسه، وعن ذلك يقول المَقْرِي: " كانت في مدة بني أمية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة، ويخصهم في المجالسة " ^(٣).

وكان الخلفاء يختارون من الوزراء شخصاً يسمونه الحاجب ^(٤) ليشرّف على سائر الوزراء، وهو منصب يشبه منصب رئيس الوزراء في العصر الحديث، وأشهر من حمل هذا اللقب - على امتداد ذلك العصر - المنصور بن أبي عامر، وفيه يقول ابن درّاج ^(٥):

(١) المَقْرِي، التفحّ، ج ١، ص ٣٣٢ .

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٤ .

(٣) المصدر السابق، ص ٢١٦ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) ابن درّاج، الديوان، ص ٣١ .

وَحَيْرُ شَمْسٍ "لَعِيدِ شَمْسٍ" أَحْلَهُ السَّعْدُ حَيْرَ قَصْرِ
خَلِيفَةُ اللَّهِ رَاحَ ضَعِيفاً لِسَيْفِهِ الْحَاجِبِ الْأَعْرُ

وقد حافظ المنصور بن أبي عامر على لقبه هذا بعد توثبه على الخلافة في زمن هشام المؤيد، واقترب لقبه بلقب الملك في مدائح الشعراء، ومن ذلك قول ابن دراج^(١):

هُوَ الْحَاجِبُ الْمَنْصُورُ وَالْمَلِكُ الَّذِي سَعَى فَتَعَالَى حُدَّهُ فَتَنَاهِي

إلا أنه حين وطّد دعائم ملكه تخلّى عن لقب الحجابة واكتفى بلقب المنصور، وسلم ولده عبد الملك خطة الحجابة والقيادة العليا، وفي التهنئة بهذه المناسبة يقول ابن دراج^(٢):

فَإِنْ غَدَتْ مِنْهُمْ الْأَيَّامُ مُوَحَّشَةً فَالْحَاجِبُ الْقَائِدُ الْأَعْلَى لَهَا خَلْفُ
سَهْمُ الْخِلَافَةِ إِلَّا أَنْ رَاحَتْهُ - وَإِنْ نَأَتْ أَوْ تَدَانَتْ - لِلْمُنَى هَدَفُ
تِلْكَ الْحِجَابَةِ لَا مَطْلُوبُهَا عَوَزُ فِيمَا لَدَيْهِ وَلَا مَوْعُودُهَا خُلْفُ

ولم يكن هذا اللقب مقتصرًا على دار الخلافة وحدها، ففي الثغر الأعلى بسرّسطة كان المنذر ابن يحيى التّجيني يلقّب بالحاجب الأعلى^(٣):

الْحَاجِبُ الْأَعْلَى الَّذِي زُهِيتَ بِهِ رُبُّ الْعُـلَا وَمَفَاخِرُ الْأَحْسَابِ

(١) ابن دراج، الديوان، ص ١٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٦٠.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧.

وفي توليته ولده يحيى خطّة الحجابة يقول ابن درّاج^(١):

فَقَدْ خَلَعْتَ عَلَى يَحْيَى حِجَابَهَا مُحْفُوفَةً مِنْكَ إِعْزَازاً وَسَلْطَانَا

وتُظْهَرُ بعضُ الإشاراتِ الشَّعْرِيَّةِ أَنَّ هذا اللقبَ كان مستخدماً في مجال القيادة العسكريَّة، ومن ذلك ما أشار إليه ابن عبد ربّه في أرجوزته التَّاريخِيَّةِ عن القائد بدر بن أحمد^(٢):

فَنَزَعَ الْحَاجِبُ تَاجَ مُلْكِهِ وَقَادَهُ مُكْتَفِئاً لِهُلْكِهِ

ومن الألقاب التي شاعت في الشَّعر - كذلك - لقب ذي الوزارتين، وهو لقب ساد في المشرق والمغرب معاً، وكان يقصد به في الأندلس الوزير الكاتب، وقد أورد ابن الأثير في كتابه "إعتاب الكتاب" أَنَّ الأمير عبد الله بن محمد عزّل الزَّجالي^(٣) عن خطّتي الوزارة والكتابة، ثمَّ أعاده إليهما، وفي ذلك يقول ابن عبد ربّه^(٤): **أيداع الرسائل الجامعية**

مَا فَرَحَ النَّاسُ مِثْلَ فَرَحِهِمْ لَمَّا أَقِيلَ الْأَدِيبُ وَاسْتُوزِرَ
وَابْتَهَجَ الْمُلْكُ حِينَ دُبَّرَ عَيْنُ الْإِمَامِ الَّتِي بِهَا يُبْصَرُ

ومن الإشارات الشَّعْرِيَّةِ إلى ذلك اللقب قول ابن درّاج^(٥):

(١) ابن درّاج، الديوان، ص ١٣٥.

(٢) ابن عبد ربّه، العقد، ج ٤، ص ٤٦٦، الدّاية، ديوان ابن عبد ربّه، ص ١٨٨.

(٣) هو عبد الله بن محمد الزَّجالي، من بيت علم ورياسة، استكتبه الأمير عبد الله بن محمد والخليفة التَّاصر من بعده، ت (٣٠١ هـ) أو (٣٠٢ هـ). أحبارُه في: ابن حيّان، المقتبس (مكيّ)، ص ٣٢، ابن القوطيّة، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٣٣، وغيرهما.

(٤) ابن الأثير، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعيّ (ت ٦٥٨ هـ)، إعتاب الكتاب، تحقيق: صالح الأشر، ط ١، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة بدمشق، ٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م، الدّاية، ديوان ابن عبد ربّه، ص ٨٩.

(٥) ابن درّاج، الديوان، ص ٣١.

زَارَ لِتَطْهِيرِ مَنْ كَسَاهُ وَزَارَتْنِي مَفْخَرٍ وَخَطَرٍ

وفي صدور كتاب من الخليفة هشام المؤيد إلى عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر بتلقيبه
المظفر وتولية ابنه محمد خطة الوزارتين بعد انتصاره في غزوة قلينة^(١) يقول ابن دراج مخاطباً
المظفر^(٢):

اليوم أبهجت المني إبهاجها وتوسّطت شمس الضحى أبراجها
ما للوزارة لا تضيء لنا وقد أضحى سراج العالمين سراجها

وفيهما عن ابنه محمد^(٣):

جميع الحقوق محفوظة
فنظمت في صدر الوزارة كعبة الجامعة وأقيمت في رأس الرئاسة تاجها
مركز أيداع الرسائل الجامعية

وفي تقليد الحكم بن المنذر التّجيني الوزارتين يقول^(٤):

ثم احتوى "حكّم" مُثنى وزارتيها ففرزتم بالعلامثنى ووجدانا

وقد بلغت مراتب الوزراء غاية الضبط، وكان هذا المنصب متوارثاً في بيوتات معلومة، ولم
يكن متاحاً للعوام مطلقاً.^(٥)

(١) انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦-١٧.

(٢) ابن دراج، الديوان، ص ٢٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨.

(٤) المصدر السابق، ص ١٣٦.

(٥) انظر: المقرئ، التفتح، ج ١، ص ١٦.

وكان عبد الرحمن الأوسط " أول من ألزم هؤلاء الوزراء الاختلاف إلى القصر كل يوم، والتكلم معهم في الرأي، والمشورة لهم في التوازل، وأفردهم بيت رفيع داخل قصره مخصوص بهم يقصدون إليه ويجلسون فيه فوق أرائك قد نصّدت لهم ".^(١)

وقد جعل لكل واحد من الوزراء دستاً مفروشاً بالكثبان يجلس فيه ويرفع عند عزله، وكان دست الحاجب مرتفعاً عن سائر الوزراء، وقد ظلّ هذا النظام سائداً، ولم يخالف إلا في ظروف استثنائية وبإيعاز من الخليفة نفسه.^(٢)

وقد بلغ من ضبط خطة الوزارة في ذلك العصر أن صُنّفت المقامات ضمن المرتبة الواحدة حسب نسبهم، وكان الأمير محمد بن عبد الرحمن " هو الذي قسّم مراتب أهل الخدمة، وفصل خططهم التبيهة، وأناف على جميعهم من متقلدي خطة الوزارة، وأشعرهم التعظيم والتجّلة، وأرجح أهل الشام من الوزراء على أصحابهم الأندلسيين، فقدمهم في الإذن عليه، وأعلاهم في الجلوس على أرائكهم بيت الوزارة "^(٣)، إلا أن ولده الأمير عبد الله بن أحمد فسّخ تلك المراتب من بعده، وقدم البلديين على الشاميين؛ إذ يومئذ " أن يعزل الوزراء في عهد خاولوا فسيح التراتيب المتعارف عليها في عهد أبيه، و أراد كل من موسى بن حذير الشامي وعيسى بن أحمد بن أبي عبدة البلدي "^(٤) أن يكون مجلسه فوق الآخر، فلمّا احتكما إلى الأمير وقّع على الكتاب مقدّماً عيسى بن أحمد:

مَوَالِي قَرِيشٍ مِنْ قَرِيشٍ فَقَدِمُوا مَوَالِي قَرِيشٍ لَا مَوَالِي مُعْتَبٍ ^(٥)

(١) ابن حيان، المقتبس (مكّي)، ص ٢٩.

(٢) " كرم الخليفة المستنصر الوزير القائد الأعلى غالباً، فرفع فراشه فوق فراش الوزراء للمركبة فيه على المنازل المعهودة الترتيب لديهم في طيقاتهم، وتعلّيته في القعود فوق جميعهم، تشريفاً له لم يسبق إلى مثله ". ابن حيان، المقتبس (الحنّي)، ص ٢١٩.

(٣) المصدر السابق (مكّي)، ص ١٣٧.

(٤) المصدر السابق، ص ١٩٦ - ١٩٧، ابن الأثير، الحلة، ج ١، ص ١٢٠ - ١٢١، حرّار، صلاح، التوقيعات الأندلسية، ص ١٢٠.

(٥) من أهل قرطبة، يكنى أبا الأصم، كان نبلاً جيّد الفهم، متصرفاً في فنون العلم، ت (٣٨٠ هـ). ترجمته في: ابن الفرضي، تاريخ العلماء، ج ١، ص ٣٧٨.

(٦) حوّل اسم مغيث إلى معتب انقياداً للثقافية .

إذا كان مَولانا يُساويه ^(١) عندنا سواء فمولانا كآخَرَ أجنبي

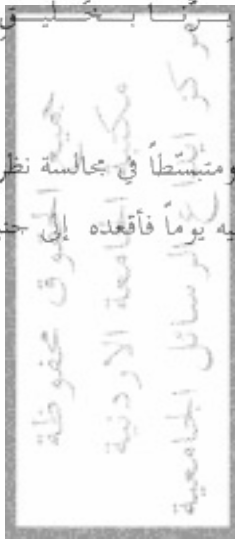
وكانت رتبة الوزارة بالأندلس أن يقوم الوزراء لنظرائهم، ولا يحجبون بعضهم بعضاً ولا لحظة، فإذا حدث ذلك كان مثار غضب واستياء المحجوب، ومما يروى - في هذا الباب - أن أحمد بن عبد الملك بن شهيد زار عبد الملك بن جهور، وكانا جميعاً يخدمان الناصر عبد الرحمن، فوافقه محجوباً، ولم يمكنه الاجتماع به، فكتب إليه ^(٢):

أتيناك لا عن حاجة عرضت لنا وإليك، ولا قلب إليك مَشوق
ولكننا زُرنا - بفضل حلومنا - ^(٣) حِمَاراً تولى برنا بعُقوقٍ

فأجابه ابن جهور بقوله ^(٤):

حَجِينَاكَ لَمَّا زُرْتَنَا غَيْرَ تَائِقٍ بِقَلْبٍ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ
ما كان يبطارُ الشَّامَ ^(٥) بموضعٍ يُبَاشِرُ فِيهِ رُكَّابُ كُلِّ قَلْبٍ

ويبدو أن ابن جهور هذا كان ميالاً إلى مخالفة الثرائيب غير آبه بها، ومتسبطاً في مجالسة نظرائه وأقرانه، ومن ذلك ^(٦) أن الوزير أبا وهب عبد الوهاب بن محمد ^(٧) دخل عليه يوماً فأقعده إلى جنبه،



^(١) في الخلّة : يساوم.

^(٢) ابن خاقان، المطمح، ص ١٦٨، ابن الأثير، الخلّة، ج ١، ص ٢٣٨.

^(٣) في الخلّة : يضعف عقولنا.

^(٤) المصدران السابقان.

^(٥) يقال إن جدّ أحمد بن عبد الملك كان يعمل بيطاراً . [المصدران السابقان، الحاشية].

^(٦) انظر القصة في: الزبيدي، طبقات التحويين واللغويين، ص ٣٢١ - ٣٢٢، ابن الأثير، الخلّة، ج ١، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

^(٧) عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب، من أهل الجزيرة، ت (٣٢٨هـ). ترجمته في: الحميدي، الجذوة، ص ٢٩١، ابن الأثير، الخلّة، ج ١، ص ٢٤٠.

ومال إليه بحديثه، ثم دخل الحروفي^(١)، وكان من كبار رجال التدبير أيام عبد الرحمن الناصر، فأقعه ابن جهور فوق أبي وهب، فخرج أبو وهب مغضباً، وكتب إلى ابن جهور بأبيات منها:

بلوتك أسنى العالمين وأفضلا
فقل لي: ما الأمر الذي صار مخملي
تقدم من أضحى تقدم لومه
لقد ظل هذا من فعالك مشكلا

فاعتذر إليه بأبيات منها^(٢):

وما لي بمن غدر يفي بجنائتي
فلان عز تقصيري^(٣) بغير تعمّد
ولا خطّة أضحى عليها موعلاً
فقط عليه منعماً متطولاً

وقد كان من عادة الأمراء والخلفاء أن يستدعوا الوزراء إلى مجالسهم جماعة وأشتاتاً، ويناقشونهم في شؤون الدولة والرعية، وكان عبد الرحمن الأوسط أول من استن هذه السنة الحميدة، إذ كان " يخوض معهم فيما يطالع به من أمور مملكته، ويفحص معهم الرأي فيما يرمه من أحكامه، وإذا قعدوا في بيتهم أخرج رقاعه ورسائله إليهم بأمره ونهيه فينظرون فيما يصدر إليهم من عزائمه"^(٤)، وجرى على ذلك من جاء بعده.

(١) في الحلة: الحروفي، وهو محمد بن عبد الله الحروفي، من كبار رجال التدبير في أيام الخليفة الناصر، ت (٣١٤ هـ). ترجمته في: ابن

عذارى، البيان المغرب، ج ٢، ص ١٥٩.

(٢) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص ٣٢٢، كما ورد البيت الثاني في: ابن الأثير، الحلة، ج ١، ص ٢٤٤.

(٣) في الحلة: عن تقصير.

(٤) ابن حيان، المقفيس، (مكي)، ص ٢٩.

وقد جرت العادة أن يطالع الوزراء الخليفة بآرائهم في بطاقة، فلما طالع الوزير التضر بن سلمة^(١) الأمير عبد الرحمن الأوسط برأيه في أمر في ورقة، وقف الأمير عليها ولم يعجبه ذلك الرأي، فوقع له على ظهرها^(٢):

أنت يا تضر أبدة لست تُرجى لفائدة
إنما أنت عدّة لكنيف ومائدة

أما خطبة الكتابة فقد كانت على ضرين أعلاهما كاتب الرسائل، ثم يليه كاتب الزمام، والأول أخطر في عيون الناس وأعظم^(٣). وكان كاتب الرسائل يكتب للأمير ووزرائه، فقسمها عبد الرحمن الأوسط إلى خطتين: إحداهما للكتابة لدى الأمير، والثانية للوزراء^(٤)، وقد كان هذا المنصب وفقاً على المسلمين دون النصارى واليهود^(٥).

ومن الإشارات الشعرية إلى هذه الخطبة قول ابن دراج في أحد رؤساء الكتاب^(٦):

كأن العلاء خيّر في الولاية وأعطي سلطاناً هُنَّ احتكامة
فأعطاك حُرَّ الخطاب المقاد وولاك دُرَّ المسال انتظامه

وأما خطبة القضاء فقد كانت أعظم الخطوط عند الخاصة والعامة، ولا سيما إذا اجتمعت إليها الصلاة^(٧).

(١) محدث قديم، ولي القضاء. ترجمته في: الحميدي، الجذوة، ص ٣٥٨.

(٢) المقرئ، التفتح، ج ١، ص ٣٥٣، جرار، صلاح، التوقيعات الأندلسية، ص ١٢١. وقد اعتمد الأمراء والخلفاء الأمويون في الأندلس على فرق التوقيعات كثيراً، وكان من أهم وسائل تنظيم أمور الدولة والرعية. انظر: جرار، صلاح، التوقيعات الأندلسية، ص ٥٨-٨٧.

(٣) المقرئ، التفتح، ج ٣، ص ٢١٧.

(٤) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٣٣٠ - ٣٣١.

(٥) المقرئ، التفتح، ج ١، ص ٢١٧.

(٦) ابن دراج، الديوان، ص ١١٧.

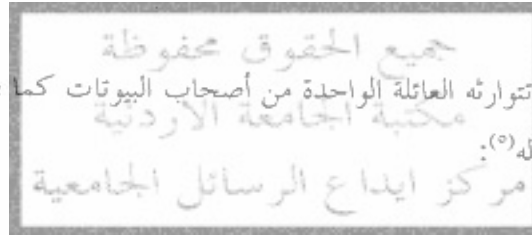
(٧) النباهي المالقي، الشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي (ت بعد ٧٩٢هـ)، تاريخ قضاة الأندلس (كتاب الرقية العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، ص ٦-٥، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، د.ت. المقرئ، التفتح، ج ١، ص ٢١٧ - ٢١٨.

وقد امتاز القضاء بالأندلس زمن بني أمية عن نظيره في المشرق بأنه كان غير مركزي، وكان لقب قاضي الجماعة أو قاضي القضاة لقباً تشريفاً لقاضي قرطبة مركز الخلافة وكان يسمى من قبل قاضي الجماعة^(١)، ولم يكن قاضي القضاة يتدخل في تعيين أي من القضاة في مدن الأندلس وكورها بل كان الأمراء والخلفاء هم الذين يعينون قضائهم ممن هم على المذهب المالكي^(٢)، كما كانوا يعينون ويعزلون قضاة التصاري^(٣).

وتسدر الإشارات الشعرية - في المصادر التي اطلعت عليها - إلى هذه الخطّة، وفي شعر ابن درّاج إشارة إلى منصب قاضي القضاة، وذلك في قوله^(٤):

وفي قاضي القضاة قضاءً حقّ لِمَنْ يَرعاهُمْ راعي الرّعاءِ

وكان هذا المنصب تتوارثه العائلة الواحدة من أصحاب البيوتات كما في خطّة الوزارة، وإلى ذلك يشير ابن درّاج في قوله^(٥):



أبّ وفّاك ميراث المساعي تهديّ فارتيدي حِلماً وعِلماً
تَلَبَّسُهُ بِإِفْضَالٍ وَفَضْلِ ثَمّاك وقديّ ديناً ودنيا
كما وفّيته عهد الوفاء فلم تُسبقْ إلى ذاك الرّداء
وتنشُرُهُ بهديّ واهتداء لتخلّفه على ذاك البناء

(١) النباهي المالقي، تاريخ قضاة قرطبة، ص ٢١.

(٢) للمزيد عن خطّة القضاء في الأندلس، انظر: المصدر السابق، ص ٢ - ٢١، الحشني، أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الحشني، قضاة

قرطبة، نشر: السيّد عزّت العطار، القاهرة، ١٣٧٢هـ.

(٣) من ذلك أنّ الخليفة المستنصر عزل قاضي التصاري بقرطبة أصغ بن نبيل لسوء مخاطبة الخليفة في الترجمة عن بعض وفود التصاري.

انظر: ابن حيّان، المقتبس (الحشني)، ص ١٤٦.

(٤) ابن درّاج، الديوان، ص ٣٢٥.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٢٠.

وقد سعى هؤلاء القضاة إلى تحرّي العدل مع الناس، وكانت الرعية تناقشهم بأمور دينهم ودنياهم دون حرج، وقد سبقت الإشارة إلى المحاورة بين الفتي القرطبي المتأدّب والقاضي أبي محمد ابن عيسى في شأن تحريم الخمر دون خوف أو تهيب.^(١)

وكانت خطّة الفقهاء من الخطط المعظّمة عند الخاصّة والعامة، وقد وردت عنها إشارة شعريّة واحدة - في المصادر التي اطلعت عليها - في أبيات لأبي سعيد محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم^(٢) يصون نفسه عن سلوك طريق الرياء والتّفاق في طلب تلك الخطّة، وفيها يقول^(٣):

يَقْصُرُ بِي عَنْ خُطَّةِ الْفُقَهَاءِ	تَقَلَّصُ سُرْبَالِي وَرَثُ رَدَائِي
وَأَنْ لَيْسَ لِي فِي الْبَيْتِ كَيْسُ دَرَاهِمٍ	أَتَيْتُهُ بِهِ يَوْمًا عَلَى نُظْرَائِي
وَأَنْ مَطَايَاهُمْ خِلَافَ مَطَائِي	وَسَرَّجِي - إِذَا وَافَقْتُهُمْ - وَغَنَائِي
خِلَافَ سُجُوجٍ يَمْتَطُونَ وَخَلْفَهُمْ	عَبِيدٌ لَهُمْ مِنْ خَيْرَةِ الْوُصَفَاءِ
يَقُولُونَ لِي: لَوْ كُنْتَ تَفْعَلُ مِثْلَهُمَا	نَحَاوَلُهُ مِنْ حُدْمَةِ الْوُزَرَاءِ
وَصَاحِبَتَهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ مُرَاكِبًا	لَهُمْ، كُنْتُ مَعْدُودًا مِنَ النُّجَبَاءِ
فَقُلْتُ: ذُرُونِي، إِنَّ فِيَّ قِنَاعَةً	وَلِلَّهِ فِي تَأْمِيلِي وَفِيهِ رَجَائِي
إِذَا كَانَ لِي قَوْتُ مِنَ الْبَرْدِ دَائِمٌ	أَرُدُّ بِهِ جُوعِي وَجُرْعَةَ مَائِي
فَكُلُّ نَعِيمٍ بَعْدَهُ لَا أُرِيدُهُ	إِذَا كُنْتُ أَبْغِي خُطَّةَ بَرِّيَائِي

(١) انظر: الفصل الأوّل، ص ٨١.

(٢) كان نبيلاً بصيراً بالتحو واللغة والشعر، وكان شاعراً ثقة صالحاً، له رحلة إلى المشرق، ت (٢٨٢هـ). ترجمته في: القاضي عياض،

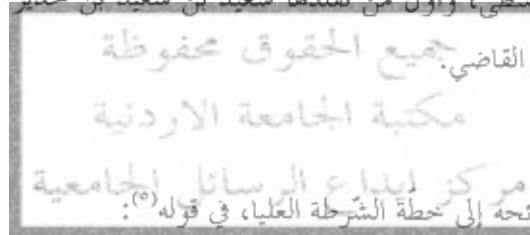
ترتيب المدارك، ج ٤، ص ٤٤٩.

(٣) المصدر السابق.

ومن المخطط الإدارية التي عرفت في الأندلس في العصر الأموي خطة الشرطة^(١)، وفي الإشادة بفضل صاحب الشرطة إبراهيم بن حسين بن مرتنيل^(٢) في حفظ الأمن وتحري العدل يقول موسى ابن سعيد^(٣):

لله دُرُّ أبي إسحاق من حَكَمٍ كم غاية نالها بالعدل لم تُنلِ
يطير من خوفه قلبُ المخيفِ إذا بدا ويسكن قلبُ الخائفِ الوجِلِ
لا يقطع الليل إلا بالقيام إذا ذو اللهور قصرة باللهور والجدلِ
للخالدين في الدنيا بدينهم فضّل على غابر الأيام لم يزلِ

وكانت خطة الشرطة تنقسم إلى قسمين : العليا والصغرى، فاخترع الخليفة عبد الرحمن الناصر خطة الشرطة الوسطى، وأول من تقلدها سعيد بن سعيد بن خديز^(٤). وقد نبط بصاحب



فَبَشَّرَ عَنْهَا بِبَذْلِ الْغِنَى وَأَعْدَرَ فِيهَا بِبَذْلِ الْغِنَاءِ
لِمُنْزَلِهِ مَنَزِلَ الْإِحْتِصَاصِ وَمُلْبِسَهُ شُرْطَةَ الْإِعْتِلَاءِ

(١) للمزيد عن خطة الشرطة في الأندلس، انظر: خلافاً، محمد عبد الوهاب، صاحب الشرطة في الأندلس، أوراق مدريد، ع ٣، مدريد، ١٩٨٠، ص ٧٢ - ٨٣.

(٢) كان فقيهاً عالماً بالتفسير، تولى الشرطة بقرطبة سنة (٢٤٩هـ). ترجمته في: القاضي عياض، ترتيب للمبارك، ج ٤، ص ٢٤٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ابن حيّان، المقتبس (شاليتا)، ص ٢٥٢.

(٥) ابن دراج، الذبوان، ص ٣٣٥.

وقال في بعض الوزراء وقد أفض ابنه من خطّة العرض إلى خطّة الشرطه^(١):

لم يأن أن يعلّق البيض الحسان وقد
ولا اثني لعناق الخود بعد وقد
غراء راحت عليه وهو بُغيثها
وأصبح العرّض في آثاره أميفاً
أضحى فؤاد العلاء صَبّاً به علقها
يبيت للشرطه العليا معتقها
فأصبح الدهر من أنفاسها عيقها
يعلّل النفس أن تستقي الرّمقها

وخطّة العرّض التي يشير إليها ابن درّاج في البيت الأخير وظيفة إدارية عسكرية، وكان القائم بها يستولى إعطاء الجنود رواتبهم وأسلحتهم ومؤنهم، كما كان المكلف بالإشراف على الحملات العسكرية والإعداد لها^(٢).

جميع الحقوق محفوظة
-وقد بلغت الخطط الأخرى كالجراح والحسية - وغيرهما من التنظيمات الإدارية - شأناً عظيماً. ولا يعني عدم وجود نصوص شعرية بين أيدينا أن الشعر لم يحفل بتلك التنظيمات، فلا يعدم أن يقدم شاعر تهنته لتقلد أحدهم منصبا من تلك المناصب، أو يرفع شكوى أو مظلمة لأصحابها، أو يسجل طرفه حدثت في أحد مجالسهم، إلا أن ما أطلعت عليه من مصادر لم يسعفني في بيان هذه الجوانب.

(١) ابن درّاج، الديوان، ص ٣٤٥.

(٢) المصدر السابق، حاشية المحقق.

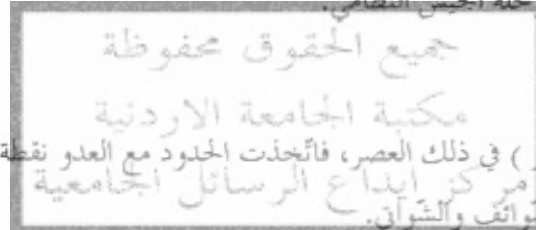
ثانياً - التّظيم العسكري :

تشكّلت نواة الجيش الإسلامي في بداية العصر الأمويّ بالأندلس من العرب الفاتحين، ومع توطنهم فيها وامتزاجهم بأهلها، وتوافد الناس عليهم من مختلف المناهضات والأعراق أصبح الجيش يتكوّن من مزيج من العرب والبربر والإسبان والصّقالبة والسّودان، ويقول ابن عبد ربّه في وصف حشد الجيوش في أوّل غزاة يغزوها الخليفة النّاصر في بلاد إسبانيا سنة (٣٠٨ هـ)، وهي غزاة مؤيش^(١):

ثم غزا الإمام دار الحرب	فكان خطيباً يا له من خطب
فحثت إليه أعلام الكور	ومن له في الناس ذكر وخطر
إلى ذوي الديوان والرايات	وكل منسوب إلى الشامات
وكل من أخلص للرحمن	بطاعة في السر والإعلان
وكل من طاع في الجهاد	أو ضمّه سرّج على الجياد
فكان حشداً ياله من حشد	من كل حرّ عندنا وعبد

وكان الحكم الرّضويّ أوّل من استحدث نظام المرتزقة في الجيش^(٢)، وقد ساد النّظام الإقطاعي في الأندلس حتّى زمن المنصور بن أبي عامر، فقام بإبطالها، وجعل لكلّ جندي راتباً، وبدأ الجيش الأندلسيّ يدخل مرحلة الجيش النّظامي.

وتعزّز نظام (الثغور) في ذلك العصر، فأخذت الحدود مع العدو نقطة تنطلق منها الحملات العسكريّة فيما يعرف بالطوائف والشّوآن.



(١) ابن عبد ربّه، العقد، ج ١، ص ١٠٦، الدّاية، ديوان ابن عبد ربّه، ص ١٩٤.

(٢) المقرئ، التّفح، ج ١، ص ٣٤٢.

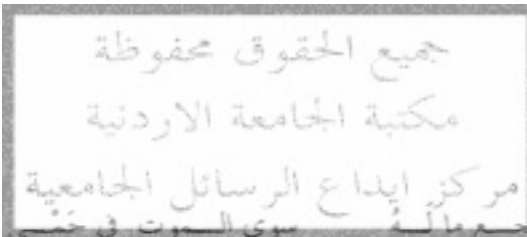
وكان الجيش الأندلسيّ في عصر بني أميّة من أضخم الجيوش وأقواها، وفيه يقول ابن درّاج^(٣):

وجيش أضواء الخافقين رماحه	وفاضت على رخب البلاد كتائبه
وقد ضمّها في نفنّف ^(٤) الجور معقل	عسير على عصم الوعول مراقبه

وقد جمع النظام العسكري في الأندلس بين الأساليب القتالية الحربية قبل الإسلام والنظم الحضارية الجديدة، واستفاد من موقعه الفريد جغرافياً، واكتسب خبرات متنوعة نتيجة حروبه الكثيرة والطويلة، مما عزز أبهة الخلافة وفخامة الملك ورهبة الجانب للحكام في قرطبة وسائر أنحاء الأندلس.

وقد اعتمد الجيش على أسلوب الكرّ والفرّ يساعده في ذلك عتاده الخفيف. وفي صفة تحرك الجيوش يقول ابن عبد ربه^(١):

وجيشٌ كظهرِ اليمِّ تَنفَحُهُ الصُّبَا يُعَبُّ عُيُوباً مِنْ قَنَا وَقَنَا بِلِ
فَتَنْزِلُ أَوْلَاهُ وَلَيْسَ بِنَازِلِ وَتَرْحَلُ أَحْرَاهُ وَلَيْسَ بِرَاحِلِ



ويقول ابن درّاج^(٢):

بكلّ فئى عاري الأشاح ماله سوى الحوت في حنى الوطيس مثيل
خفيف على ظهر الجواد إذا عدا ولكن على صدر الكميّ ثقيل

كما ساد نظام تخميس الجيش المعروف في المشرق، وإلى ذلك يشير ابن درّاج^(٣):

خميسٌ لجنح الليل من أنجم الدجى حلاه ومن شمس النهار عمائم

^(١) ابن عبد ربه، العقد، ج ١، ص ١٠٦، الذكاة، ديوان ابن عبد ربه، ص ١٣٤.

^(٢) ابن درّاج، الديوان، ص ٦.

^(٣) المصدر السابق، ص ١٩٨.

وأطلق على قادة الجيوش لقب الوزراء القادة، وفي الوزير القائد عيسى بن سعيد يقول ابن دراج^(١):

وزيرٌ قُلْدَ الْمَلِكِ مِنْهُ حَسَامُ الْبَأْسِ وَالنَّصِاحِ الْمُبَاحِ
حَمَائِلُهُ لَصَدْرِ الْمُلْكِ حَلِيٌّ وَخَدَاةُ عَتَادٍ لِلْكَفَاحِ

وقد خلع المستنصر على غالب بن عبد الرحمن لقب الوزير القائد الأعلى تقديراً لبطولاته وانتصاراته.^(٢)

وقد كان الأمراء والخلفاء الأمويون يقودون الجيوش بأنفسهم في كثير من الأحيان، فالأمير محمد قاد جيشه في وقعة سَلَيْط (٢٤٠ هـ)، وفي ذلك يقول عباس بن فرناس^(٣):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
سمي حَتَامُ الْأَنْبِيَاءِ مُحَمَّدٌ إِذَا وَصَفَ الْأَمْلَاقَ جَلَّ عَنْ الْوَصْفِ
فَمَنْ أَجَلُّهُ يَوْمَ الثَّلَاثِ كَثْرَةُ مُدَاخِ وَقَدْ نَقَضَ الْإِضْبَاحَ عَقْدُ عَرَى السَّجْفِ

كما أمضى الخليفة الناصر مدة حكمه يقارع الممالك الإسبانية في الشمال، ويقض مضاجع الثائرين عليه، وفيه يقول أبو عثمان عبيد الله بن يحيى^(٤):

(١) ابن دراج، الديوان، ص ٤٩.

(٢) انظر: ابن حبان، المقتبس (الخصي)، ص ٦٩.

(٣) ابن عبد ربه، الثعلب، ج ٤، ص ٤٥٥، ابن حبان، المقتبس (مكي)، ص ٢٩٨، ابن غلاري، البيان للغرب، ج ٢، ص ١١١ - ١١٢.

جرار، صلاح، ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ص ١٦٥.

(٤) ابن حبان، المقتبس (شاليتا)، ص ٤٢ - ٤٣.

يَصِلُ التَّرَحُّلَ بِالتَّرَحُّلِ دَائِباً فِي الْحَلِّ يُحْكِمُهُ وَفِي الْإِبْرَامِ
لِيَعِزُّ دِينَ اللَّهِ فِي كَنْفِ الْعُلَى وَيَذِبُ عَنْ حَرَمِ الْهُدَى وَيُحَامِي

وقد قامت الخروب العسكرية على امتداد ذلك العصر كله على مفهوم " الجهاد في سبيل الله "، ولما كان أكثر غزو المسلمين في رمضان فقد ربط الشعراء في خطابهم الشعري بين الزمن والمفهوم في قصائدهم ربطاً محكماً، من ذلك قول ابن درّاج^(١):

وَصِلِ الْجِهَادَ إِلَى الصَّيَامِ بَعِزْمَةٍ مِنْ نَائِرٍ يُرْضِي الْإِلَهَ إِذَا غَضِبَ
فَالْتَصِرُ مَضْمُونٌ عَلَى بَرِّ الْهُدَى وَعَوَاقِبُ الرَّاحَاتِ أُمَارُ التَّعَبِ

وقوله^(٢):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز أبحاث الرسائل الجامعية
مثنى جهادٍ وصومٍ ضمَّ شملهما عزم يسائره صبر يشايغهُ

وامتدّت غزوات المسلمين في البر والبحر، واستخدموا الأساطيل في حروبهم البحرية، وكان أسطول الخليفة الناصر " أفخم أسطول أجراه ملك، وقرّ عليه نظره، ووكل به عزمه، وتكاملت قطعه إلى مائة وعشرين قطعة، مع الحمالة والفتاشة وقوارب الخدمة، وعدّة من ركبته إلى سبعة آلاف رجل، خمسة آلاف من البحريين، وألف من الحشم "^(٣). وفي وصف أساطيل الناصر يقول ابن هُدَيْل^(٤):

(١) ابن درّاج، الديوان، ص ٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٣) ابن حيّان، المقتبس (شامليتا)، ص ٣١٢ - ٣١٣.

(٤) ابن الكفّائي، التشبيهات، ص ١٧٣، شوابكة، شعر بجي، ص ١٢٠.

وتلك الأساطيلُ المسخرةُ التي تمرُّ بتأييدٍ وتغزو فتغنمُ
إذا مخرتُ في البحرِ ماجتُ كأنما تخاصمُ أبناءَ الضلالِ فتخصمُ
وصفتُ كأنَّ البحرَ تحتَ صدورِها قد استأسرتُ أمواجهُ فهو أبكمُ
وقامتُ ساراتُ على جنباتها طوالُ كما امتدَّ السحابُ المركمُ

وفي أسطول ضخم للمنتصور بن أبي عامر يقول ابن دراج^(١):

تحمّلُ منه البحرُ بحرأً من القنا يروغُ بها أمواجهُ ويهولُ
بكلِّ مُعالةٍ الشَّراعِ كأنها - وقد حَمَلَتْ أَسَدَ الحقائقِ - غيلُ
إذا سابقتُ شأوَ الرِّياحِ تخيلتُ خيولاً مدى فرسانهنَّ خيولُ

وكان لتلك الأساطيل أبراج عالية، وفيها يقول الرَّمادي^(٢):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مرکز أبحاث الدراسات الإسلامية
كلّما أبراجُها في السَّوْغِ من حولها أشغالُ أحفانِ
تُرمي من النَّفْطِ بِبُرْكانِ

وفي البيت الثاني إشارة واضحة إلى أنَّ المسلمين في الأندلس قد استخدموا النَّفْطَ في بلادهم
سلاحاً حريئاً يحرقون به سفن الأعداء.

(١) ابن دراج، الديوان، ص ٥.

(٢) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ١٧٣، حرّار: شعر الرَّمادي، ص ١٣٢.

وقد اتَّخذوا الأعلامَ لتمييز سفنهم، وفيها يقول ابن درَّاج^(١):

ورَقَعَ أعلاماً كأنَّ حَفَوقَهَا على علمِ الإِشراكِ إِرْجافُ زُلْزَالِ

إلا أنَّه لم يشر إلى لون تلك الأعلام أو صورتها، كما استخدموا جميع أنواع الأسلحة المعروفة في عصرهم، وبدا شغف الشعراء بوصفها واضحاً، وهو شغف متوارث رافق الشَّعر العربيَّ منذ العصر الجاهليِّ، وفي المصادر الكثير من المقطوعات الشعريَّة الَّتي تصف تلك الأسلحة مجتمعة أو متفرقة، ومن الأبيات الشعريَّة الَّتي تتحدَّث عن تلك الأسلحة مجتمعة قول ابن درَّاج^(٢):

وصوارمُ حَلَّتِ الظَّلَامَ وما لها بسوى الجماحِمِ والتَّحَوُّرِ صِقَالُ
وقنأ إذا اقْتَضَتِ العِدَاةُ نفوسَهَا لم يعتلِّلْ بأدائِهِنَّ مِطَالُ
والبيضُ تلمعُ والأسنةُ [تأطى] والعِرْلُ في ضَرْبِكَ الوَغَى تَحْتَالُ

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الجامعة الأردنية

وكانت الخيول من أهمِّ وسائل القتال، فاعتنى الأندلسيون بتربيتها، ولا سيَّما السَّلالة العربيَّة الأصيلَّة، ومما قيل في الخيل لمحمد بن زريع^(٣):

مقوَّرةٌ مِثْلُ السَّراحينِ شُرْبُ تَكَرُّ على سِمِ الحتوفِ وتعطفُ
تَبْدُلُ ألواناً إذا الرُّكُضُ هاجَهَا فتَنكُرُ منها بعضَ ما كنتَ تعرفُ
تَرى الأدهمَ الغريبَ منها كأنَّما تجلُّهُ بالنَّضْحِ قَطَنٌ مُنْدَفُ
وحيناً تَرى الشَّهَبَ اللوامعَ قدْ غَدَّتْ منَ التَّقَعِ خضراً رَشْحُهَا يَتَوَكَّفُ

(١) ابن درَّاج، الديوان، ص ٢٧٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٤٠.

(٣) ابن الكثير، التشبيهات، ١٨٣. وترجم الحميدي في الجلود (ص ٥٥) محمد بن زريع بن بلال، وقال عنه: من رواة مالك، ت (٢٨٥ هـ)، ولعله الشاعر نفسه.

ولم يكونوا يَخَصِّصُونَ خَيْلاً بِعَيْنِهَا لِلْقِتَالِ، بَلْ كَانَتْ كُلُّ أَنْوَاعِ الْخَيُْولِ لَدَيْهِمْ تَسْتَعْمَدُ لِلْقِتَالِ
وَالرَّكُوبِ وَالزَّيْنَةِ وَالسَّبَاقِ كَمَا سَبَقَتْ الْإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ^(١)، وَإِلَى ذَلِكَ يَشِيرُ الرَّمَادِيُّ قَائِلاً^(٢):

ذُو مَنْظَرٍ حَسَنِ تَضُمَّنَ مَخْزِئاً حَسَناً فَكَانَ لَزِينَةً وَقِتَالِ

وَمِنَ الْأَسْلِحَةِ الْمُهَمَّةِ فِي الْقِتَالِ السَّيْفُ وَالدَّرُوعُ وَالْبَيْضُ وَالرَّمَاحُ، وَفِي السَّيْفِ يَقُولُ مِرْوَانُ
الطَّلِيقُ^(٣):

كَأَنَّ الظُّبَا مِمَّا لَزِمْنَ أَكْفَهُمْ مَخَالِبُهُمْ أَوْ هُنَّ مِنْهُمْ حَوَارِحُ
وَتَعْتَمِدُ الْأَرْوَاحُ حَتَّى كَانَتْهَا حَوَارِحُ عَمَّا لَا تَضُمُّ الْجَوَانِحُ

ويقول علي بن أبي الحسين^(٤):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

لِلَّهِ سَيْفُكَ مَا أَهْدَى مَضْجَكَ لِيُجَادِعَ الْكِبَرُ الْفُلَّ بِالْخَرَابِ وَالْقَتْلُ مِمْتَرِجُ
رَقٍّ الشَّدَا مِنْهُ حَتَّى قَالَ مُبْصِرُهُ بَأْتَهُ بِالْهُوَادِي مَغْرَمٌ لَهْجُ

وَفِي الدَّرُوعِ وَالْبَيْضِ يَقُولُ ابْنُ هُذَيْلٍ^(٥):

(١) انظر : الفصل الأول، ص ٤٦.

(٢) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ١٨٥، حرر: شعر الرمادي، ص ١٠٥.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩٠. والشاعر هو مروان بن عبد الرحمن بن مروان، يعرف بالطَّلِيقِ، من بني أمية، كان أديباً شاعراً مكثرًا، وأكثر
شعره في السَّحْنِ، مات قريباً من الأربعمئة. ترجمته في: الحميدي، الجذوة، ص ٣٤٢، الضبي، البغية، ج ٢، ص ٦١٣، وغيرهما.

(٤) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ١٩٠.

(٥) المصدر السابق، ص ١٩٩، شوايكة، شعر يمين، ص ١٠٧.

كَأَنَّ الدَّرْعَ الْبَيْضَ وَالْبَيْضَ فَوْقَهَا غَمَائِمٌ غُرٌّ أَفْرَجَتْ عَنْ بَوَارِقِ

ويقول^(١):

تَرَى لَا بَسِي تَسْجِ الْحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ وَرَاءَ الدَّرْعِ السَّوْدِ غُبُرُ الضَّرَاغِمِ
يَهْوُلُكَ أَنْ تَدْنُو إِلَيْهَا كَأَنَّمَا تَرَى فُرْصاً مِنْهَا عُيُونُ الْأَرَاغِمِ

وفي بيضة حديد يقول لُبَّ بن عبيد الله^(٢):

وَرَاهِقَةٌ عَنْهَا السَّيُوفُ كَأَنَّمَا عِيُونُ يَرُوعُ اللَّيْثُ فِيهَا حَسِيرُهَا
إِذَا غَشِيَتْهَا الْبَيْضُ نَعَشَى بِنُورِهَا كَأَنَّ سَنَاهَا مِنْ أَذَاهَا بِحِيرُهَا

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وفي الرِّمَاح يقول المهند^(٣):

كَأَنَّمَا السَّمُرُ فِي أَسْنَتِهَا نَارُ مَصَابِيحٍ يَسْتَضَاءُ بِهَا
تَلِينُ هَزْأً وَاللِّينُ شَذُّهَا كَالْحَيَّةِ الصَّلْبُ فِي تَوَاتِبِهَا

ويقول علي بن الحسين^(٤):

(١) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ١٩٨.

(٢) ابن الأثير، الحلة، ج ١، ص ٢٣٢.

(٣) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ١٩٩.

(٤) المصدر السابق، ص ١٩٢.

برُوجٍ مِنَ الْخَطِّ فِيهَا كَوَاكِبُ لَهَا مِنْ قُلُوبِ الْمَحْرَمِينَ مَنَازِلُ
تَرَدُّتْ نَحُولَ الْعَاشِقِينَ كَأَنَّمَا بِهَا مِنْ تَبَارِيحِ الْغَرَامِ بَلَابِلُ

ويركّز الخطاب الشعري في الأبيات السابقة على بيان قوّة تلك الأسلحة ومثانتها وإتقان صنعها فهي مرتبطة بالمقاتل ارتباطاً ظاهراً أو ضمناً، وكأنّه لا قيمة للسلاح إلّا على أرض المعركة .

كما استخدموا القسيّ والتّبال في حروبهم، ولم يمنعهم عراكلهم الطّويل مع الإِسبان من تفضيل القسيّ الإِسبانية على القسيّ العربيّة^(١)، وفي القسيّ يقول المهند^(٢):

فَكَأَنَّ الْقَسِيَّ يُرْشَقُ مِنْهَا كُلُّ نَحْمٍ مِنْ عَظْفٍ كُلِّ هَلَالٍ

ويقول ابن هُذَيْل في التّبال^(٣):
جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
تعاورثهم نبالٌ على موكبٍ لهذا
الحال تحاليل أو الحماة حبيب الحيال الزجل

فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ نَعْيٌ تَمْدُ بِهِ مِنْ رَكَةِ الْوَتْرِ يَحْكِي رُئَةَ النَّكْلِ

واستخدم الجيش الأندلسي في العصر الأمويّ الأسلحة الثّقيلة ومنها التّروس والمنجنقات، وفي وصف ترس يقول لُبُّ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ^(٤):

(١) للقرني، التفتح، ج ١، ص ٢٢٣.

(٢) ابن الكفّاني، التشبيهات، ص ١٩٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩٤، شوابكة، شعر يحيى، ص ١١٦.

(٤) ابن الأثير، الحلة، ج ١، ص ٢٣٢.

وممثل قرص الغزالة في يدي هجمت به والخيل تدمي غورها
تقلب منه الكف مغنطس القنا فلا آلة إلا إليه مصيرها

ويشير جعفر المصحفي إلى استخدامهم المنحنيات في قوله^(١):

وكان قذف المنجنيق بها صَعَقُ غدا يَهْمِي وَيَطْرِدُ

ويقول ابن دراج^(٢):

ولو لم تزاحمه الجانيق لانبرت عليه نجوم القذف عنك تَزَاحِمُهُ

جميع الحقوق محفوظة
ومع كثرة انتشار الحصون والقلاع في الأندلس والممالك الإسلامية الشمالية، فلا بد أنهم
كانوا يملكون عدداً كبيراً منها.
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ثالثاً - نظام التشريفات :

ساهم الاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي اللذين سادا في الأندلس في ذلك العصر في
تفخيم ملك الأمويين وإضفاء الأبهة والجلالة على ملكهم إلى أبعد غاية، وكان نظام التشريفات من
أبرز المعالم المدنية الدالة على ذلك.

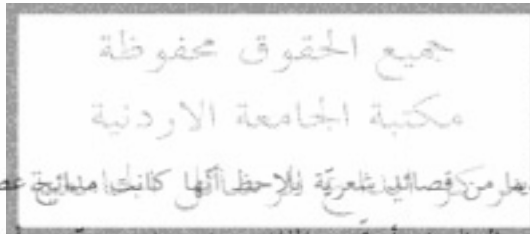
(١) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ١٩٦.

(٢) ابن دراج، الديوان، ص ١٩٩.

وقد كانت تلك المظاهر الاحتفالية تقام على أدق ترتيب عند استقبال الوفود وفي الأعياد وعند استقبال الجيوش أو توديعها، كما كانت تقام عند إبلال الحاكم من مرضه، وفي بعض المناسبات الأخرى كالتحسيس وعتق العبيد وخروج الأمير أو الخليفة في موكب لتفقد أحوال الرعية أو للصيد في أجواء أقل احتفالية من تلك المناسبات الرسمية.

وكان الأمراء والخلفاء يقعدون لرسل الوفود قعوداً فخماً، وجرت عادتهم على تقديم وفود المسلمين على وفود العجم إذا اجتمعوا في بلاط الخليفة أو الأمير^(١)، ولعل من أهم أسباب ذلك ما تمعّنوا به من قوة سياسية وعسكرية بين جيوشهم، ولا سيما في عهدي الناصر والمستنصر، مما عزز الإحساس بانتمائهم العرقي والديني، وغذى إحساسهم بالقوة والمنعة والأنفة.

وكان الحكام يرسلون في طلب الشعراء في تلك المناسبات، وتشير المصادر إلى أنهم نظموا قصائد طويلة يصعب تسجيلها، فسكت المؤرخون عنها أو انتقوا بعضاً من أبياتها ودونوها في مؤلفاتهم.



وعند النظر فيما بين أيديهم من قصائد الشعراء للإحفظ أهل كتابنا ملأناهم في الخليفة تشيد بصفاته الحميدة وانتصاراته العظيمة وأحقيته بالملك دون سواه، وتعرض بأعدائه من العرب الخارجين عليه والعجم على حد سواء.

ومن أمثلة ما نظم الشعراء في تلك المناسبات ما قاله موسى بن محمد بن سعيد لما قعد الناصر لبعض الوفود^(٢):

إذا ما فرجت خُللُ السّـُـورِ ولاح وقد تمكّن في السّـُـريرِ
تَـُـرى الأملاك مائِلةً لـِـديه بأعناقٍ إلى الغبراءِ صـُـورِ

^(١) روى ابن حبان في المقتبس (الحجّي) إن المستنصر قدّم للمسلمين على غيرهم في الإذن، ثم أذن بعدهم لرسول ملوك العجم. انظر: ابن حبان، المقتبس (الحجّي)، ص ١٣٨ - ١٣٩.

^(٢) ابن الأثير، الحلة، ج ١، ص ٢٣٤. وذكر ابن الأثير في ترجمته (ص ٢٣٢) أنه كان من أهل الرئاسة والجلالة، ومن أهل العلم والأدب والشعر، وتصرّف في عطاء عديده، ت (٣٢٠ هـ)، وقيل (٣١٩ هـ).

كَأَنَّهُمْ لِهُؤَيَّةٍ قَدْ أَوْفَوْا مِنْ الْمَوْتِ الزَّعَافِ عَلَى شَفِيرٍ

ويشير ابن حيان في المقتبس عند وفود جعفر وأخيه علي المستنصر بعد مقتل زيري بن مناد الصنهاجي سنة (٣٦٠ هـ) إلى أن " الشعر في وصف هذا اليوم كثير يطول إحكامه"^(١)، وتقدم كبار الشعراء بين يدي المستنصر يلقون قصائد عصماء، ومنهم محمد بن شحيص، ومما قاله في ذلك اليوم^(٢):

بأيمن إقبالٍ وأسعدٍ طائرٍ تباشيرٍ محتومٍ من الأمرِ واقعٍ
توافقت بملكٍ من مُعدٍّ مقوِّضٍ لملكٍ إلى مهديٍّ مروانٍ راجعٍ

ويشير إلى الخفاوة التي استقبلا بها في قوله:

هما ما هما من وافيٍّ سابقٍ فوق الحصى وظلٍّ ضافٍ الظلِّ ضخمٍ الدسائِعِ
تلقاها من برٍّ واصطباها الجامعة علوانٍ حذيمٍ الصنعِ جزلِ الصنائِعِ
مركز ايداع الرسائل الجامعية

والقصيدة طويلة بمدح فيها المستنصر، ويعلي من شأن بني أمية، ويعرض بالشيعية.

ومن مליح القول ما نظمه الرمادي في بعض غزله مشيراً إلى ذلك اليوم العظيم^(٣):

ولقد عجبتُ لفعله المستنصر إذ أكثفَ الجيشَ اللُّهَامَ لجعفرٍ
ولوانٍ من أهواءٍ يُبرزُ وجهَهُ قامتْ لواحظُهُ مقامَ العسكرِ

(١) ابن حيان، المقتبس، (الحجي)، ص ٥٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٦، جرار، ماهر، شعر الرمادي، ص ٧٦.

كما كانت الوفود العربيّة تلقى الشّعر بين يدي الخليفة فحين وفد محمّد بن أضحى صاحب حصن الحامة على النّاصر - مثلاً - قام ولده أحمد لينشد قصيدة منها^(١):

اللّهُ أعطاك الّتي لا فوقها وقد أراد المُلحدون عوقها
عنك ويأبى اللّهُ إلّا موقها إليك حتّى قلّدوك طوقها

وكان الخليفة عند استقبال الوفود الأعجميّة يستعين بمترجمين يترجمون عنه وإليه^(٢)، وكان من عادة رسل الوفود من العجم أن يقرّؤوا يد الخليفة عند الدّخول عليه^(٣) ولم تشر المصادر فيما إذا كانت وفود العرب تفعل ذلك أو لا.

وكانت نزعة الأنفة والقوّة تزداد في الشّعر إذا ألقى في حضور ملوك العجم ورسلكم، ففي وفود ملك الرّوم على النّاصر قام القاضي منذر بن سعيد البلوطي والمجلس محتفل بأهل الخدمة، وهم قيام على أقدامهم، فارتجل خطبة عجيبة ذكر فيها حقّ النّاصر بالخلافة وفرض الولاة والطّاعة، ثمّ وصلها بأبيات مطلعها^(٤):

مركز ايداع الرسائل الجامعية
مكتبة الجامعة الأردنية

مقال كحدّ السّيف وسط المحافل فرقت به ما بين حقّ وباطل

ووصف فيها الوفود بقوله:

ترى النّاس أفواجاً يؤمّون داره وكلّهم ما بين راضٍ وآمل
وفود ملوك الرّوم وسط فنائه مخافة بأسٍ أو رجاء لنائل

(١) ابن حيّان، اللقيس (شاميتا)، ص ١٧٤.

(٢) المصدر السابق (الحقّي)، ص ٢٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الزّبيدي، طبقات التّحويين واللّغويين، ص ٣٢٠، ابن خالان، الطّمع، ص ٢٤٤.

وفي وفود أردون بن أذفونش الأحذب على المستنصر يقول عبد الملك بن سعيد^(١):

أَلَقْتُ بِأَيْدِيهَا الْأَعَاجِمُ نَحْوَهُ مَتَوَقَّعِينَ لَصَوْلَةِ الرَّتَبَالِ
هَذَا أَمِيرُهُمْ أَتَاهُ أَحْزَانًا مِنْهُ أَوَاصِرَ ذَمِّهِ وَحِبَالِ

وفي وفود القومس على المنصور بن أبي عامر أشار ابن دراج إلى أن هؤلاء خروا سجداً لما دخلوا عليه، وذلك في قوله^(٢):

وَشِيعَةُ الْكُفْرِ فِي مَثْنَى حَبَائِلِهِمْ تُصَدِّقُ الْعَيْشَ أَحْيَانًا وَتَنْهَهُمْ
حَتَّى تَرَاءَكَ مِنْ أَقْصَى السَّمَاءِ وَقَدْ شَبَّهَ الْحِمَامُ وَسِيفَ الْعَقْرِ مُحْتَكِمُ
مِمَّا فِي هَوَادِيهِمْ وَأَرْؤُسِهِمْ مَا عُودَتْ مِنْهُ الْمَصْقُولَةُ الْخُذُمُ^(٣)
لَمَّا انْتَضَيْتَ سَنَاهَا فِي مَفَارِقِهِمْ الْحَقُوقُوتِ مَحْضُوفَةً لَكَ الْأَعْنَاقُ وَالْقَعَمُ

مكتبة الجامعة الأردنية

ولم يقتصر الشعر على ذلك، إنما احتفى بالترتيبات المعدة لاستقبال تلك الوفود احتفاءً عظيماً، ومع أن الإشارات التي وصلت إلينا عن تلك المظاهر الاحتفالية كانت نادرة إلا أنها تؤكد ولع الشعراء بتسجيل ذلك الجانب المبهج من حياتهم على المستويين الرسمي والشعبي، ولا سيما أن بياض الرعية من أهل كور الأندلس كانوا يشاركون في تلك الاحتفالات المهمة.

وكانت مراسم استقبال الوفود^(٤) تبدأ بوقوف الجيش على قنطرة قرطبة بترتيب معين، ويكون في استقبال تلك الوفود مخلف المدينة، ثم يجري ترتيب الوافدين على أسنانهم ومنازلهم، وبعد تجاوز

(١) ابن عساري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٣٥. وعبد الملك هذا هو المرادي، وقد سبق التعريف به.

(٢) ابن دراج، الديوان، ص ٤٠٤ - ٤٠٥.

(٣) الخذم: القاطعة. [ابن منظور، اللسان، خذم].

(٤) نقل ابن حيان في المقابس صورة دقيقة عن ترتيبات استقبال الوفود في ذلك العصر عند حديثه عن قدوم الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن - قافلاً من العدو ومعه بنو إدريس الحسبيون (٣٦٤ هـ) - على الخليفة المستنصر. انظر: ابن حيان، المقابس، (البحر)، ص ١٩٥ - ١٩٨.

منازل قرطبة تنزل الوفود في مظلات خاصة مدة يومين، وفي اليوم الثالث يستقبلهم صاحب الخيل والحشم وصاحب الشرطة، وعلى جانبيهم طبقات الأصفاد وضيوف الماليك.

وتستعرض الوفود في طريقها إلى القصر الرجال وبأيديهم الرماح والترسة والفرسان المدرعين بمختلف الأسلحة، يليهم العرفاء والعبيد وعلى جميعهم الدروع والبيضات، وفي وصفهم يقول ابن دراج عند وفود شاذي بن غرسية على المنصور بن أبي عامر سنة (٣٨٢ هـ) ^(١):

وأضحت الأرض في رحب الملا لجحا	سالت عليهم بيض الهند والأسل
والأسد بارقة الألحاظ في أجح	من القنا بحبك البيض مشعل
رقت غلائلهم مراداً كأنهم	تسريلوا لبس رقراق من الغلل
والصافنات تهادى في أعنتها	كالغيد يرفلن بين الحللي والحلل

وفي وفود القومس على المنصور يقول ^(٢) مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

والأرض من رهبة الأبطال مائدة	والجو من رهج الفرسان مزدحم
والسمري في هبات التقع ثاقبة	والبيض في قرب الأغمار تضطرم

وبعد ذلك يستعرضون صفوف الفرسان أصحاب التحافيف ^(٣)، وفي وصفهم يقول أحمد بن عبد الملك ^(٤):

كأن ذوي التحفاف والخيل سربلوا سربيل من سام وتبر تجسما

^(١) ابن دراج، الديوان، ص ٤١.

^(٢) المصدر السابق، ص ٤٠٤.

^(٣) التحفاف: ما يوضع على الخيل من حديد أو غيره. [ابن منظور، اللسان، ج ١].

^(٤) ابن الكائني، التضيقات، ص ٢٠٢.

ويقول ابن هُذَيْل^(١):

وَكأنَّ التَّحْفَافَ أَوْجُهُ أَهْلِ الْكَفْرِ وَالْبَاسُ فِي لُظَى نِيرَانِهِ

وبعد ذلك يستقلون إلى استعراض الفرسان أصحاب القرون والطبول فأصحاب البنود
والرَّايَات الملوَّنة بألوان زاهية، وفيها يقول أحمد بن عبد الملك^(٢):

وأعلامٌ قصرٌ بالفتوحِ عوافقُ ترى حولها طيرَ المنيّةِ حُومًا
كأنَّ أبيضاضَ البيضِ من نورٍ وجهه وذا رأيهِ فينا إذا الخطبُ أظلمًا
كأنَّ احمرارَ الحمرِ هزّةٌ سيفه إذا هزّةٌ في المشرقية صممًا
كأنَّ اصفرارَ الصفرِ من لونٍ من غداً إلى عَفْوهِ من سُخطِهِ منظرًا
كأنَّ احضرارَ الحضرِ مرقعٌ جوده إذا ما اشتكى بطنُ الثرى غلّةَ الظما

مكتبة الجامعة الأردنية

مركز أبحاث الرسائل الجامعية

ويلاحظ أنهم لم يكونوا يستخدمون الرَّايَات السَّودَ، ولعلَّ مرد ذلك إلى أسباب سياسية
لأنَّها كانت راية العباسيين في المشرق.

وكانت تلك الرَّايَات تحمل صور الحيوانات من أسود وثور وعقبان وغيرها، وذكر ابن حيَّان
أن عددها مائة صورة.^(٣)

(١) ابن الكثير، التشبيهات، ص ٢٠٠، شوابكة، شعر نجي، ١٢٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٢.

(٣) ابن حيَّان، اللقيس، (الحجوي)، ص ٤٩.

ولم تكن جميع تلك الصور مستمدة من بيئتهم، فالأندلس - كما يقول المقرئ - لم يكن فيها أسود^(١)، ومع ذلك فقد كانت إحدى أبرز الصور في الرايات، وفي وصف أحدها يقول المرادي^(٢):

وكأئما الأساؤ في أشلائها غرئى بغير دم العدا لا تشيع

كما اشتملت تلك الرايات على صورة الثعبان، وفيها يقول أحمد بن عبد الملك^(٣):

كأن ثعابين القنا كلما التوت تُعالج وجداً في الجوانح مؤلماً

ويصف عبادة الحيات بقوله^(٤):
جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
وكأئما الحيات فمفكرزة ليلما ع الثومائل الى اللطععة بالتهديد

وفي صورة العقاب يقول^(٥):

وكأئما العقبان في نفح الصبا تهوي إلى صيد الكماة الصيد

(١) المقرئ، التفتح، ج ١، ص ١٩٨.

(٢) ابن الكتاني، التشبيهات، ص ٢٠١.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٠١.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٠١.

وتحمل هذه الصور تفسيراً رمزياً لنفسية المقاتل الأندلسي، فالأسد رمز للقوة القاهرة، وقد يكون العقاب رمزاً للعنفوان والكبرياء، ولعل صورة الثعبان ترمز إلى الضربة القاضية للخصم، ويرى مورينو أن هذه الأشكال الحيوانية عُرفت في الحضارات الشرقية القديمة، مثل الكلدانية والفينيقية وغيرها، ثم ظهرت بعد ذلك في الفن البيزنطي، ولعل الأندلسيين أخذوها عنهم مع ما أخذوا من صنوف الفن البيزنطي.^(١)

وبعد الانتهاء من استعراض صف أصحاب البنود، تنتقل الوفود إلى استعراض الخيول والبغال المشاكلة لها المكسوة بسروج الخلافة، ويبلغ عددها مائة فرس^(٢)، وفي وصف انتظامها يقول ابن دراج^(٣):

والخيول منظومة بالخيول لا كتب منها لغاية ذي سعي ولا أمم

جميع الحقوق محفوظة

وعند دخول الموكب باب القصر يسير لنا صف من الأحرار والماليك بمدارهم الملونة وقسيهم الأعجمية، ويأتي بعدهم أهل الصناعات السلطانية، ثم ينتهي بهم الطاف إلى صاحب المدينة الذي يدخلهم إلى هو القصر، ويجلسون فيه إلى أن يؤذن لهم بالدخول على الخليفة.

وفي مجال تبادل السفارات كان الأمراء والخلفاء يرسلون سفراءهم إلى بلاط حلفائهم من العرب والعجم، وقد أرسل الأمير عبد الرحمن الأوسط الشاعر يحيى الغزال إلى أكثر من بلاط، وكانت سفارته إلى ملك القسطنطينية من أشهر تلك السفارات، إلا أن ما وصل إلينا من شعره يخلو من إشارات تسعف في معرفة أنظمة التشريفات في تلك الدول، وفيما إذا كانت الأندلس قد أثرت أو تأثرت بتلك الأنظمة.

(١) انظر: مورينو، الفن الإسلامي، ص ٢٢١.

(٢) ابن حيان، للقتبس (الحجتي)، ص ٤٩.

(٣) ابن دراج، الديوان، ص ٤٠٤.

وسجل ابن درّاج في شعره حادثة طريفة عن تدخل المنذر التّجّبي لإنجاح مصاهرة بين شانجة بن غرسية ملك نبرة وأمير قشتالة، مما يدلّ على قوّة العلاقات السّياسيّة والدّبلوماسية بين الأندلسيّين وحيثهم في حالات السّلم، واستغلال تلك المناسبات الاجتماعيّة لتوثيق العلاقات وتوحيد المصالح السّياسيّة والاقتصاديّة، وتسامح الدّين الإسلاميّ مع الأديان الأخرى.

وقد أقام المنذر عرساً مشهوداً لابنة أمير قشتالة، وأوصلها إلى ابن ملك نبرة، وفي ذلك يقول ابن درّاج^(١):

غدتْ وهَيَ أعراسٌ لهم وعرائسُ وبالأَمْسِ موتٌ فيهم ومآتمُ
بعقدِ بناءٍ أنتَ شدّتْ بناءهُ وليس له في الأرضِ غيرُكَ هادِمْ

وكانت الاحتفالات المهيبة تقام كذلك عند استقبال الجيوش المنتصرة وتوديعها، ويتحلّى الخليفة لجيوشه في سطح القصر إن لم يكن على رأس تلك الغزوة^(٢). ويتسابق الشعراء إلى تسجيل تلك المظاهر الاحتفاليّة في شعرهم، ومن أمثلة ذلك ما قاله ابن زيد زبيل حين يمجّد الناصر في كمال عدّته وفخامة موكبه في غزوة بلّنه سنة (٣٠٦ هـ)^(٣):

يا عجباً من مثله يُعجبُ بدرّ بدا يحمله كوكبُ
ودّه المشرقُ شوقاً إلى رؤيته لو أنّه مغربُ

وقال ابن درّاج في عودة جيش للمنصور العامريّ منتصراً مظفراً^(٤):

(١) ابن درّاج، الذّهون، ص ١٦٣.

(٢) انظر: ابن حيّان، المقتبس (الحجّي)، ص ١١٩ - ١٢٠.

(٣) المصدر السابق (شالمينا)، ص ١٤٨.

(٤) ابن درّاج، الذّهون، ص ٨.

وقد أومت الأعلام نحو حلوله وحنّ من الغرّ الجياد سهيل
فجلى سناه العذوتين وبشّرت خوافت رايات له وطبول

وفي الأعياد كان الخلفاء والأمراء في قرطبة وسائر مدن الأندلس يشاركون الناس صلاة العيد،
وإلى ذلك يشير ابن درّاج في قوله^(١):

فأريت هذا العيد عزّة مالك متذللاً لإلهه متديّنا
ورآك في هذي الصّلاة مكبراً ومهللاً وبحمد ربك مُعلّنا

وبعد الخروج من المسجد كانوا يستعرضون مواكب الجند المصطفة بينه وبين القصر، وفي
وصف ذلك المشهد يقول ابن درّاج في سبلبيح المستعدين في عيدنا^(٢) سنة (٤٠٣ هـ) (٣):

مكتبة الجامعة الاردنية

لمواكب سهلت إليك مكنولها وكسائب الجامعة عليك بنودها
شغفاً بدعوتك التي قد طالما عمّرت نهائماً بها ونجودها
وأهل مخرمها وتبى ركبها وتلاحقت حجائبها ووفودها

وكانوا عند دخولهم القصر يجلسون على السّير في أفخم ترتيب استعداداً لتلقي التّهاني، وقد
بلغت تلك التّراتيب الغاية القصوى في عهد الخليفة الناصر ثم ابنه المستنصر^(٤)، فقد كان الخليفة
يجلس في صدر المجلس، وعلى الجوانب أخوته، ثم وزراؤه، يليهم الوزير صاحب الحشم وصاحب
المدينة بالزّهراء وصاحب المدينة بقرطبة وصاحب الخيل، ثم أصحاب الشرطة العليا والوسطى
وأصحاب المخزول والخزّال والعراض وسائر طبقات أهل الخدمة، يليهم قاضي الجماعة والحكام
وأصحاب الشرطة الصّغرى والرّدّ وأسباط الخلافة وجلة قريش وخاصّتهم ووجوه الموالى أهل

(١) ابن درّاج، الذّيان، ص ٢٦٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٠.

(٣) أرّخ ابن حيّان في المقنن (الحجّي) لتلك التّراتيب بالتفصيل في عهد المستنصر، ص ٢٢٠-٢٢١.

البيوتات الأقرب فالأقرب والأسنّ فالأسنّ ثمّ الموالي العبيدّون، ثمّ قضاة الكور والفقهاء المشاورون والعدول وبياض رجال قرطبة.^(١)

وكانت الخطباء والشعراء في تلك المحافل " تناغي فيما ترتجل من خطبها وتنشد من أشعارها فتكثر وتجد " ^(٢)، وفي وصف اجتماع الناس بأفنية الزهراء لتقدم التهاني يقول محمد بن هشام^(٣):

وكان الوري بأفنية الزهراء من كلّ ملة وقبيل
موقف الحشر قد تبدّى أو الجنة قد أزلفت لأهل الدخول

وقد ينوب ولي العهد أو الخاحب عن الخليفة أو الأمر إذا كان غائباً في غزوة أو كان مريضاً ولا يستطيع القعود للمهتين، ومن ذلك من المنظر الذي تابى عن والده المنذر حين كان غازياً، وفي ذلك يقول ابن درّاج^(٤):

مكتبة الجامعة الأردنية
مركز أيداع الرسائل الجامعية

وذكر منه الصوم والفتور هديّة وجمع المصلّى وابتهاّل المصلينا
ومقعده في تاجه وسريره ليوم السّلام وازدحام المحرّنا

(١) انظر: الهاشمي، التهامي الراجحي، نظم وإدارة بني أمية بالأندلس من خلال المقتبس لابن حيّان، المناهل، العدد (٢٩)، لسنة (١١)، جمادى الثانية ١٤٠٤هـ، مارس/ آذار ١٩٨٤م، ص ٣٥٦-٤١٧.

(٢) ابن حيّان، للمقتبس (الحجّي)، ص ٣١.

(٣) الكتاني، التشبيهات، ص ٢٧٧.

(٤) ابن درّاج، الذبّوان، ص ٢٤١.

وكان الخليفة أو الأمير الغازي يستقبل التهنة بالعيد من جنده، وكان الشعراء من الجنود يرتجلون القصائد في مدحه، ومن ذلك قول أبي عثمان عبيد الله بن يحيى في مديح الناصر وقد غزا الروم في رمضان، وأدركه العيد في بلاد العدو^(١):

يَهْتَى الْخِلَافَةُ سَعْيُ حَيْرِ إِمَامٍ اللَّهُ مَسْعَاهُ وَلِلْإِسْلَامِ
مَلَكٌ تَمَكَّنَ فِي الْمَكَارِمِ وَالْعُلَى كَتَمَكَّنَ الْأَرْوَاحَ فِي الْأَجْسَامِ
عَزَمَ الرَّحِيلَ مَصَمَّامًا فِي عَيْدِهِ لَشَفَاءِ غُلَّةِ سَيْفِهِ الصَّمَامِ

وكان الخلفاء والأمراء يحرضون على حضور أبنائهم إلى حوارهم عند تلقى التهاني، وفي جلوس المنذر التنجي إلى حوار والده لتلقى التهاني بأحد الأعياد يقول ابن دراج^(٢):

ولقد تجلّى العيدُ عنك بجمهرٍ الحقوقيَّةِ مُنْهَظَةٍ وَغِيَاهِبِ
يَتَلَوُّكَ حَاجِبُكَ الَّذِي أَنْصَحْتَهُ الْجَاهُكَ الْقَمَلَانِي إِذْ اقْرَبْتُ إِلَيْكَ بِحَاجِبِ
مَرْكَزِ أَيْدَاعِ الرِّسَائِلِ الْجَامِعِيَّةِ

وكانت الخطباء والشعراء يحتفون بأول جلوس لولي العهد في الأعياد، وقد قال عبيد الله بن يحيى في أول جلوس للمستنصر في عهد أبيه الناصر في أضحى سنة (٣٠٨ هـ)^(٣):

كَهْلُ الْقَرِيحَةِ طِفْلُ السَّنِّ مُقْتَبِلٌ كَذَاكَ أَنْجَبَهُ كَهْلُ التَّهْيِ يَفْعُ

(١) ابن حيان، للقتبس (شاليتا)، ص ٤٢.

(٢) ابن دراج، الذويان، ص ١٧٢.

(٣) ابن حيان، للقتبس (الحجّي)، ص ١٨٤.

كما احتفوا بجلوس الأمير هشام في عهد أبيه لأول مرة في أضحي سنة (٣٦٣ هـ)، إذ "قعد فيه للناس في المجلس الغربي المعروف بمجلس الأحرار في السطح المعلي على الرياض، فقابل بمقعده مقعد أبيه الخليفة"^(١)، وفي وصف ذلك المشهد العظيم يقول أحمد بن عبد الملك^(٢):

وقدّمه في العيد مجتلياً له فأكرم بما جلاه منه وما اجتلي
وحملّه عهد الخلافة ناشئاً فقام به لا يأتلي متحملاً
كفياً بأن يكفيه كل عظمة من الدين والدنيا به قد تكفلاً
تبوأ من قصر الخلافة منزلاً وبوآه بالسعد واليمن منزلاً

وقد تغير الترتيب في ذلك اليوم على غير العادة، وسمح لأبناء الوزراء وأكابر رجال الدولة وقيان القصر شهوده، وبدأت الوفود بالتسليم على الخليفة أولاً، وفي ذلك يقول أحمد بن عبد الملك^(٣):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

ولما دنا إذن السلام على الحركة ايداع الواسع من الجاهلية قد توكلوا
توافى الموالى والعبيد فقبلوا يد الملك الاعلى أخيراً وأولاً

ثم انتنوا للسلام على ولي عهده^(٤) :

وأموالى العهد في المحفل الذي تمنى العدا أن يخدموا فيه محفلاً
فلما دئوا منه تدائوا تواضعاً بقدر سما فوق السماكين واعتلى
ومد إليهم راحة حكمية مملكة رقى المكارم والعلا

(١) ابن حيان، للفتى (الحقي)، ص ١٨٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١٨٧.

(٤) المصدر السابق.

وجرت العادة في الأعياد بعد ذلك أن يقعد المستنصر لأخوته ووزرائه وأكابر أهل الخدمة دون سواهم، وأن يقعد هشام لسائر المهنيين.^(١)

ولم تكن عادة تقبيل اليد مقتصرة على الخليفة في قرطبة وحده، بل يبدو أنها كانت سنة متبعة عند السلام على الأمراء في سائر المدن، ومن الإشارات الدالة على ذلك قول ابن دراج حين وفد الناس لتهنئة المنذر التميمي في أحد الأعياد^(٢):

حتى ارتقيت سريرَ مُلكك حُفُهُ نورُ السُرورِ جوانباً بجوانبِ
ومدّتْ للتقبيلِ راحةً مُنعمٍ تنهلُ أنملُها بحورَ مواهبِ

وقد تكون هذه الظاهرة قد نشأت من باب الاحترام والتقدير للحاكم، وأما مدّ هشام يده للناس ليقبلوها فلا يعدم أن يكون الأمر أن تولد الموائد أن يكون رشدياً الشبه بوالده في ذلك اليوم، محتذياً أفعاله.

مركز أيداع الرسائل الجامعية

وكان من كرم الخلفاء والأمراء في الأعياد أن مدّوا الموائد العامرة للمهنيين، ولا سيما أن منهم من كان يأتي من أماكن بعيدة، وفي ذلك يقول ابن دراج^(٣):

مطاعمُ مُدّتْ بها في الصّحونِ موائدُ مستبشراتُ التّماذي

(١) ابن حبان، اللقبس (الحقي)، ص ٢٢٩.

(٢) ابن دراج، الذّيوان، ص ١٧٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨٨.

وكانت تلك المراتب تقام كذلك عند إبلال الخليفة أو الأمير من مرضه، وكان الشَّعر مواكباً تلك الأحداث، إلّا أنَّ ما وصل إلينا من مقطوعات كان يسيراً منصرفاً إلى بيان فضائله وأحقّية الخلافة في بني أمّية، ولا سيّما تلك التي أوردها ابن حبان في المقتبس.

وكانت المواكب الفخمة تقام كذلك عند خروج الخليفة لتفقد أحوال الرعيّة أو للتزّهة والصّيد، وقد سبقت الإشارة إلى موكب التاصر عند خروجه للصّيد.^(١)

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

(١) انظر: الفصل الأول، ص ٥٢.

المبحث الثاني النشاط الاقتصادي

شهدت الأندلس منذ عصر الإمارة نشاطاً اقتصادياً كبيراً، ونمت الثروات العامة والخاصة، وتضاعفت واردات الدولة، ولا سيما في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، واستمرت في الازدهار حتى تفشى الثراء وعمّ الترف والرّخاء في عهد عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر من بعده.

جميع الحقوق محفوظة

وكانت الفلاحة من أهمّ منابع الثروة الاقتصادية في الأندلس كلّها، كما نشطت حركة الصناعة، وجرى تخصيص دار لكلّ صناعة يقوم عليها أمهرا العرفاء والحرفيين وأصبح لكلّ صناعة أو حرفة عرف خاصّ بها^(١)، وتوسّع النشاط التجاري برّاً وبحراً، واشتهرت البضائع الأندلسية في كلّ الآفاق والبلدان، كما جلب التجار إلى الأندلس مختلف السلع الأساسية والكمالية.

ومع ازدهار النشاط الاقتصادي في ذلك العصر فإن الوثائق التاريخية - بين أيدي الدارسين - عن الأنظمة الاقتصادية السائدة قليلة، ولا تتناسب مع التطور الهائل الذي شهدته الأندلس في عصرها الذهبي.

^(١) عرفت الأندلس في ذلك الوقت ما يشبه نظام التقايات المهنية في عصرنا الحاضر، فلكلّ صناعة عريف يضبط أصولها، ويعلم الصّانعين أسرار المهنة، ويدافع عن حقوقهم على اختلاف طبقاتهم، وكان الواحد منهم يتدرّج في حرفته أو صناعته من مبتدئ إلى صانع له حانوت خاصّ به. للمزيد انظر: لويس، برنارد، التقايات الإسلامية، ترجمة: عبد العزيز الدوري، مجلّة الرسالة، الأعداد: ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٦٢، سنة ١٩٤٠، عاشور، سعيد عبد الفتاح (وآخرون)، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، الفصل الخامس، ص ٣٢٩-٣٣٨، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

أولاً - الفلاحة والرّي :

امتازت الأندلس بطبيعة خلّابة أسرة بسبب خصوبة تربتها ووفرة مياهها الطّبيعيّة، مثل الأمطار والأنهار والجداول والبحيرات، كما سعى المسلمون في الأندلس إلى توفير مصادر الرّي الصّناعيّة، واخترعوا تقنيّات وآلات لتطويع الرّزاعة، وبلغت هندسة الرّي شأنًا عظيمًا في ذلك العصر.

وقد أسست في مختلف أرجاء الأندلس محكمة للمياه لضمان حصول الفلاحين على نصيبهم من تلك المياه، وكانت تلك المحكمة تعقد كلّ خمسٍ للنظر في القضايا والدّعوى المتعلّقة بهذا الشأن، وكان المعتدي على نصيب الآخرين من المياه يعاقب بالحرمان من نصيبه، وما تزال هذه المحاكم معروفة في إسبانيا حتّى اليوم، وتلجّ شؤنها كما كانت تلتزم في العصر الإسلاميّ قبل أكثر من عشرة قرون.^(١)

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وحرصاً على توفير المياه وعدم هدرها سعى المهندسون الأندلسيون إلى بناء التّواعير والسّدود للاستفادة منها عند انخسار مياه الأنهار أو انحباس مياه الأمطار. ولمّا كان أهل الأندلس مفلّطين على حبّ الجمال، أبدعوا في البناء حتّى غدت تلك التّواعير والسّدود آية تبهج التّاظنين.

وكانت التّواعير تقام على ضفاف الأنهر مفردة أو مزدوجة، وفي وصف ناعورة قرب لهر قرطبة يقول عبد السلام^(٢):

(١) انظر: القاضي، محمّد، من تقاليد العرب في إسبانيا (محكمة المياه)، مجلّة الفيلسوف، ٣٨٤، السّنة ٤، الرّياض، حزيران/ يونيو - تموز/

يوليو، ١٩٨٠، ص ١٣٤ - ١٣٦.

(٢) ابن الكتّاني، التّشبيّهات، ص ٨٥.

كَأَنَّ نَاعِرَةَ النَّهْرِ الَّتِي نَعَرَتْ أَعَارَهَا الْقَلْلُ الْأَعْلَى بِهِ نُعْرَةَ
دَارَتْ فَأَبَدَتْ لَنَا مِنْهَا اسْتِدَارَتُهَا أَنْيَنَ صَبَّ إِذَا مَا إِلْفُهُ غَدَرَةَ

وفي وصف آليّة عملها، وجريان مائها يقول ابن هُذَيْل^(١):

وِثْقِيلَةُ الْأَوْصَالِ تَحْسَبُ أَنَّهَا فَلَكُ يَضِيقُ بِصِرِّهَا حَيْرُومُهَا
تَجْرِي إِلَى خَلْفِ كَأَنَّ أَمَامَهَا مَلَكُ يَلْزِمُ كِبْحَهَا وَيُسَيِّمُهَا
وَإِذَا تَدَلَّتْ جِلَّتْ أَنْ غَمَامَةً سَوْدَاءَ مَقْبِلَةٍ عَلَيْكَ غَيُومُهَا

وفي ناعورتين والنَّهْرَ بينهما يقول الرَّمَادِي^(٢):

كَيْفَ لَا يَبْرُدُ الْهَوَاءُ لِنَهْرٍ يَبِينُ غُرَافَتَيْنِ كَالذَّيْمَتَيْنِ
لَيْسَتْ فَوْقَهُ مِنْ مَوْكِرٍ وَالْطَّلُّ عَلَى خَالِئَةٍ بِمَنْفَكَتَيْنِ
وَصَفَا الْمَاءِ مِنْهُمَا إِذْ هُمَا لِلْمَاءِ بِالْجُرْيِ كَالْمَغْرَبَتَيْنِ
فَهُوَ رَشَاءٌ دُرٌّ تَسَاقَطَ نَشْرًا وَهُوَ طَشَاءٌ بُرَادَةٌ مِنْ جُيْنِ
حَسَنُ الْوَجْهِ شَفَّةُ أَلَمِ الْحَرِّ فَقَدْ صَارَ بَيْنَ مَرُوحَتَيْنِ

وكان للقصور نواعير خاصة غاية في إتقان الصنعة. وفي وصف الناعورتين اللتين بناهما المنصور بن أبي عامر بالزاهرة يقول ابن هُذَيْل^(٣):

(١) ابن الككائي، التّشبيهات، ص ٨٣-٨٤، شوابكة، شعر يحيى، ص ١٢٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٢، جرّار، ماهر، شعر الرّمادي، ص ١٣٣.

(٣) المصدر السابق، شوابكة، شعر يحيى، ص ١٠٠.

تَبَدَّتْ لَنَا وَمُشَطَّ الرِّصَافَةِ نَخْلَةٌ تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنْ بِلَدِ التَّحْلِ
فَقُلْتُ شَبِيهِي بِالْغَرْبِ وَالتَّوَى وَطُولِ التَّنَائِي عَنْ بَيْتِي وَعَنْ أَهْلِي
نَشَأَتْ بِأَرْضٍ أَنْتَ فِيهَا غَرِيبَةٌ فَمِثْلُكَ فِي الْإِقْصَاءِ وَالْمُنْتَأَى مِثْلِي

ومن الأشجار التي كانت تزرع في الأندلس الصنوبر والأثل والأراك والأبنوس وغيرها^(١)، وقد أكثر الشعراء من ذكر أسماء تلك الأشجار في شعرهم، من ذلك قول أبي عامر بن شهيد في الأثل والأراك^(٢):

وإنَّ هَبوطَ الواديينِ إلى التقا بحيثُ التقى الجمعانِ واستقبلَ السَّقَطَا
لَمَسْرُحٍ سَرِبَ مَا تَقَرَّى نَعَاجُهُ بِرَيْرٍ^(٣) وَلَا تَقَرُّوْا حَآذِرُهُ خَمَطَا
ومرتحزٍ ألقى بذِي الْأَثَلِ كَأَكْلَا وَحَطَّ بِحَرْعَاءِ الْأَسَارِقِ مَا حَطَا

وفي الصنوبر يقول محمد بن عبد الملك بن الناصر^(٤) مرثياً أيداع الرسائل الجامعية

إنَّ الصَّنُوبَرَ جِصْنٌ لَدَيْهِ حَرَزٌ وَبَاسٌ
خَفَّتْ مِنْ أَجْلِ إِرْهَآ بِمَنْ عَدَاهُ تَرَّاسٌ
كَأَنَّمَا هُوَ ضِدٌّ لِمَا حَوَاهُ الرَّئَاسُ^(٥)

^(١) كان الأندلسيون يفسون الأشجار في الساحد كذلك، مع أن الإمام مالك لم يكن يقر ذلك، فأخذوا بمذهب الأوزاعي في هذه المسألة لأنها تناسب مع مذهبهم و تكونهم أنفسهم. انظر التباهي المألقي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٥١.

^(٢) النعالي، الشيماء، ج ٢، ص ٥٠، المقرئ، التفح، ج ٣، ص ٤٤٠، ديب، ديوان ابن شهيد، ص ٨٩.

^(٣) العبر: الأول من ثمر الأراك. [ابن منظور، اللسان، بر].

^(٤) للمقرئ، التفح، ج ٣، ص ٥٨٥.

^(٥) أشار المقرئ إلى أن بعض سيوف الأندلس عفور صدر الرئاس على صورة قشر الصنوبر. المصدر السابق.

وقد حرص الأندلسيون على زراعة الأشجار المتعددة الفوائد، ومنها القبارة، وهي " شجيرة مشوكة منبسطة على الأرض باستدارة، وشوكتها معقفة، ولها ثمر شبيه بالزيتون، يؤكل ثمره مع خلّ وعسل، أو مع خلّ وزيت، ويتخذ كاخنا، وتوكل قضبانته حين يكون طرياً ^(١) ". ومما قيل في وصف بعثة قبارة ^(٢) :

بعثتُ بقبارة ضخمة كأنما أرؤسها أرؤسُ
ظاهرها شوكة ولكنّه للموز في باطنها مخمسُ
من أنثر الراح بإحضارها ثقل لمن يشربها يسلسُ

كما أكثر الشعراء من ذكر الغراس والثمار التي اشتهرت بها الأندلس وفي شعرهم كالغلب والرمّان والتفاح والإحاص والتوت والتفاح والخرق والشارنج وغير ذلك، وقد جلبت بذور بعضها من المشرق وبلاد فارس وكثيراً ما نادى أهل الأندلس تلك الثمار بينهم: وقد كان الشعراء يتبارزون في وصف تلك الثمار لتأكيد شاعريتهم وبراعتهم في الوصف، ففي إهداء رمّان يقول أحمد ابن فرج ^(٣) :

ولابسة صدقاً أصفرا أنثك وقد ملئت جوهرا
كأنك فاتح حُقّ لطيف تضمّن مرجائه الأحمر
حبوباً كمثلي لثات الحبيب رضاباً إذا شئت أو منظر

وفي التوت (التوت) ^(٤) يقول عليّ بن أبي الحسين ^(٥) :

(١) عباس، التشبيهات، الحاشية، ص ٨٩.

(٢) ابن الكتّاني، التشبيهات، ص ٨٩، والآيات لعبد الله بن مغيرة المعروف بابن الصّغار.

(٣) المقرئ، التفح، ج ١، ص ٤٦٨.

(٤) اعني الأندلسيون بزراعة " التوت " لأهميته في تربية دودة القز .

(٥) ابن الكتّاني، التشبيهات، ص ٨٦.

أبدى لنا التَّوْتُ أصنافاً من الحبش
جُعِدَ الشَّعُورُ مِنَ الأطباقِ في فُرُشٍ
كَأَنَّ أَحْمَرَها مِنْ بَيْنِ أَسْوَدِها
بَقِيَّةُ الشَّقَقِ البادي مَعَ الْعَبَشِ

كما كان القمح والشعير يزرعان في سهول الأندلس وجبالها، وكانت تلك الحبوب تطحن بالرحى ليصنع منها الخبز، وفي وصف الرّحى والصّانعين الذين يعملون في طحن تلك الحبوب يقول عبد السلام^(١):

يَا رَبُّ طائِرةٌ فِي حِجْرٍ دائِرةٍ
قَدْ قُدِّرَتْ فَعْدَتْ فِي حَلَقٍ مَقْتَدِرةٍ
يَكْسُو الغَبَارُ وَجْهَ الصّانِعِينَ كما
يَكْسُو وَجْهَ العِدا يَوْمَ الوَغَى غِيرةً
وَتَعْرِكُ الدَّهْرَ عَرَكاً أَكْرَمَ الثَّمِرةِ
كَعَرِكِ هِجائِهِ فِي المَعْرِكِ الفَجْرةِ

جميع الحقوق محفوظة

وكانت الخدائق في الأندلس مشبعة بالأنواع والنباتات، ويتنزهون فيها ويروّحون بها عن أنفسهم، ويشاطرون أقرانهم الإحساس بالمتعة واللذة، وكانت تلك الخدائق تشتمل على مختلف أنواع الزهور كالترجس والمنثور والياسمين والسوس والنبيلوفر وغيرها، ولم يترك الشعراء أيّاً من تلك الأزهار إلا وصفوها في قصائدهم، ويكاد يكون سواد شعر وصف الطبيعة في ذلك العصر في وصف الأزهار، وهو أمر بدهي عند شاعر مجبول بالإحساس بالجمال واللذة الدنيوية والمتعة الحسية.

وكان الورد هو المفضل عند الأندلسيين، وقد انطلق الشعراء في مساجلات شعرية لبيان فضل الورد على سائر أنواع الزهور، لكنهم - فيما يبدو - اتخذوها ذريعة لبيان مقدرةم الشعرية في الوصف شأن أقرانهم المشاركة؛ إذ يتعذّر على الشاعر المفتون بالجمال أن يفضل زهرة على أخرى.

(١) ابن الكفائي، التشبيهات، ص ٨٤.

وفي الردّ على الشّاعر العبّاسيّ ابن الرّوميّ المفتون بالترجس^(١) يقول سعيد بن محمّد بن فرج مدافعاً عن جمال الورد^(٢):

عني إليك فما القياسُ الفاسدُ	إلاّ الذي ردّ العيانُ الشّاهدُ
أزعمتُ أنّ الوردَ من تفضيله	خجلٌ وناحلُه الفضيلةُ عاندُ
إنّ كان يستحيي لفضلِ جماله	فحيأؤه فيه جمالٌ زائدُ
والترجسُ المصفرُّ أعظمُ ريبةٍ	من أن يحولَ عليه لونٌ واحدُ
لبسِ البياضِ بصفرةٍ في وجهه	صفةٌ كما وُصفَ الحزينُ الفاقدُ

إلاّ أن الشّعراء مع ذلك انطلقوا يصفون مختلف أنواع الزّهور في الحديقة الأندلسيّة، ويشبّهونها بكلّ مليح وبديع وغريب.^(٣)

جميع الحقوق محفوظة

وقد كانت الأزهار أكثر الهدايا انتشاراً بين الأندلسيين وعلى اختلاف طبقاتهم الاجتماعيّة كرمها متاحة للأغنياء والفقراء على حدٍّ سواء، وكانوا يتهاودون في الأعياد والمناسبات المختلفة، كما سبقت الإشارة في غير موضع من هذه التّراسة.

(١) في قصيدته التي مطلعها :

خجلتُ خدودَ الوردِ من تفضيله

انظر: ابن الرّوميّ، أبو الحسن عليّ بن العبّاس (ت ٢٨٣هـ)، ديوان ابن الرّوميّ، ج ٢، ص ٦٤٣، تحقيق: حسين نصّار، القاهرة، ١٣٩٣ هـ.

(٢) الحميريّ، البديع، ص ٧٥-٧٦، الحميديّ، الجذوة، ص ٢٢٨، الضّبيّ، البغية، ج ٢، ص ٣٩١.

(٣) انظر للمقطوعات الشعريّة والنثرية التي أوردها الحميريّ في كتابه البديع في فصل الرّبيع.

وقد عرفت الأندلس أساليب متطورة لزراعة الأزهار في غير موسمها، وفي إهداء ورد مبكر
للمنصور بن أبي عامر يقول يعلّى بن أحمد^(١):

بعثت من جنّتي بورد غصن له منظرٌ بديع
قال أناسُ رأوه عندي أعجله عامنا المريع^(٢)
قلت: أبو عامر المَعْلَى أيامه كلُّها ربيع

وقال جعفر المصحفي حين أهديت إليه رامشة ورد في غير أوانها^(٣):

لعمرك ما في فطرة الرّوضِ قدرةٌ بحلّها بها جرى الزّمان عن القصد
ولكنها أحلاقتك المرُجّجُ جميعُ الحقوقِ في كنفها نائمة الورد
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز أبحاث الدراسات الجامعية
ولم يمنع اجتماع الزهور المختلفة على أرض واحدة من المحافظة على النّوع والنّظام والترتيب
عند غرسها وتنسيقها، وتوزعت الألوان بجاذبة مريحة للبصر^(٤)، وفي وصف روضة اجتمعت فيها
زهور مختلفة بتناسق هندسي واضح يقول ابن عبد ربّه^(٥):

وروضة عَقَدَتْ أيدي الرّبيع بها نوراً بنورٍ وتزويجاً بتزويج
بمُلَقَّحٍ من سَواريها وملقحة وناتج من غواديبها ومنسوج
توشّحت بملاة غير ملحمة من نورها ورداء غير منسوج

(١) الحميدي، الخلوقة، ص ٣٨٦، الصّبيّ البغية، ج ٢، ص ٦٩٠، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٢٠٤، ابن الأبار، الخلقة، ج ١، ص ٢٨٤.
وذكرت المصادر نفسها في ترجمته أنّه يعلّى بن أحمد بن يعلّى القائد، كان في دولة المنصور بن أبي عامر، ت (٣٩٣هـ).

(٢) في المغرب: (ناس) بدلا من (أناس)، و (عامه) بدلا من (عامنا).

(٣) ابن الأبار، الخلقة، ج ١، ص ٢٦٢.

(٤) وصف ابن خاقان - في معرض إشارته إلى دفن أديب حدث - حديقة الرّحائيّ صاحب أبي عامر بن شهيد، ويكشف هذا النص عن
نظام تصميم الحدائق في القرن الرابع الهجريّ وهندستها للعمارة. انظر: ابن خاقان، القلائد، ج ١، ص ٥٥.

(٥) الحميري، البديع، ص ٨، النّاقة، ديوان ابن عبد ربّه، ص ٦٩.

فَأَلْبَسْتُ خُلَّالَ المَوْشَى زَهْرَتَهَا وَحَلَّلْتُهَا بِأَنْمَاطِ الدِّيَابِجِ

وَيُصِفُ المِهْنَدُ اعْتِدَالَ أَسْطَارِ رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ قَرْطَبَةٍ بِقَوْلِهِ^(١):

فَلَهَا أَسْطَرٌّ مِنَ الرَّوْضِ فَاتَتْ بِاعْتِدَالِ أَنْمَالِ الخَطَّاطِ
وَحُرُوفٌ قَدْ نَقَطَ الزَّهْرُ مِنْهَا كُلُّ مُسْتَعْجِمٍ عَلَى النَّقَّاطِ

وَكَانَ الْأَنْدَلُسِيُّونَ يَقِيمُونَ بَعْضَ الرِّيَاضِ فِي حَزْنٍ مِنَ الْأَرْضِ بَعِيدَةٍ عَنِ الْمَاءِ، فَلَا تَرَعَاهَا الشَّاءُ
وَلَا الْحَمْرُ الرَّحْشِيَّةَ، فَتَبْقَى مِرْعَةٌ نَضْرَةٌ، وَفِي وَصْفِ إِحْدَاهَا يَقُولُ مُحَمَّدُ بْنُ هِشَامٍ^(٢):

وروضة من رياض الحزن خالفها
كأنما الورد فيما بينها ملك
جميع الحقوق محفوظة
طل أطلت به في أفقها الخلل
مكتبة الجامعة الأردنية
موف وتوارها من حوله خول
مركز أيداع الرسائل الجامعية

وَكَانَتْ تِلْكَ الطَّبِيعَةُ الْغَنِيَّةُ بِمَخْتَلَفِ أَنْوَاعِ الزَّهَوْرِ بَيْتَةً مَنَاسِبَةً لِتَرْبِيَةِ التَّحْلِ. فَارْجَتْ صِنَاعَةَ
الْعَسَلِ، وَفِي وَصْفِ امْتِصَاصِ التَّحْلِ لِرَحِيقِ الْأَزْهَارِ يَقُولُ أَبُو عَامِرٍ بْنُ شُهَيْدٍ^(٣):

وَطَائِرَةٌ تَهْوِي كَأَنَّ جَنَاحَهَا مِلَازِمَةٌ لِلرَّوْضِ حَتَّى كَأَنَّهَا
لَهَا كُلُّ مَا تَفْتَرُّ عَنْهُ الرَّبِّي طَعْمٌ
لَمْشَاتِهِ مَا بَيْنَ أَحْشَائِهَا سَهْمٌ
تَمَجُّ بِفِيهَا الشَّهْدُ صِرْفًا وَيَحْتَفِي

(١) ابن الكَثَّانِي، التَّشْبِيهَات، ص ٥٥.

(٢) الْحَمِيدِي، الْجَلُوق، ص ٩٦، لِلْقَرِي، التَّلْحِج، ج ٣، ص ٥٧٣.

(٣) ابن بَسَّام، الذَّخِيرَةُ، مَج ١، ص ١٣٧، دِيْب، دِيْوَانُ ابْنِ شُهَيْدٍ، ص ١١٨.

ولم يقف الشعراء عند وصف تلك الحقائق والبساتين وذكر ما تشتمل عليه، إنما فحّرت فيهم تلك الطبيعة البالغة الخصوبة الإحساس باللذة الدنيوية الزائلة، وأوقدت حواسهم، وحركت شهواتهم ورغباتهم، فانطلقوا يلهثون وراء الجمال الحسيّ المتهوِّج أمامهم، وكان يكفي للريح أن تهبّ على الرياض، فتتميل الأغصان، وتوقظ كلّ تلك الأحاسيس الكامنة في نفوسهم وعقولهم، وفي ذلك يقول ابن هذيل^(١):

هَبَّتْ لَنَا رِيحُ الصَّبَا فَتَعَانَقَتْ فذَكَرْتُ حَيْدَكَ فِي الْعِنَاقِ وَحَيْدِي
وَإِذَا تَأَلَّفَ فِي أَعَالِيهَا التَّيْدَى مَالَتْ بِأَعْنَاقٍ وَلُطْفٍ قَدُودِ
وَإِذَا التَّقَتْ بِالرَّيْحِ لَمْ تَبْصُرْ بِهَا إِلَّا أَحْدُوداً تَلْتَقِي بِخُدُودِ

كما نزع بعض الشعراء أمام هذه الطبيعة الآسرة إلى التمرّد على البراءة، والبحث عن خبايا مشاهدتها بما يناسب تكوينهم النفسيّ العايب، وأصبحت الطبيعة معادلاً موضوعياً للمرأة المثيرة المغرية التي تحرك الشهوات وتملح الإحساس بالمتعة واللذة، وفي ذلك يقول عليّ بن أبي الحسين^(٢):

كَأَنَّمَا الرُّوضُ هَيْفَاً فِي حُلَّةٍ وَوَشَاحِ
تَشِيرُ غَمَزاً عَلَيْنَا بِنَرْجَسٍ وَأَقْصَاحِ
تَقُولُ: مَنْ عَافَ وَصَلِي فَمَالَهُ مِنْ فَلَاحِ
فَخَذَ فَدِيئُكَ كَأَسَاً وَدَغَ كَلَامَ اللُّوَاحِي

وكان منظر الورد يثير في الشاعر الإحساس بالمتعة والبهجة والفرح، وفي ذلك المعنى يقول عباس بن فرناس^(٣):

(١) ابن الكثير، التشبيهات، ص ٥١، شوابكة، شعر يمين، ص ٨٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٣.

(٣) الحميدي، الجفوة، ص ٣١٨، حرّك: صلاح، ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ص ١٥٨.

تُرى وردّها والأقحوان كائنه بها شفةً لمياء ضاحكها نغز

ويقول يونس بن عبد الله^(١):

كأئما الرّوض إذ تعلّله بالرّيق صبّ حلا بمعشوق
تُبسمُ عن نُورِهِ كما ابتسمت وامقة بُشرت بموموق

إلا أنّ الشّاعر الأندلسيّ كان يدرك في أعماقه أنّ هذا الجمال المائل أمامه سيزول سريعاً، وكان منظر الأزهار الذّابلة يثير فيه حزناً عميقاً شفافاً مغلفاً بالأسى، إلا أنّ الحزن لا يستغرقه تماماً، بل يعود لتفاؤله بربيع جديد قادم يتحدّد معه هذا الجمال. وفي هذا المعنى يقول عبيد الله بن يحيى^(٢):

جميع الحقوق محفوظة

تخلّت من الورد الأنثى حدائقه وبان الحميد الأنس والعهد رائقه
أقام كرجع الطّرف لم يشكف أغلّة الوسم يلزّ الجملع والجوانح شائقه
فما كان إلا الطّيف زار مُسلماً فسُرّ ملاقيه وسيء مفارقه
على الورد من إلف التصاي حية وإن صرمت إلف التصاي علائقه
ويهدي الحدود الناظرات انفرادها بورد الحياء المستجد شقائقه

وهكذا يبدو الشّاعر الأندلسيّ مشغولاً بالحديث عن تجربته الجماليّة من خلال امتزاجه بالطّبيعة من حوله، وحفظ لنا بعض ملامح تطوّر الفلاحة في الأندلس في ذلك العصر، ولم يقصد بأيّ حال من الأحوال تقديم وثيقة تاريخيّة في هذا الباب، فجاءت الإشارات قليلة، ولا تكفي لتحديد معالم تطوّر الفلاحة في ذلك العصر كما تتحدّث عنها المصادر المختلفة.

^(١) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٥٢. والشّاعر هو أبو الوليد يونس بن عبد الله بن الصّفّار، كان من أهل الحديث والفقه، تولى القضاء والشورى والرّة والوزارة. ترجمته في: الحميدي، الجذوة، ص ٣٨٤.

^(٢) الحميدي، الجذوة، ص ٢٦٩.

ثانياً - الحرف والصناعات :

تعددت الصناعات في الأندلس حتى صارت مظهراً من مظاهر الازدهار الاقتصادي، ولا سيما في المدن الرئيسية مثل: قرطبة وبلنسية وإشبيلية وغرناطة وسرقسطة. ومع تبحر العمران ازداد الطلب على الصناعات الكمالية وبضائع الثرف، ونشطت دور الصناعة الأندلسية لتلبية احتياجات الناس بكل مهارة ودقة وإتقان، بالإضافة إلى ما كانت تستورده السوق الأندلسية من مواد خام أو صناعات جاهزة من المشرق وبلاد فارس والهند والصين وبلاد العجم.^(١)

وقد ورد في شعر ذلك العصر إشارات قليلة ومتناثرة عن تلك الصناعات، ولا تكاد تكشف عن أقل القليل من تطور الصناعة الأندلسية. وقد وردت في بعض المصادر ما حفظته المصادر من الشعر - في هذا الباب - زمن ملوك الطوائف، بالإضافة إلى الشعر في عصر الطوائف لم يترك شاردة ولا واردة من الصناعات والحرف إلا عسى أن يسجلها ولا يعقل أن يتحدث اهتمام مفاجئ بالصناعات في القرن الخامس الهجري، وهي التي بلغت أوج ازدهارها في القرن الرابع، لذا يمكن القول إن الشعر الأندلسي في العصر الأموي اعتنى بتسجيل هذه المعالم إلا أنها لم تصل إلينا لأسباب سبقت الإشارة إليها في أكثر من موضع في هذه الدراسة.

(١) أورد للقرني في "نفع الطيب" عن ابن سعيد قوله: "ولم يصنع الأندلس يتجني التفضيل وللمتصين لها في ذلك كلام كثير، فقد احتضنت القرية ومالقة ومروية بالوشى للذهب الذي يتعجب من حسن صنعه أهل المشرق إذا رأوا منه شيئاً، وفي ثالثة من عمل مروية تعمل البسط ألبي بغالي في منها بالمشرق، ويصنع في غرناطة وبسطة من ثياب اللباس الحررة العنيفة الذي يعرف بالملبد المحتتم ذي الألوان العجيبة، وآلات الصنعة والحديد من السكاكين والأقماس الملحقة وغير ذلك من آلات العروس والجندي ما يبهر العقل، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها، ويصنع بها وبالقرية ومالقة الزجاج الغريب العجيب وفخار مزجج مذهب "انظر: للقرني، النفع، ج ١، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٢) للمزيد عن الحرف والصناعات في الأندلس، انظر: الزغول، جهاد، الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، الباب الثاني، ص ٩٥ - ٢٤٤، الطبعة الأولى، مركز الأفاق، عمان، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

وقد اشتهرت الأندلس بصناعة المنسوجات، وأقيمت دور الطرز في العديد من المدن الأندلسية، وكل ما يمكن العثور عليه في هذا الباب - في المصادر التي اطلعت عليها - بعض المقطوعات في وصف الجلم (المقص)، ومن ذلك قول الرماذي^(١):

جلمٌ من صفاه كاذ بأن يخفى فلو أنه اصطبارٌ لعيلا
قاطعٌ في انطباقه كانطباق الثغر في العض مبطناً وعجولا

وقول ابن هذيل^(٢):

مقصٌ كأن سهام العيون أطرافها في يدي مُخترمٌ
تصورٌ لي في يدي من أحيي الحقوق، لا محذورٌ لنا سألت نعم

مكتبة الجامعة الاردنية

كما اشتهرت الأندلس بصناعة السفن والإماطيل، وخصصت لها أموال طائلة؛ نظراً لكثرة الحروب في ذلك العصر، ونشاط حركة التجارة البحرية، وفي وصف دار لصناعة السفن يقول الرماذي^(٣):

والسفن قد جللها قارها كأنها أعرأ حيشان
كأنها في دار مضمارها عيلٌ يصنعن لميدان

(١) ابن الككائي، التشبيهات، ص ٢٣٢، جرار، ماهر، شعر الرماذي، ص ١٠٠-١٠١.

(٢) المصدر السابق، شوابكة، شعر يحيى، ص ١١٨-١١٩.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٢، جرار، ماهر، شعر الرماذي، ص ١٣١.

وقد كانت سفن الحرب تتسم بالضخامة؛ وفي ذلك يقول ابن عبد ربه^(١):

كأنها جبلٌ في الماءِ منتقلٌ يا مَنْ رأى جبلاً في الماءِ ينتقلُ

كما اشتهرت الأندلس بصناعة سفن الرّحلات ومراكب الصّيد والتّزّهة، وفي وصف إحدى سفن الرّحلات يقول الغزالي^(٢):

ولبسٍ كثوبٍ القسّ حُبّتُ سوادُه على ظهرٍ غريبٍ القميصِ نَادٍ
قد استأخرتُ أردافه ومضتُ له غواربُ في آذنيه وهوادٍ

جميع الحقوق محفوظة
وفي وصف شراع ضخّم يقول ابن درّاج^(٣) كلية الجامعة الأردنية
مركز أبحاث الرسائل الجامعية

أَيُّ شَرَاخٍ لَأَيِّ بَحْرِ وَأَيُّ كِسْفٍ لَأَيِّ بَدْرِ
وَأَيُّ شَمْسٍ تُجَلَّلَتْهَا طُرَّةٌ صُبْحَ سَمَتٍ بِفَجْرِ

وفي وصف المجاديف يقول ابن هانئ^(٤):

إذا أعملوا فيها المجاديفَ سُرْعَةً تَرى عقرباً منها على الماءِ ماشياً

^(١) ابن الكّثاني، التشبيهات، ص ١٧٢، الدّاية، ابن عبد ربه، ص ١٣٦.

^(٢) المصدر السابق، ص ١٨١، الدّاية، ديوان الغزالي، ص ٦٣.

^(٣) ابن درّاج، الذّيوان، ص ٢٥٣-٢٥٤.

^(٤) للقرّني، التّفح، ج ٣، ص ١٨١. ولم ترد في ديوانه.

واشتهرت - كذلك - بصناعة مختلف الأسلحة التقليدية والمتطورة ، حتى صارت بعض الأسر توارث صناعتها، ولا سيما في طُلَيْطِلَة و غَرْنَاطَة وإشبيلية ومُرْسِيَة وأَلْمَرِيَة.

وقد كانت تلك الصناعات المتقنة مدعاة لفخر الشاعر الأندلسي واعتزازه بإنجازات شعبه الحضارية، فشغل بوصف قوتها ومنايتها ودقة صناعتها بإحساس شعري خاص، ومن الأمثلة على ذلك - على سبيل المثال لا الحصر - قول ابن هُدَيْل^(١):

يَسْرِي مَعَ الرَّاحِ الرَّحِيقِ وَإِنَّهُ مِنْهَا لَأَلْطَفُ فِي الْجِسْمِ وَأَدْخِلُ
وَيُرِيكَ أَنَّ عَلَى يَدَيْ مُسْتَلِّهِ نَسَجًا مِنَ الْآلِ الَّذِي يَسْخِلُ

وقول عبادة في الرِّمَاح^(٢):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

وَذَوَابِلُ صَمِّ الْكَعُوبِ مَعَكُمْ أَيْدَاعُ الْمَسَائِلِ وَالْجَامِيعِ
قَدْ قَوْمَتْ فَكَأَنَّمَا امْتَلَأَتْ بِذَا لَكَ الْفَعْلُ فِي تَقْوِيمِ كُلِّ مُعِيلٍ

وقد اشتهرت الأندلس بصناعة الأقواس التي ليس فيها شق، وفي وصفها يقول أبو عوف القرشي^(٣):

وَعَانَقَةُ أَطْرَتْ عَوْدَهَا أَكْفُ الرِّمَاءِ بِهِ فَالْتَوَى
كَتُومٌ مِنَ التَّبَعِ مَضْعُوفَةٌ كَمَثَلِ الْهَلَالِ إِذَا مَا بَدَا

(١) الجراوي، الحماسة المغربية، ج ٢، ص ١١٧٧، شوابكة، شعر يحيى، ص ١١٣ وورد البيت الثاني في: ابن الكفائي، التشبيهات، ١٨٩.

(٢) ابن الكفائي، التشبيهات، ص ١٩١.

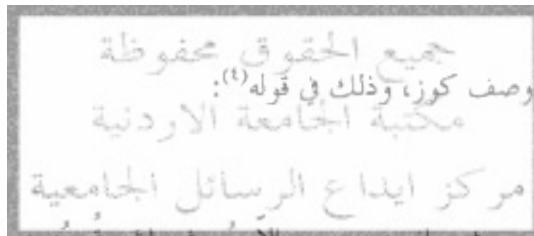
(٣) المصدر السابق، ص ١٩٥. ولم أتر على ترجمة للشاعر.

كما أولى الشعراء أدوات الطعام والشراب اهتمامهم، فوصفوا الأقداح والكؤوس، والأباريق والسكاكين والأطباق، وقد سبقت الإشارة إلى بعض ما قيل في وصفها^(١)، ونما حفظته لنا المصادر في ذلك - أيضاً - قول ابن بطلان في كأس مصنوعة من أجود أنواع الزجاج^(٢):

كالآل في الرقعة لكتها تُنقَعُ منها غُلَّةُ السَّوَادِ

وفي وصف إبريق الشراب يقول علي بن أبي الحسين^(٣):

وإبريقنا ما يبرح الدهر راکعاً كأن قذحني ذنباً فمال إلى الزهد



ومعهم لم يبق في جماله إلا خشاشة مهجة لم تُزهِق
حُيْتُ على كشْحِهِ من بُرحائه عَضْدَانِ فهو كموثَّقٍ لم يُطْلَقِ
حُلْتُ عِمَامَةً رَأْسِهِ فَتَضَوَّعَتْ منه مفارقة بمِثْلِ الزُّبُقِ

وفي مقبض سكين أسود يقول علي لسانها^(٤):

في جانبي ليل وفي الثاني ضحى فأنا الزمان على أنامل مُسْكِي

(١) انظر: الفصل الأول، ص ٨٥.

(٢) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٩٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٩٨، حرار: ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ص ١٦٧-١٦٨.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٣٠، شوابكة، شعر يحيى، ص ١١١.

ومن الصناعات الأخرى التي عني الشعراء بوصفها، مما يعين على التأقلم مع البيئة الأندلسية صيفاً وشتاءً، المراوح والمذبات والمواقد، وقد بالغ الصنّاع المهرة في تجويدها وتزيينها، ومما قيل على لسان "مروحة" قول ابن هُذَيْل^(١):

حلّ شكلي عن أن أنافس فيه وجمالي يزري بكلّ نفيس
غرّني البدر حين أبدو وجسمي فضّة رُكبت على أبوس

وقال في مذبة أنيقة القص^(٢):

وراقصة أسبلت لُمةً عليها تؤثّق في قصّها
إذا حرّكتها لذبّ يدٌ تغشى الذبابُ على رقصها
فإن رُمّت تُحصي حصانها الحقول في دُفّها

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ولابن بطل في موقد^(٣):

وموقدٍ يقطعُ لكّنه يوقدُه مُضمّرُ أحشائه
كأنه قلبي إذا ما نظى يوقدُه المضمّرُ من دائه

وقد استعمل الأندلسيون السراج والشموع لإنارة منازلهم ليلاً، وفي وصف سراج يقول الرّمادي^(٤):

(١) ابن الككّاني، التشبيهات، ص ٢٣٤ - ٢٣٥، شوابكة، شعر يحيى، ص ٩٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٥، المرجع السابق.

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٤) المصدر السابق، جرّار، ماهر، شعر الرّمادي، ص ٦٤.

أرى سكراتٍ للسمراج كأنه عليلٌ هوى فوق الفراش يهودُ
أراقبُه حتى إذا قلتُ قد قضى تشوبُ إليه نفسه فتعودُ
وأمرضه ضوءُ الصُّباح كأنه يرى في اجتماع الألفين حسودُ

تلك هي بعض الصناعات التي شاعت في الأندلس، ولا تكاد تشكل نقطة في محيطها الواسع، وقد بدا الشعراء مبهورين بإتقان صنعها، ولم يفصلوها عن مشاعرهم وأحاسيسهم المغلفة بالبهجة والترف تارة، وبالحنن والضيق تارة أخرى. ومما لا شك فيه أن السوق الأندلسية وغيرها من الأسواق احتضنت تلك الصناعات ولاقت رواجاً كبيراً، وقد وصف أبي عامر بن شهيد شدة ازدحام الأسواق بقوله^(١):

ومسالكُ الأسواق تشهدُ أنها لا يستقلُ بسالكها المخشُرُ

جميع الحقوق محفوظة

ولم يُعنَ الشعر بالحديث عن أمور التجارة والبيع والشراء لكنه سجل بعض الحكايات التي تجري في الأسواق، وتصور جانباً من نفسية الأندلسيين وحكاياتهم وأنوارهم وعلاقاتهم، ومن ذلك مثلاً "أن ابن شهيد مرَّ بمحانوت بعض معارفه من الطرائفين وبين يديه رамشنة جميلة في زنبيل^(٢) ملآن حرشفاً^(٣)، فجعل يده في لجام دابة ابن شهيد، وقال له: صف هذا يا أبا عامر، فإن صاعداً رام وصف ذلك لابن أبي عامر فلم يأت بشيء غير ذكر الحرشف^(٤)"، فقال ابن شهيد وهو على ظهر دابته^(٥):

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ١٠٥، ابن شهيد، الديوان، ص ١١٠.

(٢) الزنبيل: القفّة. [البدرى، الذخيرة، الحاشية، مج ٤، ص ٢٥].

(٣) الحرشف: يقل من المركبات الأنبوية الزهر، شالك حشن عربى، يسمى في الشام (الأرضي شوكتي أو الإنكار)، وفي مصر (الحرشف). [السابق].

(٤) ابن هشام، الذخيرة، مج ٤، ص ٢٥-٢٦، المقرئ، التفح، ج ٤، ص ٢١٦.

(٥) المصدران السابقان.

هل أبصرت عيناك يا حليلي قنافتاً ثباع في زئبيل
 من خرشف مغمم حليل ذي إبر تنفذ جلد الفيل
 كأنها أنياب بنت الغول لو نحست في است امرئ ثقيل
 لقفزته نحو أرض الثيل ليست ترى طي حشا منديل
 نفل السخيف المائق الجهول وأكل قوم نازحي العقول
 أقسم لا أطعمتها أكيلي ولا طعمتها على شمول

وتؤكد الأبيات السابقة ما سبق ذكره - في غير موضع - من أن الأندلسيين كانوا يميلون إلى الطعام الطيب اللذيذ ، وينفرون من الطعام المؤذي للعين واللسان؛ إذ يفقدون الإحساس بالمتعة واللذة.

ومن الإشارات الشعرية الطريفة لبعض ما يجري في الأسواق قول عيسى بن مجمل في قوم

زاروه في دكانه ومنعوه من معيشته^(١): جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الجامعة الاردنية

ويمكم ويمكم أهيكل لو يخلع الوسيل إن يستعمل في الناس نوحى
 خففوا في جلوسكم لا تطيلوا ليس دكاننا جناح شريح

وجدير بالذكر - بعد هذا العرض - أن الشعر لم يكن وثيقة تاريخية يستشهد بها في هذا الباب، إلا أن الشاعر الأندلسي المشغوف بالجمال والمستغرق في البحث عن المتع سجل - عن غير قصد - بعض ملامح النشاط الزراعي والصناعي، وغابت الإشارات إلى النشاط التجاري - في المصادر التي اطلعت عليها - إلا إذا التقت بالتحجيرة الجمالية الحسية بشكل مباشر أو غير مباشر.

(١) الحميدي، الجفوة، ص ٢٠٢. وذكر الحميدي في ترجمة الشاعر (ص ٣٠١) أنه كان أديباً شاعراً من أهل قرطبة مشهوراً.

الفصل الرابع

جميع الحقوق محفوظة
الدراسة الفنية
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

يتناول هذا الفصل دراسة القصائد والمقطوعات الشعرية التي عرضت لموضوع الحضارة الأموية في الأندلس من حيث: الأغراض الشعرية، والمضامين، واللغة والأسلوب، والصورة الشعرية، والإيقاع، ويناقش من خلالها أثر الشعر المشرقي في الشعر الأندلسي، وملامح أندلسية الشعر الذي تناول الحضارة الأموية في عصرها الذهبي.

أولاً - الأغراض الشعرية:

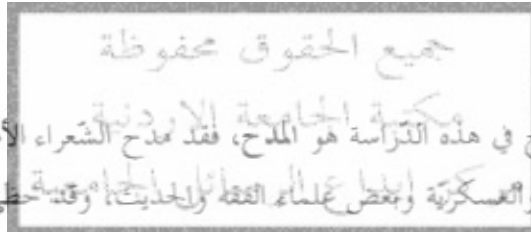
كان غرض الوصف الغرض الأكثر شيوعاً في المقطوعات القصائد الشعرية التي مرت بنا في هذه الدراسة؛ إذ وصف الشعراء الأندلسيون في العصر الأموي الكثير من المظاهر الحضارية من حولهم، وجاء الاهتمام بـ "الوصف" امتداداً للركن الرابع من أركان الشعر الجيد، ففي العصور الوسطى كان التقاد والجمهور معاً يعنون الوصف قنلاً لا يلفه سوى الجاهل^(١). وكان الشعراء الأمويون والعباسيون والأندلسيون يواصلون معالجة الوصف ويطورونه - وهذا مهم جداً - بعيداً عن الخصائص الجاهلية، وحسبما تطورت إليه حياتهم الخاصة. وكان الشعراء يصفون كل ما بدر لهم، يدفعهم حافظ التفوق في ذلك التمث بوصفه منحى رئيسياً من مناحي الشعر في زمانهم^(٢).

وجاء الوصف في الكثير من القصائد والمقطوعات مباشراً فيه تكلف وافتعال، مثل الشعر الذي دار على ألسنة الشعراء في وصف العلماء والمخترعات والمبتكرات والشعر التعليمي، والشعر المتصل بذكر بعض الحوادث التاريخية المهمة، ووصف بعض العادات والتقاليد المتصلة باللباس والزينة والطعام والشراب، عدا بعض المقطوعات الشعرية المتصلة بالرياضات الجسدية والذهنية، ولكن هذا الشعر وإن كان أقل منزلة في مستواه الفني من سائر الأغراض إلا أنه "يصور جانباً مهماً من جوانب الحضارة

(١) الجيوسي، سلمي الحضارة الشعر الأندلسي/ العصر الذهبي، ترجمة: عبد الواحد لولوة، في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، الجيوسي، ج ١، ص ٥٣٧.

الأندلسية، ويسلط الضوء على بعض النشاطات الإبداعية التي ندر أن نقع على معلومات شافية عنها في المصادر المختلفة".^(١)

أمّا إبداع الشعراء في هذا الغرض الشعري فقد تجلّى في المقطوعات التي تناولت وصف الفنون خاصة، ولا سيّما العمارة وما يتصل بها من وصف للبرك والبساتين والتوافير والتناورات والتمائيل، وبعض المقطوعات الشعرية في وصف جمال المرأة الحسي ومجالس الخمر والصيد والطرّد، إذ كشفت تلك المقطوعات عن وعي حقيقي بالتجربة الجمالية، وبدا الشاعر - ما لم يقف أمام أمير أو خليفة - مستحرراً من مبدأ التفعيّة ومن القيود الاجتماعية والأخلاقية، ومأسوراً بكلّ ما هو جميل، ولا أبالغ إذا قلت: إنّ مثل تلك المقطوعات يمكن اعتبارها التواة الأولى لنظرية "الفن لأجل الفن"؛ إذ إنّ الشاعر لا يريد متعة تسمو متعة الشعور بالجمال في هذا اللون من الوصف، فبدا في مقطوعاته متوهجاً مرثياً معلناً عن نفسه بهدوء ووضوح.



والغرض الثاني الواضح في هذه الدراسة هو المدح، فقد مدح الشعراء الأمراء والخلفاء وبعض أصحاب المناصب السياسية والعسكرية وبعض علماء الفقه والحديث، وقد حظي الأمير عبد الرحمن الأوسط وابنه الأمير محمد والخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر بأوفر نصيب من المدح، وتردّدت أسماءهم على ألسنة الشعراء في مختلف الموضوعات الشعرية المتصلة بالحضارة، ولعلّ من أهم أسباب ذلك أنّ الأندلس شهدت لحظة حضارية متميزة في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، وسار الأمير محمد سيرة أبيه في الاهتمام بمختلف جوانب الحضارة التي بلغت أوجها في عهد الخليفة الناصر والحكم المستنصر من بعده، بل إنّ هؤلاء الحكّام لم يكونوا رعاة للحضارة فحسب، إنّما كانوا هم أنفسهم يمثلون نماذج حضارية في الحكم والمعرفة تستحقّ البحث والدراسة.

ومن الأغراض الشعرية المتصلة بغرض المدح غرض الهجاء، وإن كان الهجاء - في حقيقة الأمر - لا يمكن أن يكون بعداً حضارياً، إلّا أنّه من خلال هذا الغرض الشعري أمكن الوقوف على بعض المنجزات الحضارية الأندلسية في العصر الأموي، ومن ذلك - مثلاً - ما ورد على لسان مؤمن بن

(١) جرّار، صلاح، عباس بن فرناس شاعراً، ص ١١٠.

سعيد في هجاء عباس بن فرناس وزرياب ؛ إذ أمكن تعرّف بعض الجوانب العلميّة والابتكارات من خلال التقد اللاذع وسخرية الشعراء من العلماء.

والغرض الشعريّ الرابع في المقطوعات والقصائد الشعريّة التي مرّت بنا هو الغزل، وقد بنا الشاعر الأندلسيّ بالغ الرقة والعذوبة في مخاطبة المرأة والتغزل بحاسنها وملاطفتها ومعابقتها، متأثراً بخصوصيّة بيئته الغنية في طبيعتها، والمتنوعة في نسيجها الاجتماعيّ، وتكشف المقطوعات التي مرّت بنا عن ذوق رفيع وانكسار شفيف لا يتنافى والرجولة، وقد سبق الأمراء والخلفاء - وهم أهل عزّة وسلطان - الشعراء إلى التحلّي بمثل هذه الصفات التي شكّلت - فيما بعد - نواة أدب الفروسية الذي شاع في أوروبا في العصور الوسطى.^(١)

كما ظهرت بعض الأغراض الشعريّة الأخرى مثل الفخر، ومن ذلك فخر ابن حزم بعلمه وأندلسيّته، والشكوى والعتاب، وأكثرها دار هذا الغرض على ألسنة العلماء والشعراء الذين شعروا بالغين وقلة التقدير مثل عبد الملك بن حبيب السلمي وابن حزم وأبي عامر بن شهيد، وغرض الرثاء، مثل رثاء أبي عامر بن شهيد نفسه، ورثاء المنصور بن أبي عامر الجامعية

وهكذا، فإنّ القصائد والمقطوعات الشعريّة التي تناولت معالم الحضارة الأندلسيّة في العصر الأمويّ لم تخرج عن الأغراض التقليديّة للشعر العربيّ إلّا نادراً.

(١) يرى فون شك أنّ مسأ من الفروسية قد تسرّب إلى الشعر الأندلسي، "وأعطى حياة للمسلمين في إسبانيا طابعاً خاصاً، وملامح متميّزة، لأنّ سماء الغرب أضفت على القصيدة العربيّة - فوق تراثها وفخامتها الشرقيّة - رقة أكبر، وأسلوباً أشدّ وضوحاً، وقربتها إلى ذوقنا ومشاعرنا". شك، فون، الشعر الأندلسي، ص ٩٣، فيما تذهب زيفرند هونكه إلى أنّ الغرب هم الذين تأثروا بفروسية العرب، وأخذوها عنهم. انظر: هونكه، زيفرند، خمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٦٧، ترجمة: فاروق ييغون وكمال دسوقي، مراجعة: مارون الخوري، الطبعة السادسة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

ثانياً - المضامين الشعريّة:

كشفت المضامين الشعريّة التي تناولت جوانب من حضارة الأندلسيّين في العصر الأمويّ عن عدد من الصفات الحضاريّة التي تمتع بها الأندلسيّ في ظلّ تلك الحضارة، ومن أبرزها رفعة الذّوق الذي كان واحداً من أهمّ السمات الحضاريّة التي برزت في القصائد والمقطوعات الشعريّة في هذه الدّراسة؛ إذ طغى إحساس الأندلسيّ بالذّوق والأناقة في اختياره للباسه وزينته، وطعامه وشرابه، وهداياه، وعمارته وزخارفه وموسيقاه، وصناعاته المختلفة، ولم يكن الذّوق سمة فردية، إنّما سادت هذه السّمة الحضاريّة في أنظمة الدّولة السياسيّة والعسكريّة، ولا سيّما ما يتعلّق منها بنظام التّشريفات.

كما خلّفت البيئة الأندلسيّة في نفوس أهلها ثقافة وتذهيباً في المتاع والطعام، وجعلتهم شديدي الحساسيّة في تفاعلهم مع الحياة من حولهم، وقد انعكست هذه السّمة الحضاريّة في بعض جوانب من حضارة الأمويّين في الأندلس، ولا سيّما في علاقاتهم الاجتماعيّة ومجالسهم ورياضاتهم، وإحساسهم بالطّبيعة من حولهم برياضها وبساتينها وأشجارها وأزهارها وطيورها ومياهها، وطبعت هذه السّمة أغلب الشّعريّ الذي وصل إلينا - في وصف معالم الحضارة - بطابعها.

وبدا الأندلسيّ صاحب هذه الحضارة شديد التعلّق بالحياة والولع بها، وشغلت الدّنيا الشّعراء وشغلواهم، وكان الحديث عن الفناء أو الموت يثير في نفوسهم الحزن والألم، ولكنّ ذلك لم يكن هو الوجه الوحيد لحياتهم، فمن الشّعراء - ولا سيّما أهل الفقه والعلم - من زهد في الدّنيا وزهّدها إلى الناس.

وكان لتعلّقهم هذا بالحياة ومباهجها أثر في ميلهم إلى الدّعابة والفكاهة والمزاح في مجالسهم، وحرصوا في مزاحهم على عدم إيذاء مشاعر الآخرين، فجاءت دعاياتهم خفيفة ومسليّة وقريبة إلى

النفس، وإذا صدف أن أخرجت دعابة شخصاً ما أو جرحته فإن صاحبها سرعان ما يعتذر إليه ويسري عنه ويصله بما يزيل أثرها السيئ من نفسه.

وكانت الدعوة إلى التحرر من القيود - بمختلف أشكالها - من أكثر المضامين التي دارت على ألسنة الشعراء، وهذا أمر بديهي لإنسان مسكون بالحياة وراغب بالاستمتاع بها حتى الرّمق الأخير، إلا أن هذا لا يعني أن الأندلسيين تخطوا كل القوانين والأعراف والحواسز والتقاليد، ولكنهم أيضاً لم يتركوها تسيطر عليهم، وتنغص عليهم متعمهم ومباهجهم. وقد ساعدت هذه النزعة - التي جاءت وليدة التسيج الاجتماعي المختلط - الأندلسيين في الانفتاح على الآخر الذي يعيش معه على أرض واحدة وتقبله مهما بدا مختلفاً، ونجحت الحضارة الأندلسية في العصر الأموي - بإنسانها المتحرر هذا - في استيعاب الحضارات السابقة لها وهضمها، كما بدت أكثر ترحيباً بأهل المشرق من ترحيب أهل المشرق بها.

جميع الحقوق محفوظة

كما كان مبدأ التسامح من السمات الحضارية المميزة عند الأندلسيين في ذلك العصر، فمن تسامح بين عامة المسلمين وفتنائهم وعلماهم، إلى تسامح بين المسلمين والتصارى واليهود في علاقاتهم ومعاملاتهم، وتسامح في العلاقات الأسرية والأخوية خاصة وفي العلاقات الاجتماعية عامة، وفي الفكر والإبداع والفن، ولم تتعد السياسة كثيراً عنه ما لم يهدد ملك الأمويين وعرشهم. ومع بروز نزعة انتماء الأندلسيين لحضارتهم وأندلسيتهم - ولا سيما في القرن الرابع الهجري - إلا أنهم لم يظهروا فيما بين أيدينا من نصوص شعرية أي تعصب لها ضد الشعوب أو الحضارات الأخرى.

وتشير بعض النصوص الشعرية التي تناولت الحضارة الأندلسية في العصر الأموي إلى نزعة حضارية مهمة هي الأدب في الحوار بين مختلف فئات المجتمع وطبقاته عموماً، ولم تمنع النزعة إلى الحرية وسيادة التسامح بين أفراد المجتمع من المحافظة على الأدب في مخاطبة السلطان أو أهل العلم أو النساء أو الأصداق، وقليلة هي النصوص الشعرية التي تخرج على ذلك، وغالباً ما تكون بدافع الغيرة أو الحسد من بعض الأشخاص التاجحين كما فعل مؤمن بن سعيد بزرياب وعبّاس بن فرناس، أو سوء الفهم للآخر كما فعل بعض الشعراء بعلماء الفلك والتنجيم.

وقد فطر الأندلسيون على حبّ التّغيير والتّجديد، وأولع بكلّ غريب ومبتكر، ولعلّ ذلك من أهمّ أسباب دفع الحضارة الأندلسيّة إلى القمة في مدّة زمنيّة يسيرة، ولكنّ تلك الرّغبة كانت تحتكم إلى الذّوق والجمال، ولم تلقِ القلبيّ جانباً، لكنّها أيضاً لم تنظر إليه نظرة تقديس وتبجيل.

كما مال الأندلسيون في حياتهم وإبداعهم إلى البعد عن التّكلّف والتّعقيد عموماً، فلم يلجوا في أمور فكريّة أو اجتماعيّة معقّدة تأخذ منهم وقتاً وجهداً، أو تنعّص عليهم طيب العيش، ولعلّ هذه التّزعة من أهمّ الأسباب الّتي أبعدتهم عن الدّخول في الجدل الفقهيّ والعقديّ الّذي شغل به أهل المشرق، وساعدت في إخماد أيّ حركة مذهبيّة مناهضة للمذهب المالكيّ في مهبها، وحتىّ ابن حزم - في أفكاره وآرائه العقديّة ومذهب الظّاهر الّذي أخذ به - كان منسجماً مع هذا التّوجّه العامّ لمجتمعهم.

ويلاحظ - من خلال بعض النّصوص الشعريّة الواردة في هذه الدّراسة - أن الأندلسيين شغلوا

ببعض التفاصيل الصّغيرة في حياتهم؛ يسبح الفراغ واتّساع الخلق ولين العيش وهدوء البال.

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ثالثاً - اللغة والأسلوب:

اتّسمت لغة الشّعر الّذي تناول معالم الحضارة الأندلسيّة في العصر الأمويّ بالسهولة والوضوح، وابتعدت عن الغموض والتّعقيد في إطارها العامّ، مع أنّ الشعراء مالوا في ذلك العصر إلى العودة إلى جذور اللغة، وحاولوا جهدهم "الإحاطة بالشّوارد والأوابد والغريب منها، وما حفلت به من مفردات غير مألوفة وقوافٍ نادرة".^(١) وقد كانت سهولة الألفاظ والمعاني في الشّعر من الأمور الّتي يفخر بها

(١) الجيّوسي، الشّعر الأندلسيّ، ج ١، ص ٤٨٥.

الشاعر الأندلسي؛ إذ إن ذلك ينسجم مع تكوينه النفسي والفكري، وفي الإشارة إلى ذلك يقول درود^(١):

تَحَلَّيْتُ بِامْتِدَاحِكَ إِذْ تَحَلَّيْتُ فَمَا تَرَكْتُ لُغَانِيَّةً حُلِيًّا
مَعَانٍ كَالْأَهْلَةِ لَا تَشْكِي دُحَى مِنْهَا وَلَا تُخْشِي خَلِيًّا

وحافظ الأدب الرسمي على أصول اللغة العربية الأم، ولم تفقده علاقاته اللغوية المزدوجة أيًا من الأشكال الصرفية أو الاشتقاقية لها، وهذا ما نلاحظه في النماذج الشعرية الواردة في هذه الدراسة، وهو أمر بديهي، فالعرب في الأندلس لم يقطعوا عن جذورهم المشرقية طوال الحكم الأموي، كما أن التبادل الثقافي بين المشرق والأندلس عزز الثقافة المشرقية في نفوس الأندلسيين، ولا سيما في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وكان لتدريس الشعر العربي المشرقي للطفل الأندلسي المسلم منذ نعومة أظفاره واختزان نماذجها في ذاكرته أثر كبير في تكوين ذائقته الشعرية فيما بعد، كما أن الأندلس لم تعرف أدباً آخر رفيعاً في ذلك العصر، **ويؤرخ في الثقافة المشرقية العربية ويعني بمفرداته وتراكيبه ومعانيه، ويبدو من خلال ما وصل إلينا من شعر ذلك العصر أن الشعراء لا كانوا يكتبون بحذف واضح، لا يدعوا إلى الشعور بوجود محاولة دفاعية من جانبهم للتواكب على توجه ثقافي مختلف أو التنافس مع أدب غير عربي في أي مكان.**^(٢)

ولكن هذا لا يعني أن اللغة العربية الأندلسية لم تتأثر بالازدواج اللغوي، ولم تدخل إليها ألفاظ من اللغة القشتالية المحلية، ولكن شيئاً من الشعر الشعبي في ذلك العصر لم يصل إلينا، ومن المرجح أن آثار الازدواج اللغوي قد ظهرت فيه، إلا أنه من الواضح فيما عرضت له هذه الدراسة من نماذج شعرية أن الأدب الرسمي ظل محافظاً على نقائه اللغوي عموماً، ولم تمر سوى عبارة واحدة إسبانية هي عبارة " شو قول " التي وردت في معرض مداعبة الخليفة التاصر ووزير ابن جهور للوزير أبي القاسم

(١) ابن الكتّاني، التشبيهات، ص ١١٤، وقد اختلف في اسم درود هذا كثيراً. انظر ما أورده إحسان عباس في تراجم شعراء كتاب التشبيهات، ص ٢٨٨.

(٢) الجيوسي، سلمى، شعر الطليعة، ج ١، ص ٤٨١.

لبَّ صاحب اللحية الطويلة^(١)، وبعض الألفاظ المفردة المتعلقة بمجانب مختلفة من خصوصية حضارتهم، مثل بعض الألفاظ المتعلقة بأنواع الطعام الشائعة لديهم، ومن ذلك: تسمية السمك بالحوث، والقرظيل، والسكباج، والتفايا، والجمليات، والقبارة، وبعض الألفاظ المتعلقة بأعياد النصارى ولها دلالتها الخاصة في الأندلس؛ مثل التيروز والمهرجان.

وقد دخلت الألفاظ الحضارية في لغة الشعر؛ فنجد الشعراء في حديثهم عن العمارة - مثلاً - يذكرون الزهراء والزاهرة والرصافة والجوسق التصري ومصنعة الدولاب وقصر ناصح، وبعض أسماء المجالس في القصور، ويشيرون إلى أسماء الآلات الموسيقية في حديثهم عن الموسيقى، مثل: العود، والمزهر، والطنبور، والكيثار، والكثير، والجهارة، والمزمار، ويشيرون إلى مختلف الأسلحة والرايات والتخافيف، ويشيرون إلى ألقاب بعض المناصب التي شاعت في زمنهم، مثل: قاضي القضاة، والحاجب الأعلى، والقائد الأعلى، ويذكرون أسماء بعض الصناعات التي كانت قائمة في عصرهم، مثل: الجلم، والمقص، والكأس، والسكين، والكوز، والختم، والمذبة، والموقد، والمروحة، والسراج، وغيرها.

جميع الحقوق محفوظة

وقد ظلَّ البحث عن المعاني المبكرة لهؤلاء الشعراء الأندلسي في محاولة منه للتفوق على نظيره المشرقي، وقد أشار جمهور شاعر إلى أنه اصحح غير معاني مبتكرة في الشيعي، ومنهم المهتد الذي يقول مفتخراً بتحديدده في المعاني^(٢)،

ودونك أبكــــــــــــــــار المعاني فإني
مهور المعاني في اختراع بديعها
تركت لأهل الشعر كلَّ عنوان
فأخبرتها من دون ذلك زان

وقول الحسن بن حسان^(٣):

(١) انظر الفصل الأول من هذه الدراسة، ص ٧٥.

(٢) ابن الكافي، التشبهات، ص ١١٠.

(٣) للصدر السابق، ص ١١٣.

مِنْ شَاعِرٍ يُزْجِي مَعَانِي فُطْنَةٍ يَنْبُوغُهَا مِنْ ذَهَبِهِ لَا كُنْهٍ
لَوْ صَافَحَتْ فَلَّكَ السَّمَاءُ لَخَالَهَا فَلَّكَ السَّمَاءُ كَوَاكِبًا مِنْ شُهُبِهِ

إلا أن النصوص الشعرية التي تناولت معالم الحضارة تكاد تخلو من المعاني المبتكرة، ومن الإشارات الشعرية النادرة التي قيل عن معناها إنه مبتكر، قول عبادة في الخمر^(١):

فَهَلْ تَرَى أَحْسَنَ مِنْ أَكْثُوسٍ يُقْبَلُ الثَّغَرُ عَلَيْهَا الْيَدَا
يَقُولُ لِلْسَّاقِي: أَغْنِنِي هَا^(٢) وَغُذُّ لِحْيَتَنَا وَأَعِذْ عَسَجَدَا
أَغْرِقْ فِيهَا الْهَمُّ لَكِنْ طَفَا حَبَابُهَا مِنْ فَوْقِهَا مُزْبِدَا
كَأَنَّمَا شَيْبُهَا شَارِبٌ أَمْسَكَهَا فِي كَفِّهِ سَرْمَدَا

وقد علق ابن بسام على البيت الأخير بقوله: "وهذا البيت أراد اختراع معناه".
جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الجامعة الأردنية

وحاءت الكثير من المعلنات الشعرية بديهةً وإبرازاً وتخلو من العنصرية بل تكاد تكون نظماً أكثر منه شعراً، وأكثر تلك المعاني وردت في بعض المقطوعات والنصوص الشعرية التي تتحدث عن العلم والعلماء وأدوات الكتابة، واللباس والزينة، والطعام والشراب، والتنظيم السياسية والإدارية والعسكرية، ومن الأمثلة على ذلك قول الرمادي في وصف القلم^(٣):

قَلَمٌ الْوَزِيرُ كَسِيفِهِ هَذَا يَصُولُ وَذَا يَطُولُ
أَضْحَى كُلُّيْثٍ خَفِئَةٍ وَدَوَائِيهِ لِلْيَيْثِ غِيْلُ

(١) ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ٢٩٤ - ٢٩٥. كما ورد البيت الثاني والرابع في: ابن سعيد، رايات المرزبان، ص ١٣٦.

(٢) في الرايات: أقول للسَّاقِي ابتكر بكراً.

(٣) ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ٢٩٥.

(٤) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٢٢٥، جرّار، ماهر، شعر الرمادي، ص ١٠٢.

وقوله في وصف الخمر^(١):

نُورٌ وَغَيٌّ مُسْبِلٌ وفه رةٌ تُسَلِّسُ
تَلَوْرُ بَيْنَ قَتِيَّةٍ بخلفهم ثم تل
والأفق من سحابةٍ طل ضعف يتزل

وقول ابن عبد ربه في كتب الفلك^(٢):

فأين الزُّجُ والفانور ن والأركن الكمة
وأين السُّنْدُ هُذُ البَا طل الجدول هل تمة؟

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الجامعة الاردنية

مركز أبحاث الرسائل الجامعية

وقد امتاز ابن حزم بأن شعره كان يظهر فيه الكثرة الذهنية في "تشقيق المعاني المتهمة، وركوب

التعبير الخشن"^(٣)، ويعتمد على القياس والمنطق في الكثير من شعره، ومن ذلك قوله^(٤):

وإني وإن تعتبت لأهون هالك كزائف نقيد ذل في يد جهيد
على أن قتلي في هوالك لداذة فيا عجباً من هالك مثلي لذ

(١) اللقي، التلح، ج ٤، ص ٧٤، حرر: ماهر، شعر الرمادي، ص ١٠١.

(٢) القرطبي، فحة الخالص، ج ٣، ص ١١٨، الذاية، ديوان ابن عبد ربه، ص ١٥٨.

(٣) عباس، مقدمة طوق الحمامة، ص ٨٠.

(٤) للصدر السابق، ص ١٥٣.

وبدت الكثير من المعاني الشعريّة - فيما بين أيدينا من نصوص شعريّة - مشتركة بين العديد من الشعراء ومكرّرة ومطروقة؛ سواء أكانوا من المعاصرين أو المتّبعين إلى عهدين متباعدين، ممّا أثر في تكرار الصّور في إطارها العام مهما بدت مختلفة في تفصيلاتها الصّغيرة، كما سنلاحظ عند تناول الصّورة الشعريّة.

وجاء اهتمام الشّاعر الأندلسيّ بزخرفة الألفاظ أكثر من اهتمامه بالمعاني، ولا سيّما في القرن الرابع الهجريّ، وجاءت الزّخارف اللفظيّة شبيهة بالزّخارف الأرسكيّة^(١) الّتي أبدعها التشكيليّ في تداخلها وتجانسها وجمالها، وملحمًا حضاريًا قائمًا بذاته، واستخدموا مختلف المحسّنات البديعيّة من طباق وجناس ومقابلة وتورية وحسن تقسيم وحسن تعليل وغيرها، ومن الأمثلة على ذلك قول المهنّد في القسيّ والتّبال^(٢):

كَأَنَّ عَـوْدَ الْقَسِيّ قَدْ أَخَذَتْ شُبُّهَا مِنْ الْخُودِ فِي حَوَاجِبِهَا
فَعَطَفُهَا عَطَفُهَا وَمَطْلُبُهَا لَهَا حَقْوَةٌ فِي الْقَصْفُورَةِ بِالرُّقْنِ مِنْ مَطَالِبِهَا

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وقول ابن هُدَيْل في العود^(٣):

إِذَا هَبَّتْ أَهْـأَزِيجِي صَبَّتْ لِي قَلْبُوبٌ لَسْنَنٍ مِنْ قَلْبِ الْعَمِيدِ^(٤)
وَلِلْأَوْتَارِ فِي صَوْنِي حَنِينٌ يَهْيِجُ الشُّوقَ فِي نَفْسِ الْعَمِيدِ^(٥)

(١) انظر: غومس، إميليو غرسيه، الشعر الأندلسيّ (بحث في تطوّره وخصائصه)، ص ٢٥، ترجمة: حسين مؤنس، الطّبعة الثّانية، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ١٩٥٦.

(٢) ابن الكتّاني، التشبّهات، ص ١٩٣.

(٣) المصدر السّابق، ص ١٠٨، شوايكة، شعريّ، ص ٨١.

(٤) العميد: للعمود الَّذِي أَحْضَرَهُ الْعَشَق.

(٥) العميد: رئيس القوم.

وقول ابن درّاج في الرّماح^(١):

فَكَأَنَّ حَرْدَ سِنَانِهِ مِنْ بَاسِهِ وَكَأَنَّ صَفْحَةَ سَيْفِهِ مِنْ حِلْمِهِ
فِي هَازِءٍ فِي فَضْلِهِ وَذَكَرَ هَازِءٍ فِي رُوحِهِ، وَمَضَى هَازِءٌ فِي سَهْمِهِ

والأمثلة على ذلك كثيرة.

وقد شاعت المعاني الدّينيّة الإسلاميّة والمسيحيّة في شعر ذلك العصر، وكثرت المعاني الإسلاميّة في الحديث عن الأعياد والعلوم والتّظيم والمراسم، فيما ارتبطت أكثر المعاني المسيحيّة بمجالس الخمر والغزل، ومن المعاني الإسلاميّة ذات الصّلة بالحضارة قول ابن درّاج في السّيف^(٢):

وقد أظفّر الإسلام والسّيف صانم وعُشيت طمأنينة الرّمح نواهلُ
جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
ومما يتّصل منها بالدّيانة المسيحيّة قول الرّماديّ في الخمر^(٣) الرّمح الرّمانيّ الجامعيّة

ألا اشترى رتبتها على التّاقوسِ صِرْفاً فـ _____ ذاك مُؤدّن الدّينِ القديمِ

وشاع في أساليب الشعراء ظاهرة التّناسخ مع القرآن الكريم، ولا سيّما في حديثهم عن العمارة وما يتّصل بها من وصف البساتين والمنتزهات، ومن الأمثلة على ذلك قول عبد الله في الزّاهرة^(٤):

(١) ابن درّاج، الذّبيان، ص ٣٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠.

(٣) ابن الككائي، التشبيهات، ص ٩٣، جرّار، ماهر، شعر الرّماديّ، ص ١٢٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٧١.

محارِبُ لو يندو لبليّيسَ صرْحُها لَمَّا كَشَفَتْ ساقاً لصَرْحِ مُمَرِّدٍ

اقتبس الشاعر معناه من قوله تعالى: (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير)^(١)

ومنها قول قاسم بن محمد المرواني في نارحة^(٢):

يَبْدُو لِعَيْنَيْكَ مِنْهَا مَنْظَرٌ عَجَبُ زَبْرَجَدٌ وَنَضَارٌ صَاغَهُ الْمَطَرُ
كَأَنَّ مُوسَى نَبِيَّ اللَّهِ أَقْبَسَهُ نَاراً، وَحَرَّ عَلَيْهَا كَفَّهُ الْخَضِرُ

وقد أخذ الشاعر معنى الشطر الأول من البيت الثاني من قوله تعالى: (إذ رأى ناراً فقال لأهله امْكثوا إليّ آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بقبس أو أجِدُ على النار هدى)^(٣)

مكتبة الجامعة الاردنية

مركز ايداع الرسائل الجامعية

إلا أنّ الشعراء الأندلسيين في تناصهم هذا "لم يكونوا متأثرين بدعوة الخضوع لله وملكوته في القرآن الكريم، ولم تكن القصائد استجابات شعرية رائعة لعجائب القدرة الإلهية"^(٤) بقدر ما كانت توظيفاً للموروث الذي حفظوه أو حفظوا جزءاً منه منذ صغرهم.

وظهر في بعض المقطوعات الشعرية تناصّ مع الحديث النبوي الشريف، ومن أمثلة ذلك قول ابن حزم في استعطاف محبوب^(٥):

(١) سورة النمل، آية (٤٤).

(٢) للمقري، التفتح، ج ٣، ص ٥٩٣.

(٣) سورة طه، آية (١٠).

(٤) الجبوسي، سلمى، شعر الطبيعة، ص ٥٤٧.

(٥) ابن حزم، طوق الحمامة، رسائل ابن حزم، ص ٢٥٧.

فَإِنْ أَهْلِكَ هَوَى أَهْلِكَ شَهِيداً وَإِنْ تَمُنُّنْ بَقِيَّتُ قَرِيرَ عَيْنٍ
رَوَى هَذَا لَنَا قَوْمٌ ثِقَاتٌ نَأْوَا بِالصَّدْقِ عَنْ جَرَحٍ وَمَيْنٍ^(١)

وهو في الشطر الأول من البيت الأول يشير إلى قوله ع : " من عشق ففقد، فمات، فهو شهيد ".^(٢)

والصورة الثالثة من صور التناص في شعر ذلك العصر المعارضات الشعرية مع الشعر المشرقي؛ إذ عارض شعراء الأندلس شعر فحول الشعراء الجاهليين من أمثال امرئ القيس وقيس بن الخطيم، ومن ذلك قصيدة لأبي عامر بن شهيد يعارض فيها قصيدة " سما لك شوق " لامرئ القيس، ومنها في وصف السيف والرمح^(٣):

وَمَرْقَبِيَّةٌ^(٤) لَا يُبْرِكُ الطَّرِيقُ رَأْسُهَا خَوْقٌ حَنْزَلٌ هَارِجٌ حُ الصَّبَا فَتَحَلَّرُ
إِذَا زَاغَتْ مِنْهَا الْحَبَابُ صَوْبَتْ هِيَ رَوِيًّا عَلَى بُعْدِ الْمَدَى وَهِيَ تَعَارُ
تَكَلَّفَتْهَا وَاللَّيْلُ قَدْ جَاشَ بِحَرِّهِ وَقَدْ جَعَلَ الرِّسَالُ الْجَاهِلِيَّةُ
وَمِنْ تَحْتِ حِصْنِي أَيْضٌ ذُو سِفَاسِقٍ^(٥) وَفِي الْكَفِّ مِنْ عَسَالَةِ الْخَطِّ أَسْمَرُ
هَمَا صَاحِبَا بَايٍ مِنْ لَدُنْ كُنْتُ يَافِعًا مَقِيلَانِ مِنْ جَدِّ الْفَتَى حِينَ يُعْثَرُ
فَذَا جَدُولٌ فِي الْغَمْدِ تُسْقَى بِهِ الْمَنَى وَذَا غُصْنٌ فِي الْكَفِّ يُجَنِّي فَيْثَمُرُ

ولم يكتف ابن شهيد بمعارضة امرئ القيس في البحر والقافية، إنما تأثر بألفاظه الجزلة وأسلوبه الجاهلي في الوصف، وكأنه يعيش حياة بادية لا مدينة مغرقة في الترف ومحاطة بطبيعة خلابة آسرة.

(١) لم يرد هذا الحديث في الكتب الصحاح.

(٢) اللين : الكذب. [ابن منظور، اللسان، مين].

(٣) السَّعَالِي، البيتة، ج ٢، ص ٤٢، الذاية، ديوان ابن شهيد، ص ٧٣. ورد البيت الأول والثالث والسادس في : ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ١٥٤ - ١٥٥، وورد البيت الأول والثالث والرابع في : ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٨١، وورد البيت السادس في : ابن سعيد، الرقيات، ص ١٢٥.

(٤) في البيتة : ومن قبة.

(٥) السِّفَاسِقُ : طرائق السيف التي يقال لها الفرند. [ابن منظور، اللسان، سفسق]. وفي البيتة : شقائق.

ومن أشهر شعراء الأندلس الذين تأثروا بتيار الحداثة هذا منذ القرن الثالث الهجري الغزال
ومؤمن بن سعيد وعباس بن فرناس، وقد انعكس هذا التأثير في أساليبهم ولغتهم، ومن ذلك قول الغزال
في الخمر والشراب مقتفياً أثر أبي نواس^(١):

ولما رأيــتُ الشَّرْبَ أَكَدْتُ سَمَاؤَهُمُ	تَابَعْتُ زَقِيَّ وَاحْتَسَبْتُ غِنَائِي ^(٢)
فلَمَّا أَتَيْتُ الحُــسَّانَ نَادَيْتُ رَبَّهُ	فَنَابَ خَفِيفَ الرُّوحِ نَحْوَ نِدَائِي ^(٣)
قليلَ هجــوعِ العينِ إلَّا نُعْلَةً	على وَجْهِ مَتْنِي وَمِنْ نُظْرَائِي
فَقُلْتُ أَذِقْنِيهَا، فَلَمَّا أَذَاقَهَا	طَرَحْتُ عَلَيْهِ رَيِّطِي ^(٤) وَرِدَائِي
وَقُلْتُ أَعْرَبِي بِذَلَّةٍ أَسْتَرُّهَا	بَذَلْتُ لَهَا فِيهَا طَلَّاقَ نِسَائِي
فواللَّهِ مَا بَرَرْتُ بَعِيَّ وَلَا وَقَفْتُ	لَهُ، غُـمِّيرَ آتِي ضَامِنٌ بِوَفَائِي
فَأَبْسُتُ إِلَى صَـحْبِي وَلَمْ أَكُ أَبَا	فَكَـلُّ يُفْدِينِي وَحَقُّ فِدَائِي

وقد بلغ من شدة تأثر الغزال بأسلوب أبي نواس أنه صنف رجل ناساً للمشرق، وقرأها على جماعة من
أهله صدقوا ادعائه بأن القصيدة لأبي نواس، إلا أنه عادوا واختلفوا في ذلك، فاتهم بها صاحبه، " فأعجبوا بالشعر،
وذهبوا في مدحهم له كل مذهب " ^(٥) أيداع الرسائل الجامعية

ومن الأساليب التي شاعت عند بعض الشعراء الأندلسيين في العصر الأموي استخدام أسلوب
الحوار، وقد تنوعت أنماط الحوار في الشعر المتصل بالحضارة، فمن حوار بين الناس، إلى حوار بين
الكائنات الحية أو الجمادات، أو حوار بين إنسان وكائن حي أو جماد، ومن أمثلة التمثيل الأول في الحوار
قول ابن حزم من حوار بينه وبين طبيب^(٦):

(١) ابن دحية، المطرب، ص ١٤٨، المقرئ، التفتح، ج ٢، ص ٤٣، الناقة، ديوان الغزال، ص ٤٣، وقد وردت الآيات الثلاثة الأولى في:
الحميدى، الجذوة، ص ٢١٢.

(٢) في الجذوة: (وكنت إذا ما الشرب) بدلاً من (ولما رأيت الشرب) و (احتضنت عنائي) بدلاً من (احتسبت غنائي)، وفي
التفتح: واحتسبت عنائي.

(٣) في المطرب: (الحان) بدلاً من (الحان)، و في الجذوة: (أهله) بدلاً من (ربه)، و (فهب) .

(٤) الريغة: اللامعة إذا كانت قطعة واحدة، ولم تكن لفتين، وقيل: كل توبتين دقيق. [ابن منظور، اللسان، ريط].

(٥) ابن دحية، المطرب، ص ١٤٨.

(٦) ابن حزم، طرق الحمامة، ص ٢٤٠ - ٢٤١.

أَرَادَ الْوَرْدُ بِالْأَمْسِ انْتِقاصاً فَقَالَ لَهُ : نَقِصْتُكَ الْمَــــلَــــلُ
 فَقَالَ الْوَرْدُ : لَسْتُ أَزُورُ إِلَّا عَلَى شَــــوْقٍ كَمَا زَارَ الْخَيَالُ
 وَأَنْتَ تُدْتَمُّ تَنْقُــــلاً طَوِيلاً تَدُومُ بِهِ كَمَا رَسَتْ الْجِبَالُ
 فَتَسْأَلُكَ الْعَيُونُ لِمَ لَمْ تُغَضَّ وَتَرْقُبْنِي كَمَا رُقِبَ الْهَلَالُ^(١)

ويبدو الحوار في الأبيات السابقة أقرب إلى المناظرة الشعرية، ويظهر فيه أثر المنطق والقياس والاستدلال، وهذه السمات ترتبط بثقافة الشاعر واهتمامه العلمي والفكري، وقد شاع أسلوب الحوار المبني على المنطق والاستدلال في شعر القرن الرابع الهجري أكثر من غيره.

كما لجأ الشاعر الأندلسي في العصر الأموي إلى استنطاق الجمادات، وإضفاء الحياة عليها، فجاءت بعض المقطوعات الشعرية تتحدث عن آلة أو أداة بليلها، ومن الأمثلة على ذلك قول الغزال^(٢):

جميع الحقوق محفوظة
 مكتبة الجامعة الاردنية
 مركز ايداع الرسائل الجامعية

أَنَا مِثْلُ الْهَلَالِ فِي ظِلِّ النَّفْسِ سَمِعَ سِهَامِي تَنْقُضُ مِثْلَ التَّحْجُومِ
 تَقْصُرُ الْعُضْبُ^(٣) وَالْقَنَا عَنْ بَحَالِي عِنْدَ رَحْمَتِي بِمَا لِكُلِّ رَجِيمِ
 قَدْ كَسَمْتُهَا الطَّيُورُ لَمَّا رَأَتْهَا كَافَ لَهَا بَرْقٌ عَمِيمِ

وقول ابن هذيل على لسان مروحة^(٤):

أَنْــــا فِي الصَّيْفِ رَاحَةً لِلنَّفَوسِ وَشَفَاءٌ مِنْ حَرِّ دَاءِ الرَّسِيسِ^(٥)

(١) ابن سعيد للغرب، ج ١، ص ٢٠٨.

(٢) للقرني، التصح، ج ٢، ص ٢٧٠، ولم ترد في ديوانه المجموع.

(٣) العضب: السيوف الفاطمة. [ابن منظور، اللسان، عضب].

(٤) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٢٣٤ - ٢٣٥، شوابكة، شعر يحيى، ص ٩٤.

(٥) الرسيس: رسيس الحب بقرينه وأثره. [ابن منظور، اللسان، رسس].

أَنـــــــا زَيْنٌ في الكَفِّ سَاعَةً أُجَلِّي ليسَ مثــــلــــي يَحُلُّ كَفَّ الرَّئِيسِ
 حَلَّ شَكْلــــي عَنِ أَنَا فَنَسَ فِيهِ وَجْهــــي يَزُرِّي بِكــــلِّ نَفْسِ
 غُرَّتِي الْبَدْرُ حــــيْنَ أَبْدُو وَجْهِي فَضْطَةٌ رُكِبَتْ عــــلى أَهْنَسِ

ويلاحظ من خلال الأبيات الشعرية السابقة أن القوس والمروحة شديداً الإعجاب بشكليهما، والإحساس بأهمية دورهما، وتبدأ المقطوعتان السابقتان كلتاهما بضمير المتكلم "أنا"، وكان الشعارين تواريا خلف تلك الجمادات ليؤكدوا فخرهما بحضارتهما وتميزها في صناعاتها، وهذه السمة شاعت في العديد من المقطوعات التي تصف السكين أو القلم أو الدواة أو غير ذلك من الأدوات التي تميزت بجمال الشكل خاصة، ولا شك أن لجوء الشاعر إلى هذا اللون من أساليب الوصف يعطي قيمة فنية أعلى للنص الشعري مما لو جردها من هذه الحيوية، ووصفها وصفاً خارجياً لا روح فيه.

جميع الحقوق محفوظة

ومن الأساليب الشعرية الأخرى التي شاعت في الشعر الأندلسي الذي يصف الحضارة الأموية استخدام أسلوب القص، ولا سيما عند بعض شعراء القرن الرابع، ومن أشهرهم: أبو عامر بن شهيد، وابن حزم، وأبو عبد الله محمد بن مسعود، وهذا الأخير له مقطوعات شعرية قصصية طريفة، وقد مرت له أكثر من مقطوعة شعرية قصصية في هذه الدراسة^(١)، ومن قوله أيضاً وقد حلّ رمضان، ولا قوت عنده^(٢):

وزارني زائــــمٌ دأهَمِي مَنْ لَا يُســــمِي إذا يزورُ
 فاجــــمُ أُنِي وَالْحُلُّ صِفْرُ للبردِ في جــــمُوفِهِ صَفِيرُ
 والفــــمُ أُرْيدعو وَحَقُّ صَوْمُ في فــــمِهِ إِذْ خائــــمُ السَّحُورُ
 لُفــــانٌ قَدْ أزمَعَ ارْتــــحالاً لو يــــسْطــــمُ شَيْعُ الشَّقِي يــــسرُ
 الشَّعــــرُ قُوِي وَقُوْتُ فَأَرِي إِذَا ســــمِي قَلْبُهُ الشَّعِيرُ
 فلو تــــرانا به حَيــــارِي والهرُّ في قُبْضــــنا أــــسرُ

(١) انظر: الفصل الأول، ص ٤٢-٤٣ و ص ٦٧.

(٢) ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ٣٥١.

أبصر رثته مُتخناً طريحاً ذا وَبٍ _____ منه يَسْتَطِيرُ
والشَّيْخُ من بين ذا وهذا وهـ _____ هذه خاسي حَسِيرُ
حـ _____ مران من دهشة كأي قَلْبِي^(١) خائنه العَـ _____ دِيرُ

وتبدو القصائد والمقطوعات الشعرية التي عمدت إلى القص ذات لغة موحية، ويكثر فيها الرمز، وتخفي خلف طرافتها نقداً سياسياً واجتماعياً لا دعماً، ولا سيما في قصائد محمد بن مسعود الذي يفهم من خلال قصائده الواردة في هذه الدراسة أنه كان من عوام الشعب، وأن حاله كانت عسيرة، ولعلّ مقطوعاته الشعرية تكاد تكون الوحيدة التي تلقي بعض الضوء على حياة العوام في ذلك العصر، مع أن ابن بسام نفسه لم يكن قد تنبه إلى أهمية مغزى تلك المقطوعات والقصائد، بل إنه اعتذر عن إيراد شعر ابن مسعود هذا بقوله: " وأراد فيما انتحاه، ثقيل منهاج سميّه وكنيّه محمد بن حجاج في العراق، فضاقت ساحته، وقصرت راحته، وأعياه الصريح فمدّق^(٢)، ولم يحسن الصّهيل فنهق. ولما كان هذا المجموع كتاب أدب، وعقد يجمع النثر والمُختلَب، رأيت أن لا أحليه من ذكره، وهذه فصول من نظمه ونثره " ^(٣)

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

رابعاً - الصورة الشعرية :

اعتنى الشعراء الأندلسيون في العصر الأموي بالصورة الشعرية اعتناء مبالغاً فيه في كثير من الأحيان، ومن أهم ملامح اعتنائهم بها أن الشاعر كان يوظف مهارته الشعرية في بناء الصورة الفنية في البيت الواحد كما كان يوظفها في المقطوعة أو القصيدة، وقد تتطلب منه الجهد نفسه. ولعلّ هذا التمسك في البناء الفني للصورة كان من أكبر العوامل المساعدة لجامعي المختارات الشعرية لشعر ذلك العصر في

(١) الفليق : السحفاة. [البديري، الذخيرة، الحاشية، مج ١، ص ٣٥١].

(٢) للذق : لترح والخلط. [ابن منظور، اللسان، مذق].

(٣) ابن بسام، الذخيرة، مج ١، ص ٣٤٣.

اجتزاء ما يرغبون من القصيدة أو المقطوعة الشعرية دون أن يؤدي ذلك إلى خلل في المعنى أو انتقاص من قيمة الشعر الفنية. ومن الأمثلة الشعرية الدالة على ذلك قول أحمد بن فرج في بحث كمثرى^(١):

جُنَيْتٌ مِنَ الْقَضِ	فَأَتَتْكَ كَالْغِ
يَلْبَسُ	مِ مَلَابِسًا غَضُ
مَا بَيْنَ مُحَضْ	عَ وَبَيْنَ مُصَفَّرِ الْأَزَاهِ
وَكَأَنَّ أَصْغَرَ	قُ كَوَاكِبِ فِي عَيْنِ نَاطِرِ
أَوْ مِثْلُ صَفْ	مِ فِي أُكْيَاسِ أَصَاغِرِ
مُتَنَفِّسَاتٍ فِي الْأُنُ	فِ بِمِثْلِ أَنْفَاسِ الْجَاهِرِ
حَ لَوْ ضَمَّائِهَا كَمَا	يَحْلُو الْهَوَى لَكَ فِي الضَّمَامِ
أَوْ مِثْلَمَا تَحْلُو الْقَ	فِي مِ لِسَانِ فَيْكَ شَاكِرِ
وَكَاثِمًا هِ مِ مِنْكَ فِ	حُسْنِ الْمَخَابِرِ وَالْمَنَاطِرِ
وَكَاثِمًا مِ	نِ شُكْرِهَا

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الجامعة الأردنية

ففي الأبيات العشرة السابقة عشرة تشبيهات، يكاد يكون كل واحد منها لوحة مستقلة بذاتها، إلا أن اعتناء الشاعر بمحشد كل هذا العدد من الصور الفنية جاء على حساب المعنى، وبدا ابن فرج كمن يريد استعراض مهارته الشعرية في رسم الصورة فحسب، فجاءت النتيجة أحياناً مفككة في المعنى ولا رابط أو وحدة تجمع بينها سوى موضوع الوصف، ولو حاولنا اجتزاء أي بيت من الأبيات السابقة أو حذف بعضها لما احتل المعنى أبداً.

وقد جاءت الصور الشعرية في أغلبها جزئية في تركيبها؛ إذ يعتمد الشاعر إلى تشبيه جزء من كل بجزء من كل آخر، ومن ذلك قول الرمادي^(٢):

وَكَمَا أَنَّ دُرَّ الْخَدِّ يُكْسِي جَمْرَةَ الْـ يَاقُوتٍ مِنْ نَظَرِ الْعِيُونِ إِلَيْهِ

(١) ابن الككائي، التشبيهات، ص ٨٨ - ٨٩.

(٢) التتالي، البيعة، ج ٢، ص ١٤، ابن الككائي، التشبيهات، ص ١٢٨، حرر: ماهر، شعر الرمادي، ص ١٣٤.

وقول إسماعيل بن بدر في إهداء التوت^(١):

فأهديته غَضًّا حَـ _____ كى حَذَقَ المِها _____ لهُ من _____ ظرُّ بالحُسْنِ منه يروقُ

وقول المهند في وصف الرِّماح^(٢):

كَأَنَّما _____ السَّمَرُ في أَسْتِها _____ نارُ مص _____ ابيحُ يُستضاءُ بها

فالرَّمادي في البيت الأول يأخذ صورة جزئية هي احمرار الخدَّ ليشبَّهها بصورة جزئية أخرى هي احمرار الياقوت، ويشبَّه إسماعيل بن بدر ثمار التوت بعيون المِها، ويتوقَّف المهند عند لمعان الرِّمَح ليشبَّهه بنور المصباح، وهي تشبيهات تتناول أجزاء صغيرة من المشاهد التي يصفها الشعراء، ولا تحتاج إلى إعمال فكر أو سعة خيال؛ إذ إنها متزعة من القواعد المشاهدة، والشواهد على ذلك كثيرة.

مركز أيداع الرسائل الجامعية

ولم تعد المقصائد والمقطوعات الشعرية التي تناولت جوانب من تلك الحضارة صوراً كلية تفصيلية مترابطة في أجزائها، إلا أنها كانت قليلة، ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الخطيب في وصف صيد سرب من القطا^(٣):

على الوَظِيفِ شِمْرَةُ المَهْـوَلِ يَقْبِضُ كَفِّهِ عَلَى مَا يَعْتَلِي
بِمَحَلِّ كَالْخَنَجَرِ المُحَوَّلِ كَأَنَّمَا قَامَتْهُ مِنْ صَدَلِ
مَوْصُولَةٍ بِمِثْلِ أَنْفِ المِنْجَلِ يُبْصِرُ مِنْ فَرْطِ ذِكَا التَّامَلِ
مِنْ تَحْتِ بَطْنِ الحَوْتِ حَبُّ الخُرْدَلِ حَتَّى بَدَا سِرْبُ قَطَا لَمْ يَنْهَلِ

(١) ابن الأثير، الحلق، ج ١، ص ٢٥٦.

(٢) ابن الككائي، التشبيهات، ص ١٩١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٧.

يسعى لزغب في الفلاة غطّل
مُسَوَّياً آخرهم بالأول
أو كان خطاف الأجل المؤجل
فقد عنها درغ ريش مخمل
وأملت لها النفس للتجذّل
بمثله بالشّد والتوغّل
وهي تكاد للعذاب المنزل
فقام كالسهم بكف المرسل
فابتز منهن كل خط المعجل
كذرية ذات شفاه أنجل
ونخل بالتفصيل كل مفصل
فجئته وهو بها لم ينزل
قصادة وصيده "...." يحتل
توكل دون الشيء للترهل

فالشاعر في الأبيات السابقة يرسم لوحة فنية متكاملة العناصر من خلال مشهد صيد سرب من القطا، إذ يفتتح المشهد بوصف الصقر وصفاً دقيقاً مفصلاً، ويقف على أهم ما في تكوينه الجسدي المطلوب ليكون قادراً على صيد فريسته، فالمخالب حادة كالخنجر تسهل التقاط الفريسة، والقامة مشدودة كحذع الصنبل تمكنه من الانقضاض عليها بشرعة وقوة، والأنف مقوس كالمنجل لحمل الصيد، والعيون قوية لامعة حادّ بصرها ترى بها الفريسة من أعالي السماء، ويبدأ الشاعر المشهد والصقر هادئ هدوء المترقب المتحفّز، ثم تتصاعد الحراكة، وتزداد التفاصيل رواياتاً وتنبؤات، لينتهي بومضة سريعة لامعة من عين الصقر.

وحين تكتمل اللوحة الأولى عند هذا الحدّ يدخل سرب القطا في بداية المشهد الثاني، وما يكاد الصقر يراه حتّى ينقضّ عليه انقضاضاً سريعاً كالسهم، ويتمكّن من صرعه في لحظات قليلة، وهنا يتباطأ الشاعر في استكمال المشهد ليقف وقوفاً بطيئاً مسهباً على وصف الفريسة بين مخالب صائدها ينتف عنها ريشها، وهي تنازع الموت بين يديه، وقبل أن تصل الفريسة إلى قدرها المحتوم يدخل الشاعر في المشهد ليحدها تكاد توكل دون شيء لشدة ما نزل بها من العذاب بين مخالب الصقر.

إلا أن هذا اللون من الصّور الشعريّة قليل في الشّعر الأندلسي المتعلّق بوصف جوانب من تلك الحضارة، ولعلّ من أهم أسباب ذلك أن أغلب هؤلاء الشعراء يميلون إلى البساطة والبعد عن التعقيد، لا في الأفكار والألفاظ والمعاني وحدها، إنّما في الصّورة كذلك، عدا أن نزوعهم الفطريّ إلى الاستمتاع

عللّات الحياة ومتعتها قدر المستطاع - وكأنهم يخشون تفلّتها من بين أيديهم - فوّت عليهم فرصة التأمّل في تفاصيل الحياة العميقة من حولهم، وحركتهم الدائبة العجولة لا تناسبها الصّور الكلية التفصيليّة التي تحتاج إلى صبر ودأب شديدين حتّى تكتمل ملامحها.

وقد يلجأ بعض الشعراء إلى رسم صور جزئيّة متلاحقة حتّى يكتمل المشهد في صورة كلية واحدة، والفرق بين هذه الصّورة الكلية التي تعتمد على الجزئيات للوصول إلى الكلّيات وبين الصّورة الكلية أنّ الأولى منهما تفتقر إلى الرّابط الحقيقي والوحدة التّفسيّة بين أجزائها، أمّا الصّورة الثّانية فتكاد تكون لحمة واحدة، وحتّى لو استطعنا حذف بيت أو أكثر دون إخلال بالمعنى فإنّ ما تبقى من أبياتها يرسم لوحة ناقصة مشوّهة على نحو ما، ولعلّ هذا من الأسباب التي دفعت ابن الكّثاني صاحب كتاب التّشبيهات إلى إيراد مقطوعة ابن الخطيب في وصف مشهد الصّيد كاملة، مع أنّه يميل في معظم الأحيان إلى إيراد المقطوعات التي تراوح بين بيتين وستّة أبيات في الغالب، وأظنّ أنّ ابن الكّثاني كان حريصاً على تقديم فنّ التّشبيه عند شعراء عصره كما يفهم من عنوان الكتاب؛ ممّا يعني أنّ اعتناؤه في إيراد المختارات انصبّ على الصّورة دون غيرها، وقد استوعب المؤلّف نزعة الشعراء وميلهم إلى الصّور الجزئيّة، فجاءت أغلب المقطوعات قصيرة تشبيهاً.

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ومن الأمثلة الشعريّة على تكوين الصّورة الكلية من خلال صور جزئيّة قول الجزيريّ من قصيدة

في وصف مجلس للمنصور بن أبي عامر^(١):

وتوسّطتها لُـ	سجّة في فَعْرِها	بنتُ السّلاح	ف ما تزال تُنقِنُ
تنسابُ مِـ	فكّي هزّير هادر إن يكن	ثبّت الجنـ	إن فإنّ فاهُ أحرقُ
صاغـوه مِن	نَدُّ وحلّق صفحي	أديه مَحْضُ الدّرّ فهو	مُطَوّق
للياسـ	ين تطلّع في عرشه	مل الملك عراه زهو	مُطرّق
ونضـ	ائد من نرجس وينفسج	وحنيّ حـ	يريّ وورد يعقبُ
ترنو بسحـ	ر عيونها وتكاد من	طرب إليك بلا لـ	س أن تُنطقُ
وعلى يـ	يمينك سوسنات أطلعت	زهر الرّبيع فهنّ حُسننا تُشـ	رقُ

(١) القرّي، الفتح، ج ١، ص ٥٣٠.

التي تبدأ بهذه الأداة، ومن ذلك - على سبيل المثال لا الحصر - قول طاهر بن محمد في وصف بعض الكواكب والنجوم^(١):

كَأَنَّ كَوَاكِبَ الْجُوزَاءِ شَرِبَتْ	تَعَاظِيهِمْ وَلَا تَهْمُ شَرَابَا
كَأَنَّ الْفَرْقَدِينَ ذَوَا عَتَابٍ	أَجَالَا ط_____وَلْ لِيْلِهِمَا الْعِتَابَا
كَأَنَّ الْمَشْتَرِي لَمَّا تَعَالَى	طَلِيعَةُ عَسْكَرٍ خَتَسُوا ارْتَقَا
كَأَنَّ الْأَحْمَرَ الْمَرِيءَ مَغْضٍ	عَلَى حَتَّى يَشْتَبِ بِهٍ شِهَابَا

ولعل الإكثار من استخدام هذه الأداة في وصف معالم الحضارة سببه ما تمتع به الشاعر الأندلسي في ذلك العصر من الميل إلى الدعة والفتور في تأمل الحياة من حوله، وأداة التشبيه هذه تناسب مثل هذا الميل، وتعطي للشاعر مساحة أوسع في إعمال خياله في وصف التجربة الجمالية الماثلة أمامه.

جميع الحقوق محفوظة

ومع أن الشعراء اشتركوا في الكثير من المعاني المتكررة، إلا أنهم بدافع التفوق على غيرهم من الشعراء الأندلسيين والمشاركين، حاولوا التجديد في رسم الصورة، وإلا تكرر المعاني التي تدور حول تشبيه الخمرة والسقاة - مثلاً - بالشموس والأقمار، إلا أن مروان بن عبد الرحمن الطليق جاء بصورة جديدة لاقت استحساناً عند بعض من نقلوا له هذه المقطوعة الشعرية، ومنها قوله في ندم يساقيه الخمر^(٢):

أَصْبَحْتُ شَمْساً وَفَوْهُ مَغْرِباً	وَيَدُ السَّاقِ فِي الْحَيِّ مَشْرِقاً
فَإِذَا مَا غَرَبْتُ فِي كَفِّهِ	تَرَكَتْ فِي الْخَدِّ مِنْهُ شَقَقاً

(١) ابن الكائني، التشبيهات، ص ٣٠.

(٢) السَّعَالِيُّ، البسمة، ج ٢، ص ٧٠ (وهي منسوبة فيه للقرشي المعروف بالفرج)، ابن الكائني، التشبيهات، ص ١٠٣، ابن هشام، الذخيرة، مع ١، ص ٣٥٤، ابن دحية، للطرب، ٧٢، ابن الأثير، الخلة، ج ١، ص ٢٢٣، ابن سعيد، ربايات الموزنين، ص ١١٤.

ويلتقي محمد بن أبي الحسين وابن بطّال عند تشبيه سوانف الشعر بالعقارب، إذ يقول الأول منهما^(١):

بَنَفْسِي عَقْرِي بِأَنْ بَصَحَ خَدُّ
بُخْمَرِ جَفُونِهِ مَتْنَادِمِ أَنْ

إِذَا التَّقِيَا تَرَىٰ هُمَا عَنَاقِ
كَ أَنْ لَفُوقَهُ يَتَوَادَعَانِ

ويقول الآخر^(٢):

ترنو لوا حظلنا لتقطع _____ ف وردّه
فتدبُ عقربهُ فتلس _____ مع مَنْ رنا
فكانَ عَقْرَبٌ صُدَّغَهُ فِي حَدِّهِ _____ دَبَّتْ لَتَمَنَّا
عَ وَرَدَهُ أَن يُجَتِّنِي _____

إِلَّا أَنَّ كَلَامَ مَنْ الطَّاعِرِينَ فِي الْأَعْيَانِ الشَّيْئَةِ مَحَاطٌ وَنُصْبٌ خَصُورَةٌ مُخْتَلِفَةٌ عَنِ الْآخَرِ، فَفِي حِينِ جَاءَتْ الصُّورَةُ عِنْدَ ابْنِ أَبِي الْحُسَيْنِ رَقِيقَةٌ هَادِيَةٌ تَذَكُّرٌ بِشَهْدِ حَمِيمِينَ بِتَوَادُّعَانِ عِنْدَ الْفِرَاقِ، جَاءَتْ صُورَةُ ابْنِ بَطَّالٍ مُسْتَمْلَةٌ مِنْ طَبِيعَةِ الْعُقُوبِ الْإِلَاسِعَةِ الْمُسَيِّبَةِ لِلْأَذَى، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ تَخْرُجِ الصُّورَةُ فِي بَعْدِ مِنْ أُبْعَادِهَا عَنِ الرِّقَّةِ الْمَعْهُودَةِ عِنْدَ الشُّعْرَاءِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ، فَلِأَذَى مَبَاحٍ فِي هَذَا السِّيَاقِ لِمَنْعِ الْعَابِثِينَ مِنْ قُطْفِ جَمَالِ وَجْهِهِ الْمُرْصُوفِ بِالْحَظَاهِمِ.

ويلتقي شاعران آخران عند انتشار طيب رائحة الخيري في الليل، إلا أن كلاّ منهما يسير في بناء صورته القائمة على هذا المعنى بطريقة مختلفة؛ إذ يقول أبو محمد عبد الله المرواني في ذلك^(٣):

عَجَبْتُ مِنْ الْخَوِيِّ يَكُمُ عَرَفُهُ
فَتَحَنَّنِي عَرُوسُ الطَّيِّبِ مِنْهُ يَدُ الدَّجَى
نَهَاراً وَيَسُرُّ رِي بِالظَّلَامِ فَيُعْرِبُ
وَيَبْدُو لَهُ وَجْهُ الصَّبَاحِ فَيُحِجُّ

(١) ابن الكثير في التبيينات، ص ١٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٦.

(7) القرني، النسخ، ج ٤، ص ١٢٧.

ويأتي لبّ بن عبيد الله بصورة أكثر طرافة في قوله^(١):

وكأنا الخيريُّ إن أبدى التَّرجيُّ أسرارُهُ عَنْ نَشْرِ مسكٍ أذفرا
لـ صُ يراني في التَّهَارَ زهادهُ عـ وقفاً، ويقطعُ ليلُهُ مُتَشَطِّرا

ألا أن بعض الصور الشعريّة لم تتكرّر في الشعر الذي وصف جوانب من تلك الحضارة، ومن ذلك صورة الشَّيب عند ابن عبد ربّه في قوله^(٢):

إذا نُصِبَ لـ الخضابُ بكى عليه ويضحـ كُ كلِّما وصَلَّ الخضابا
كأنَّ حمـ امةً بيضاءَ ظَلَّتْ تقابلُ في مفارقة غـ رابا

وقول عليّ بن أبي الحسين في وصف الرِّمَّاحِ والقَتْلَى^(٣):
جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
وكـ أن الرِّمَّاحَ طيرٌ تَرى اليدَ في غـ في منهل الأوداج^(٤)
وكأن الصَّرعى تشـ اوى مُدام في غـ حُمُرٍ مِنَ الدِّيَاجِ^(٥)

وقد أقام الشعراء بعض صورهم الشعريّة على عنصر المفارقة، ومن أمثلة ذلك قول إسماعيل ابن بدر^(٦):

ما حـ رَّ إبريقَهُمْ لكاسِهِمْ إلّا صبا جمعهمهم وإن حَلَمُوا
كأنه ناطقٌ بحـ اجته سرّاً وإن كـ أن شائهُ البَكَمُ

(١) ابن الأثير، الحلة، ج ١، ص ٢٣٢.

(٢) ابن عبد ربّه، العقد، ج ٢، ص ٣٤٨، ابن الككائي، التّشبيهات، ص ٢٥٥، التّكّي، ديوان ابن عبد ربّه، ص ٢٥.

(٣) ابن الككائي، التّشبيهات، ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٤) الأوداج: عروق تكثف الحلقوم، [ابن منظور، اللسان، ودج].

(٥) التّحاج: جمع نخ، وهو البساط. [للمصدر السابق، نخ].

(٦) ابن الككائي، التّشبيهات، ص ٩٨.

وقول ابن هذيل في وصف الماء المندفِع من أفواه أسود الزّاهرة^(١):

كَأَنَّ حَرِيرَ الْمَاءِ مِنْ لَهَوَاتِهَا تَبْشُرُ دُرّاً ذَابَ لَوْ يَتَجَمَّعُ

وقوله^(٢):

مَقْصُودٌ كَأَنَّ سَهْمَ الْعَيْنِ أَطْرَافُهَا فِي يَدَيَّ مُخْتَرِمٌ
تَصَوَّرْتُ فِي يَدَيَّ مَنْ أَحَبُّ " لا، لا " إِذَا مَا سَأَلْتُ نَعَمْ

فإفشاء الأسرار يأتي من الأبكم الذي لا يستطيع نطقاً، والدّر الذي يفترض أن يشكّل عقداً جميلاً سينوب لو تجمّع، والمقصود في يد الخبّوب يجب دعوة " نعم " بـ " لا"، ومثل هذه المفارقات وإن لم تكن كثيرة - فيما بين أيدينا من نصوص شعريّة الخليليّة - تطغى وطرافة على تركيب الصّورة.

مكتبة الجامعة الأردنية
مركز أبحاث الرسائل الجامعية

وقد أدّى ولع الشعراء الأندلسيّين في ذلك العصر ببناء الصّورة الشعريّة إلى أن يكون كلّ شيء في الحياة حولهم صالحاً لأن يكون " مادةً للقرنّ في أيديهم " ^(٣)، ولكنّ هذا الولع دفع بعضهم إلى المبالغة في صورههم الشعريّة أو الجمع بين المتباعدات، وجاء الاعتناء بزخرفة الصّورة ونحت تفاصيلها على حساب المعنى أحياناً، وقد يؤدي ذلك أحياناً إلى أن تكون الصّورة في بيت من الأبيات ذات بناء ضعيف، وتكون موفّقة في البيت الذي يليه، ومن أمثلة ذلك قول جعفر المصحفيّ في الحمر^(٤):

(١) ابن الكّثاني، التشبيهات، ص ٧٨، شوابكة، شعر يحيى، ص ٩٦.

(٢) للصدر السّابق، ص ٢٣٢-٢٣٣، للرجع السّابق، ص ١١٨-١١٩.

(٣) بالنتي، تاريخ الفكر الأندلسيّ، ص ٤٦.

(٤) النّعلالي، البيّمة، ج ١، ص ٣٦١-٣٦٢، ابن الكّثاني، التشبيهات، ص ٩١، ابن خاقان، المطمّح، ص ١٥٨، ابن عدّاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٥٥، (وهي فيه ثلاثة أبيات)، ابن الأثير، الخلق، ج ١، ص ٢٦٣، للقرني، النّفح، ج ١، ص ٥٩٤.

صفراء تُطْرَق في الرَّجَاحِ فَإِنْ سَرَتْ في الجَسْمِ دَبَّتْ مِثْلَ صَلٍّ لَادَغٍ^(١)
خَفِيتْ عَلَى شَرَابِهَا فَكَأَنَّمَا يَمْدُون رِيًّا مِنْ إِنَاءٍ فَارِغٍ

وقد علق النُّعَالِيُّ الَّذِي أورد هذين البيتين في يتيمة الدَّهْر بقوله : " لم يحسن في تشبيه الخمر في جسم شاربها بدبيب الحية اللادغة، وقد أحسن في البيت الَّذِي يليه جداً " ^(٢).

ويلاحظ عند دراسة الصُّورة الشعريَّة أثر التكوين العربي الإسلامي للأندلسيين في بناء صورهم الشعريَّة، وكانت صورة الجنة القرآنيَّة من أكثر تلك الصُّور وضوحاً، ولا سيَّما في وصفهم للقصور والمنسزَّهات والبساتين، ولعلَّ ما دفع الشعراء إلى الإكثار من ذلك - عدا استقرار النصِّ القرآنيِّ في أذهانهم منذ الصَّغر - شعور باطن بالفقد مرَّتين؛ الأولى الفقد البشريَّ للجنة السَّماويَّة، والثَّانية تعلقهم بالمشرك من عاش فيه منهم أولاً، ومن تربط جذوره أولاً، حتَّى تحوَّل المشرك في الذَّاكرة الأندلسيَّة الشعريَّة رمزاً للفردوس المفقود في كثير من الأحيان، ومن الإشارات الشعريَّة إلى ذلك قول عبَّيدس بن محمود في قصر قرطبة^(٣):

قصْرُ الأميرِ أبي مروانٍ مُتَّسِعٌ من جَنَّةِ الخُلَـلِ لِدِ السَّرَّاءِ معمورٌ

وقول صاعد البغداديِّ في المنية العامريَّة^(٤):

العامِ رِيَّةٌ أَضَحَتْ كجَنَّةِ الرِّضِ وإنِ

كما تبدو صورة الجنة في حديث الشعراء عن البساتين والمنسزَّهات، ومن ذلك قول لأبي محمَّد عليَّ بن أحمد في روضة^(٥):

^(١) في البيان المغرب : (ترقى) بدلا من (تطرق)، وفي التشبيهات : (هَبَّتْ هَبَ) بدلا من (دَبَّتْ مثل) .

^(٢) النُّعَالِيُّ، يتيمة، ج ١، ص ٣٦٢ .

^(٣) ابن حيَّان، للقتبس (العربي)، ص ٢٦ . وقد وردت هذه الأبيات منسوبة لابن الشَّالِيَّة في : ابن الأثير، الحُلَّة، ج ١، ص ٢٣٠ .

^(٤) المقرَّب، التَّفح، ج ١، ص ٥٨٣ .

^(٥) الحميدِي، الجنوة، ص ١٧٥ .

فَكَأَنَّ الرَّيَّ _____اضَ إِذْ نَحْنُ فِيهَا جَنَّةُ الْخُلَا _____دِ حَلَّهَا الْأَبْرَارُ

وقول ابن شُحَيْصٍ^(١):

وَلَمَّا امْتَرَى فِي جَنَّةِ الْخُلَا _____دِ بَعْضَهُمْ أَقَامَ لِابْصَارِ الْجَمِيعِ مِثَالَهَا
فَلِلْعَلَمِ _____بِأَنْوَارِ الْبَسَاتِينِ حَوْلَهَا وَلِلسَّمْعِ تَفْجِيرُ الْمِيَاهِ خِلَالَهَا

واستوحى الشعراء في بعض المقطوعات الشعرية في وصف الخمر صورة حمرة الجنة بتفاصيل أدق، وبألفاظ مستوحاة من القرآن الكريم، ومن ذلك قول ابن عبد ربّه^(٢):

رَقَّتْ حُشَاشُ _____بُهَا، وَرَقَّ أَدِيمُهَا فَكَأَنَّمَا شَبِيتَ مِنَ التَّسْنِيمِ
وَكَأَنَّ عَيْنَ السَّمِ _____لَسَبِيلِ تَفْجِيرِ الْحَقُولِ عَنْ مَوْجِ حَوْضَةِ _____بِقِ الْجَنَّةِ الْمُخْتَوِمِ

مكتبة الجامعة الاردنية

إِلَّا أَنَّ الشُّعْرَاءَ وَظَفَرُوا صُورَةَ الْجَنَّةِ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ تَوْظِيفًا حَسَنًا مُبَاشَرًا خَالِيًا مِنَ التَّرْعَةِ الدَّيْنِيَّةِ فِي مَفْهُومِ الْجَنَّةِ الْقَرَأَنِيَّةِ، وَدَارَتْ تِلْكَ الصُّورَةُ دَاخِلَ إِطَارِ الْإِحْسَاسِ الْبَصَرِيِّ الْمُبَاشَرِ^(٣).

وقد كان ليقظة الشعراء وسرعة بديهتهم في التقاط التجربة الجمالية الحسية المائلة أمامهم أثر في توظيف حواسهم الخمس في صورهم الشعرية من سمع وبصر وشم ولمس وتذوق، ولا سيما ما تعلق منها في وصف البساتين والمتنزهات، وفي توظيف حاسة السمع المرهفة عندهم بقول أبو حفص بن برد في طيور بستان^(٤):

(١) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٨١.

(٢) لقصد السابق، ص ٩٣، الفاية، ديوان ابن عبد ربّه، ص ١٥٧.

(٣) انظر ما كتبه سلمى الحفظاء الجيوسي عن هذه الظاهرة في دراستها: الشعر الأندلسي، ص ٥٤٧.

(٤) ابن هشام، الذخيرة، مج ١، ص ٣٢٣.

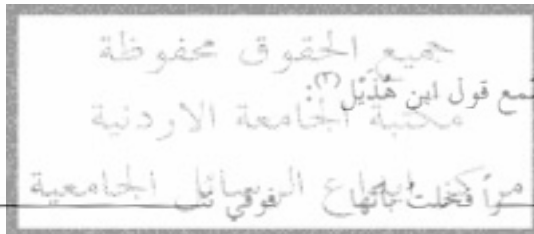
وتضوّعت ربيــــــــــــــــحُ الجنوبِ خلّالَها فحكى لك المــــــــــــــــسكُ الذكيُّ بهارُها

ومن الشّواهد الشعريّة في توظيف حاسة التذوّق قول ابن فرناس في طيب طعم عناقيد العنب^(١):

وقد يُشتهي منها شــــــــــــــــرابُ الدُّمنِ تضرّعُ مشتاقٍ إلى عاشقِ الكبرِ

وقول ابن عبد ربّه^(٢):

وإنَّ عُصــــــــــــــــرتَ مَجَّتْ رُضاباً كأنّها جنى التحلّي من طيبٍ وما تعرفُ التحلا
ومحجوبة حجــــــــــــــــمُ النديّ نواهد تيسُّ بها الأغصــــــــــــــــانُ منادَةً ثقلا
كأنَّ مذاقَ الطّعمِ منها وطعــــــــــــــــمُها لثا ثُ عــــــــــــــــنْذاري ريقُها الشّهْدُ أو أحلى



وتجليت زهــــــــــــــــرا فخلت بها ليلــــــــــــــــة الفوقــــــــــــــــى للجامعيــــــــــــــــة

وقول ابن برد^(٤):

كأنَّ الجــــــــــــــــولَ المنسابَ نصلُ صقيلُ المثنِ هُــــــــــــــــو زُ إلى كفاح

ويلاحظ من خلال الأمثلة السابقة أنّ الشعراء أكثرّوا من توظيف حواسّهم الخمس في وصف البساتين والمتنزهات وفي وصف الخمر، ممّا ينسجم مع نزعة التحرّر عندهم، فالطبيعة الآسرة للألباب والخمرة المذهبة للعقول تحطّم الحواجز النفسية عند الشاعر وتوقظ حواسّه ليحلّق في سماء الإبداع.

^(١) ابن حيّان، المفهيس، (مكيّ)، ص ٢٢٩، جرّار، صلاح، ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ص ١٦١.

^(٢) ابن الككّانيّ، التشبيهات، ص ٧٤ - ٧٥، الداية، ديوان ابن عبد ربّه، ص ١٣١.

^(٣) للمصدر السابق، ص ٥١، شوابكة، شعر يحيى، ص ٨٢.

^(٤) ابن بسّام، الدخيرة، مج ١، ص ٣٢٣.

وتخلق هذه البيئة الجميلة في داخله الإحساس بالوداعة والمهادنة، مما ينعكس في صورته التي تشتمل على الصفات اللطيفة المستسلمة وتبتعد عن الخشونة أو الوقوف على الجوانب القاسية من الحياة عموماً، ومن الأمثلة على ذلك قول ابن بطّال^(١):

تبدّت لنا الأرضُ مزهُـ	علينا ببهجة أنـ
كأن أزاهـ	حوثها ^(٢) أنامـ
تُرى حـ	لألى في عـ
كأن تعانقـ	تعانق حودٍ لأترابها
كأن ترقـ	بكمها لفرقةٍ أحبابها

فالشاعر في الأبيات السابقة يركّز على الجانب المبهج من الحياة فيتحدث عن الأرض في زهوها، ويرسم صورة مفعمة بالإحياء وذات دلالة هادئة ومسالمة، مثل الاحتواء والتأكل والتعانق وترقرق الدموع في الأحفان.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية

كما عني شعراء ذلك العصر بتوظيف الألوان والظلال في صورهم الشعرية، ولا سيما في حديثهم عن العمارة وما يتصل بها من وصف البساتين والمتنزهات، ولم يخرجوا في دلالة الألوان عن تكوينهم النفسي أو إرثهم الثقافي^(٣)، فاللون الأحمر - على سبيل المثال - ارتبط عندهم بلون الدّم أو الياقوت أو شقائق النعمان أو تلون الوجه من الخفر أو الخوف، ومن ذلك بعض النصوص الشعرية التي تصف سطوح مجلس الزهراء ذات اللون الأحمر، فابن شحّيص يشبّها بلون اليواقيت في قوله^(٤):

(١) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٤٨، الحميري، البديع، ص ١٦، وهي فيه ستة أبيات.

(٢) في البديع: حذقا.

(٣) لم يرد هذا البيت في البديع.

(٤) تسفل لوسي بولنزر عن ميشال باستور قوله إن "اللون ظاهرة ثقافية مميزة يستحيل تصوّرها منعزلة عن الزمان والمكان"، ويراه "ككسل إحساس ينبع بفضل الجهاز الحيوي والإرث الثقافي في أن". انظر: بولنزر، لوسي، نباتات الصباغة والتسبيح، ترجمة: مصطفى الرقي، في كتاب الحضارة العربية في الأندلس، سلمي الجبوسي، ج ٢، ص ١٣٨٦.

(٥) ابن الكثاني، التشبيهات، ص ٨١.

وكان ليقظة حواس الشعراء الأندلسيين في العصر الأموي أثر كبير في التفاهم إلى أدق الحركات وأخفص الأصوات عند رسم صورهم الشعرية، ومن الأمثلة على ذلك قول المرادي في تجفاف على صورة ثعبان^(١):

ولروعة الثعبان في حركاته هول يُراغ به الكـمى الأروغ
غضبان يفعـر في الهواء كأنه عطشان في مَهج الأعـادي يكرغ

وقول ابن هذيل في التبال^(٢):

تعاورثهم نبال عن معابلهـا كالتحـل أو كشأيب الحيا الزجل
في كـل واحدة نعي مذبذبـة من رثة الوثـق بر يحكي رثة الثكل

مكتبة الجامعة الأردنية

ولم يكتف الشعراء بإضفاء هذه الحيوية على صورهم الشعرية، إنما اندفعوا إلى أنسنتها، فجعلوها تفرح وتخزن وتناغم وتنجل وتغضب ويصيبها ما يصيب الإنسان من انفعالات وأهواء واضطرابات، ومن الصور الشعرية الجميلة المتعلقة بوصف معالم الحضارة - في هذا الباب - قول جعفر المصحفي في سفرجلة^(٣):

فلما استتمت فسي القضيـب شباها وحاكت لها الأوراق أثواب سـدي
مددت يدي باللطـف أبغى اجتناءها لأجعلها ربحاني وسط مجلسي
فبرزت يدي غصباً لها ثوب جسمها وأعريتها باللطـف من كل ملبس
ولما تعرت في يـدي من برودها ولم تبق إلا في غـلالة نرجسي
ذكرت بها من لا أبوح بذكره فأذبلها في الكـف حر تنفسي

(١) ابن الكثير، التشبيهات، ص ٢٠١.

(٢) للصدر السابق، ص ١٩٤، شوابكة، شعر يحيى، ١١٦.

(٣) للقرني، التضح، ج ١، ص ٥٩٤.

وقول ابن هُذَيْل في خوخة^(١):

في نصفها من حَجٍّ لها حمرة
وبينها طُرُقٌ لَط اف دِقَاقٌ
كأنها في بعضها عاش قٌ
زاحمها لثَمٌ أو لل اق

بل إن من الشعراء من أسقط ذاته ومشاعره على ما يصف، ومن ذلك قول أحمد بن أبي صفوان المرواني في الياسمين^(٢):

لهذا الياس مين علي حق
أنا لشبيهه في الح سن رِق

وقد أخذ بعض النقاد على الصورة الشعرية عند الأندلسيين - في وصف الطبيعة خاصة - أنها "شبيهة بأختها المشرقية في نواحي جمودها، وحديثها عن الزهر الحي بالتشبيهات الجامدة المستمدة من الوشي والأحجار الكريمة وما أشبه"^(٣)، ولكن هذا النوع من التشبيهات لم يكن أغلب شعر الأندلسيين، فقد جاءت بعض تشبيهاتهم فقط جامدة مستمدة من الوشي والأحجار الكريمة وما أشبه. ومن تلك التشبيهات الجامدة في وصف الأندلسيين لجوانب من حضارتهم قول ابن برد^(٤):

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز أيداع الرسائل الجامعية

تأمل فقد ش ق البهار مغلساً
كئامته عن نوره الخ ل التدي^(٥)
مداه ن تبر في أنامل فضة
على أذرع مخروطة من ز د

٥٦٩١٣٢

(١) ابن الككائي، التشبيهات، ص ٨٧، شوابكة، شعر نبي، ص ١٠٥.

(٢) الحميدي، الجذوة، ص ١٢٧.

(٣) عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ص ٨٢ - ٨٣.

(٤) الحميدي، الجذوة، ص ١١٦، ابن خاقان، اللطيم، ص ٢٠٧ - ٢٠٨، ابن بتمام، الذخيرة، مج ١، ص ٣٢٢، ابن دحية، المطرب، ص

١٢٧، المقرئ، التفتح، ج ٣، ص ٥٤٦.

(٥) في اللطيم والتفتح:

تأمل فقد شق البهار كئامته وأبرز عن نوره الخضم ل التدي

وفي الجذوة: (كئامته) بدلاً من (كئامته)، وفي الذخيرة: (عن زهره) بدلاً من (نوره) ..

كَأَنَّ الْجِيءَ ————— إِذِ الصَّافِنَاتِ وَقَدْ عَدَّتْ سَط ————— وَرُ كِتَابِ وَالْمَقْدَمُ عَنْوَانُ

خامساً - الإيقاع :

امتازت القصائد والمقطوعات الشعرية التي تصف المعالم الحضارية في الأندلس في العصر الأموي بتنوعها الموسيقي؛ إذ نظم الشعراء قصائدهم ومقطوعاتهم الشعرية على مختلف بحور الشعر العربي دون استثناء، إلا أنهم لما طبعوا عليه من رقة وترف مالوا إلى البحور المتوسطة والقصيرة، فنظموا أغلب قصائدهم على الكامل والمتقارب والسريع والختيف وما إليها، أما البحور الطويلة فقد كانت عوناً لهم ومقصداً إذا أرادوا التأنّي والإطالة في التعبير عن معلم حضاري يبرزون فيه مهارتهم وقدرتهم الشعرية.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز أيداع الرسائل الجامعية

وقد امتازت أغلب القصائد والمقطوعات في هذه الدراسة بوجود دفق موسيقي فيها يعلو وينخفض وفق مقتضى الحال، ولا سيما فيما يتعلق منها بالفنون عامة، وفنّ الموسيقى خاصة. وإذا أخذنا - مثلاً - مقطوعة عبادة التي يصف فيها راقصة بقوله^(١):

راقصة لا تحسُّ وطأتها كأنها في الحبِّ وبِ كالطَّيفِ
تنقلُّ أقدامَها على عَجَلٍ كأنما رقصُها على سيفِ

(١) ابن حميس، أدباء مالقة، ص ٢٨٩.

وقد مرّ في الفصل الثاني أنّ الأندلس - على الأرجح - قد عرفت فنّ الموشّحات منذ القرن الثالث الهجري^(١)، إلّا أنّه لم تصل إلينا أيّ موشّحة من ذلك العصر، لتعرّف من خلالها بدايات الخروج على عمود الشعر العربيّ في الإيقاع، ومن الأرجح أنّه خروج جاء موافقاً لتطوّر الغناء والموسيقى، وفي بعض قصائد شعراء القرن الرابع ومقطوعاتهم ما يوحي بتأثر الشعر العموديّ بموسيقى الموشّحات دون اقتداء قلبها الشعريّ، ولا سيّما عند هارون الرّماديّ، ويحيى بن هُدَيْل، وأبي عامر بن شُهَيْد، وعبادة بن ماء السّماء.

وقد أدّى ولع الشعراء بالخصّنات اللفظيّة في شعرهم إلى توليد موسيقى داخلية في النّصّ تعزّز جمال الإيقاع، وإن جاء على حساب المعنى في كثير من المقطوعات، ومن ذلك - على سبيل المثال لا الحصر - قول ابن عبد ربّه في حمرة وساق^(٢):

بل ربّ مذهب	بِة المزايج ومذهب الجامعة	جميع الحقوق محفوظة	بِة ريمه وغزاله
وكأنّ كفّ م	ديرها ومديره	فلنك يدور بشم	سبه وهلاله

وقول عبادة على لسان سكّين في غمد أسود^(٣):

أنا ص_____ارم في خوف غمد لم يزلْ بذلّ الأكفّ المالك _____اتي مالكي

والشّواهد على ذلك كثيرة، وقد مرّت في غير موضع من هذه الدّراسة.

كما ساعد تكرار بعض الحروف ذات الجرس الموسيقيّ على إغناء الإيقاع الشعريّ في مقطوعات أخرى، ومن أبرز الأمثلة على ذلك قول الرّماديّ في روضة^(٤):

(١) انظر: الفصل الأوّل، ص ١٩٤-١٩٥.

(٢) ابن الككائيّ، التّشبيّهات، ص ١٠١، الدّاية، ديوان ابن عبد ربّه، ص ١٤٢.

(٣) المصدر السّابق، ص ٢٣١.

لئلا يـ والسوسن والياسمين الـ
 سـ اذت به الروض ومن بينها
 هل لك في الـ سـوى شمة
 والورد إن يذبـ لـ ففي مائه
 والسوء في السوسن عام وفي
 والياسمين الـ الـ الـ الـ الـ
 أعل بالخيرى خلق كـ لـ الـ
 غض والخيرى فضـ لـ شديد
 وبين فضـ لـ الورد بون بعيد
 تطرحه من بعـ لـ الـ في الوقود
 نسيـ مـ ضم الالف بعد الصدود
 ساعة سـ وـ قد نزار اللحد
 فهو لمن يطـ مـ هم عتيد
 لص يستيقـ ظـ بعد المحرود

فنكرار حرف السين ذي الجرس الموسيقي الهادئ في كل بيت من الأبيات السابقة أضفى دفقة موسيقية رقيقة وادعة تناسب الحديث عن الرياض والزهور.

ويبدو لنا في نهاية هذه الدراسة الفنية أن الشعر الأندلسي في العصر الأموي اثنكاً في أغراضه وأساليبه ولغته وصوره وإيقاعه، على الشعر المشرقي أساساً، إلا أنه مع تطور الحضارة الأندلسية في ذلك العصر بدأ ينزع نحو الاستقلال ويشهد عوداً، وبدأت حركة انفصاله وبرز النزعة الأندلسية منذ مطلع القرن الرابع الهجري، وكان لابد من الانتظار حتى مشارف القرن الخامس لتتضح هذه النزعة الأندلسية وتعلن عن نفسها، "ومن الخطأ الكبير ألا نحايلنا عند دراسة الأدب الأندلسي إلا هذا الاستقلال في الشخصية الأندلسية لأننا ندرس أدياً يستند إلى حضارة مشتركة في الشرق والغرب"^(١)، ولكن ينبغي في الوقت نفسه "أن نحاذر من الاعتقاد بأن نتاج الشعراء الأندلسيين لم يكن غير انعكاس شعراء المشرق عليه، فالشعر العربي في الغرب لم يكن محض تقليد وإعادة إنتاج واعية لنظيره في المشرق، بل هو فرع من فروع ووليد من صلبه"^(٢).

(١) ابن الكفائي، التشبيهات، ص ٥٧، حرر: ماهر، شعر الرماضي، ص ٦٢ - ٦٣.

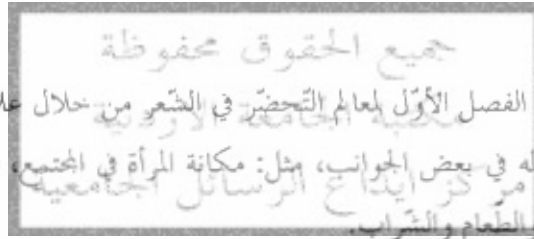
(٢) عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ص ٢٨.

(٣) الجيوسي، الشعر الأندلسي، ص ٤٧٥.

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة معالم الحضارة في الشعر الأندلسي منذ تأسيس الإمارة في سنة (١٣٨هـ) إلى نهاية سقوط الدولة الأموية في الأندلس في سنة (٤٢١هـ).

وقد مُهّد لموضوع الرسالة بحديث موجز عن أبرز ملامح المجتمع الأندلسي الجغرافية والاقتصادية والعرقية والدينية والاجتماعية والسياسية التي أثّرت في تكوين الحضارة الأموية هناك، كما أثّرت في الشعر الذي تعايش مع تلك الحضارة.



وعرضت الدراسة في الفصل الأول معالم التحضر في الشعر من خلال علاقات المجتمع وعاداته وتقاليده، وقد برزت معالنه في بعض الجوانب، مثل: مكانة المرأة في المجتمع، والمجالس الاجتماعية، والرياضات، واللباس والزينة، والطعام والشراب.

ويتناول الفصل الثاني معالم الثقافة في الشعر من خلال الحديث عن النشاط الفكري والعلمي المتعلق بالمناخ الثقافي السائد والعلوم النظرية والدقيقة والكتب والمكتبات والفنون العمرانية والتشكيلية والموسيقية.

أما الفصل الثالث فقد عرض معالم المدنية في الشعر من خلال دراسة التصوص الشعرية التي تناولت النظم والبراسم المتعلقة بالجوانب السياسية والإدارية والعسكرية التي سادت في الأندلس في العصر الأموي، ونظام التشرifications الذي لم يعرف له نظير في ذلك العصر، كما يعرض لجوانب من النشاط الاقتصادي المتعلق بالفلاحة والرّي والحرف والصناعات.

وتناولت الدراسة الفنيّة في الفصل الرابع القصائد والمقطوعات الشعريّة التي عرضت لموضوع الحضارة الأمويّة في الأندلس من حيث: الأغراض الشعريّة، والمضامين، واللغة والأسلوب، والصورة الشعريّة، والإيقاع، وناقشت من خلالها أثر الشعر المشرقيّ في الشعر الأندلسيّ وملامح أندلسيّة الشعر الذي تناول الحضارة الأندلسيّة في عصرها الذهبيّ.

وخلصت الدراسة إلى نتائج، منها أنّ الشعر الأندلسيّ قد واكب جوانب مختلفة من الحضارة الأمويّة، ولكنّ ضياع أكثر شعر ذلك العصر ومصادره، واختصار بعض المؤلفين للقصائد الطوال حال دون المزيد من كشف أثر الشعر في الحضارة وتأثره بها، مع أنّ المصادر المختلفة حوت الكثير من الإشارات التاريخيّة عن علاقة الشعر الأندلسيّ بالحضارة الأمويّة.

وكان لانقطاع الكثير من المقطوعات والقصائد الشعريّة عن سياقها العامّ أثر سلبيّ في عدم الجزم بأنّ تلك المقطوعات والقصائد تناول جوانب مهمّة من تلك الحضارة.

مكتبة الجامعة الاردنية

مركز ابداع الرسائل الجامعية

وبيّنت الدراسة أنّ الشعر كان شاهداً على عظمة الحضارة الأمويّة في الأندلس ورافداً من روافدها، بل إنّ بعض النصوص الشعريّة - ولا سيّما تلك المتعلّقة بالاختراعات والابتكارات - تعدّ ذاها وثائق تاريخيّة وحضاريّة مهمّة.

وكان لرعاية الأمراء والخلفاء الأمويين أثر كبير في نهضة الشعر الأندلسيّ خاصّة والحضارة الأندلسيّة عامّة، وهذا أمر بديهيّ عند حكماء منهم الشعراء والعلماء، إلّا أنّ هذه الرعاية وتجنّب المؤرخين لإيراد أخبار العوامّ في طبّات مؤلفاتهم أدّت إلى الاهتمام بالشعر الرسميّ دون الشعبيّ، وفوّت فرصة الاطّلاع على نشأة الفنون الشعبيّة - ومنها الشعر - والتطوّر الذي مرّت به في شكلها ومضمونها ولغتها.

وتعزّز بعض التّصوص الشعريّة القول بأنّ الأندلس عرفت فنّ الموشّح منذ عصر الإمارة، وعلى الأرجح في زمن الأمير عبد الله بن محمّد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ)، كما بيّنت نصوص أخرى أسبقية الأندلسيين في تطوير جوانب حضاريّة مهمّة في بلادهم أخذها الغرب عنهم فيما بعد.

ودارت أكثر المضامين الشعريّة التي عرضت لها هذه الدّراسة حول الحديث عن الجانب الثقافيّ للحضارة لسببين رئيسين؛ أوّلهما: أنّ العديد من الشعراء كانوا من العلماء والفقهاء والكتاب والوزراء أو من المقرّبين إليهم ومن المتردّدين على مجالسهم. وثانيهما: أنّ الفنون الأندلسيّة شكّلت تجربة جماليّة فريدة من نوعها، ولا يمكن للشّاعر المأسور لكلّ تجربة جماليّة ماثلة أمامه أن يتجاوزها.

وقد أثر الانفتاح الحضاريّ الذي شهدته الأندلس في الشّعر، فسجّل بعض الجوانب الحضاريّة المختلفة، ونجح في الحديث عن الأجناس والأديان والحضارات الموجودة على الأرض الأندلسيّة والتعبير عنها أو الإشارة إليها، دون الخروج عن الإطار العامّ للحضارة العربيّة الإسلاميّة.

وكشفت المضامين الشعريّة التي تناولت جوانب من حضارة الأندلسيين في العصر الأمويّ عن عدد من السمات الحضاريّة التي تمتع بها الأندلسيّ في ظلّ تلك الحضارة، ومن أهمّها: رفعة الدّوق، والرقّة، والتعلّق بالحياة ومباهجها، وحبّ الفكاهة والدّعابة، والتّزعة إلى التّحرّر والتّغيير والتّجديد، والتّسامح، والبعد عن التّكلّف والتّعقيد، وأدب الحوار، والاعتناء بالتّفاصيل الصّغيرة.

ولم تكن المرأة بعيدة عن الحضارة والشّعر في ذلك العصر، وقد اشتملت الكثير من التّصوص الشعريّة على شواهد تبين مشاركة المرأة في مختلف جوانب الحضارة، ولاسيّما ما يتعلّق منها بمشاركة الجوّاري في الحياة الثقافيّة، ولكنّ المصادر التي اطّلت عليها - للأسف الشديد - لم تحفظ سوى القليل جدّاً من شعر التّساء الخرائر أو الجوّاري، مثل: ولادة، وعائشة بنت أحمد القرطبيّة، وصفية بنت عبد الله الرّبيّ، ومُتعة جارية زرياب.

وجاءت التصوص الشعريّة التي عبّرت عن مختلف جوانب الحضارة الأندلسيّة في العصر الأمويّ - وإن لم ترق إلى مستواها - منسجمة مع التكوين الحضاريّ للإنسان الأندلسيّ في طباعه وصفاته وأخلاقه. ولم تخرج في إطارها العام عن الشعر العربيّ المشرقيّ في شكله ومضمونه، ومن الخطأ الظنّ بأنّ الشعر الأندلسيّ كان محض تقليد للشعر المشرقيّ، فالعلاقة بينهما لم تكن علاقة تابع ومتبوع، وإنّما علاقة أصل وفرع، وسبب هذا التشابه بينهما أنّ كليهما نهل من المنابع نفسها، ولم يفصل الأندلسيّ العربيّ المسلم عن جذوره إلّا انفصالاً مكانيّاً، بل إنّ اعتزاز الشاعر الأندلسيّ بانتمائه العربيّ الإسلاميّ المستند إلى قوّة حضارته أدّى بالتصاري واليهود الذين يشاركونه الأرض نفسها إلى التأثير بلغة الشعر العربيّ وشكله ومضمونه في ما ينظمون من قصائد، ولأسباب سبقت الإشارة إليها لم يصل إلينا ما نظمه أولئك من قصائد ومقطوعات.

ومع عدم تنكّر الأندلسيّين لأثر الشعر المشرقيّ في شكل قصائدهم ومضمونها وصورها وأخيلتها وإيقاعها، إلّا أنّ خصوصيّة الحضارة الأندلسيّة بدأت تؤثر في مختلف مظاهر الحياة، وامت التزعة الأندلسيّة في الشعر - تدريجيّاً - منذ بداية القرن الرابع الهجريّ بفضل جهود الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر في تشكيل وعي الأندلسيّين بأهميّة حضارتهم وهويّتها وقوّتها، ولكن سقوط الدولة الأمويّة في الوقت الذي بدأت فيه هذه الحضارة تبنى أركانها في الشعر كان بمثابة سوء الطالع للحضارة الأمويّة التي احتضنت ذلك الشعر ليكون وجدانها النابض وصورها الناطق، وكان من حظّ الشعر في زمن ملوك الطوائف أن يقطف ثمار تلك الجهود المضنية في تأصيل أندلسيّة الشعر عبر قرنين تقريباً.

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر المطبوعة:

- القرآن الكريم.

- ابن الأثير، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨هـ).

- إعتاب الكتاب، تحقيق: صايح الأشتق، الطبعة الأولى، مطبوعات مجمع اللغة العربية

بدمشق، ١٣٨٠هـ، ١٩٦١م.

مكتبة الجامعة الأردنية

- تحفة القادِم، أعاد بناءً وعلق عليه: إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي،

بيروت، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

- كتاب الحلة السَّراء، ٢ ج، تحقيق وتعليق: حسين مؤنس، الطبعة الأولى، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.

- أبو إسحاق الإلبيري، إبراهيم بن مسعود بن سعد التَّجِيبي (ت نحو ٤٦٠هـ)، ديوان أبي إسحاق الإلبيري الأندلسي، تحقيق: محمد رضوان الدَّاية، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

- ابن أبي أصيبعة، موفق الدِّين أبو العباس أحمد بن القاسم السَّعدي الخزرجي (ت ٦٦٨هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: نزار رضا، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.

- ابن بسّام، أبو الحسن عليّ بن بسّام الشّترينيّ (ت ٥٤٢هـ)، الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٤ مج، تحقيق: سالم مصطفى البدريّ، الطّبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت ٥٧٨هـ)، كتاب الصّلة، ٣ ج، تحقيق: إبراهيم الإياريّ، الطّبعة الأولى، دار الكتاب المصريّ، القاهرة، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.

- الثّعاليّ، أبو منصور عبد الملك الثّعاليّ النيسابوريّ (ت ٤٢٩هـ)، يتيمة الدّهر في محاسن أهل العصر، ٥ ج، تحقيق: مفيد قميحة، الطّبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

- الجراويّ، أبو العبّاس أحمد بن عبد السّلام القادليّ، الحماسة المغربيّة، تحقيق: محمّد رضوان الدّاية، الطّبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٩٩١م.

- ابن جزّي الكلبيّ، عبد الله بن محمّد بن جزّي الكلبيّ الغرناطيّ (ت ٨٠٨هـ)، كتاب الخيل (مطلع اليمن والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال)، تحقيق وتقديم: محمّد العربيّ الخطّاطيّ، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

- ابن حزم، أبو محمّد عليّ بن أحمد بن حزم (ت ٤٥٦هـ).

- ديوان الإمام ابن حزم الظّاهريّ، جمع وتحقيق ودراسة: صبحي رشاد عبد الكريم، الطّبعة الأولى، دار الصّحابة للتّراث، طنطا، ج.م.ع، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

- رسائل ابن حزم، ٢ ج، تحقيق: إحسان عبّاس، الطّبعة الأولى، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، بيروت، ١٤٠١هـ، ١٩٨٠م.

- الفصل في الملل والأهواء والنّحل، ٣ مج، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

- الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي (ت ٤٨٨هـ)، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.

- الحميري، أبو الوليد إسماعيل بن محمد (ت ٤٤٠هـ)، البديع في فصل الربيع، تحقيق وتقديم: علي الكردي، الطبعة الأولى، دار سعد الدين، دمشق، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

- الحميري، محمد عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م.

- ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

- ابن حيّان، أبو مروان حيّان بن خلف بن حسين بن حيّان القرطبي (ت ٤٦٩هـ).

- كتاب المقتبس في تاريخ الأندلس، تحقيق وشرح وتعليق: إسماعيل العربي، الطبعة الأولى، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

- المقتبس في أخبار بلاد الأندلس، تحقيق: عبد الرحمن الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.

- المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ج ٥، اعتنى بنشره: ب. شالميتا، بالتعاون لضبطه وتحقيقه مع: ف. كورينطي ومحمود صبح وغيرهما، المعهد العربي للثقافة، مدريد، كلية الآداب، الرباط، ١٩٧٩م.

- المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق وتقديم وتعليق: محمود علي مكّي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٩٠هـ، ١٩٧١م.

- ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان القيسيّ الإشبيليّ (ت ٥٢٩هـ).

- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق وتعليق: حسين خريوش، الطبعة الأولى، مكتبة المنار للطباعة والنشر والتوزيع، الزرقاء، الأردن، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

- مطمح الأنفس ومسرح التآنس في ملح أهل الأندلس، دراسة وتحقيق: محمد علي شوابكة، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار عمّار، عمّان، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

- الخشنيّ، أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الخشنيّ، قضاة قرطبة، نشر: السيّد عزّت العطار، القاهرة، ١٣٧٢هـ.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرميّ، مقدمة ابن خلدون، ٢ مج، دار الكتاب المصريّ، القاهرة، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ١٤٣٠هـ، ١٩٩٩م.

- ابن خليل، أبو عبد الله محمد بن خليل، اختصار القدر المجلّي في التاريخ المحليّ، تحقيق: إبراهيم الإبياريّ، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

- ابن حميس المالقيّ، أبو بكر محمد بن محمد بن عليّ بن حميس المالقيّ (ت ٦٣٩هـ)، كتاب أدباء مالقة (المسمّى مطلع الأنوار ونزهة الأبصار في ما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأعيان، وتقييد ما لهم من المناقب والآثار)، تحقيق: صلاح جرّار، الطبعة الأولى، دار البشير، عمّان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

- ابن دحية، ذو التّسعين أبو الخطّاب عمر بن حسن (ت ٦٣٣هـ)، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الإبياريّ وحامد عبد المجيد وأحمد بدويّ، مراجعة: طه حسين، مطبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة، ١٩٩٧م.

- ابن درّاج، أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج القسطلّيّ (ت ٤٢١هـ)، ديوان ابن درّاج القسطلّيّ، تحقيق: محمود عليّ مكّيّ، الطبعة الأولى، منشورات المكتب الإسلاميّ، دمشق، ١٣٨١هـ، ١٩٦١م.

- ابن التَّراج السَّبيّ، أبو عبد الله محمد بن عمر الأنصاري السَّبيّ (ت ٦٩٣هـ)، كتاب الإمتاع والانتفاع بمسألة السَّماع (أبحاث أدبية وحضارية في عصر بني مرين)، دراسة وإعداد: محمد بن شقرون، الرباط، ١٩٨٢م.

- ابن رزين التَّجينيّ (عصر بني مرين)، فضالة الخوان في طيّبات الطَّعام والألوان، تحقيق وتقديم: محمد شقرون، إشراف: إحسان عباس، الطَّبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤م.

- ابن الرُّوميّ، أبو الحسن عليّ بن العباس، ديوان ابن الرُّوميّ، ج ٢، تحقيق: حسين نصّار، القاهرة، ١٣٩٣هـ.

- الزَّبيديّ، أبو بكر محمد بن الحسن الزَّبيديّ (ت ٣٧٩هـ)، طبقات النحويّين واللُّغويّين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطَّبعة الأولى، طبعه ونشره: محمد الخانجيّ، ج.م.ع.، ١٣٤٣هـ، ١٩٥٤م.

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الجامعة الأردنية

- ابن زيدون، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون (ت ٤٦٣هـ)، ديوان ابن زيدون، شرح وتعليق: عليّ عبد العظيم، دار تحفة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م.

- ابن سعيد، أبو الحسن عليّ بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسيّ (ت ٦٨٥هـ).

- رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق وتعليق: محمد رضوان الداية، الطَّبعة الأولى، مؤسسة طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٧م.

- المغرب في حلى المغرب، ج ٢، تحقيق وتعليق: شوقي ضيف، الطَّبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م.

- صاعد الأندلسيّ، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسيّ (ت ٤٦٢هـ)، كتاب طبقات الأمم، نشره: الأب لويس شيخو اليسوعيّ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢م.

- الصَّفديّ، صلاح الدّين خليل بن أيّك (ت ٧٤٦هـ)، كتاب الوافي بالوفيات، ج ١٦، باعتناء وداد القاضي، دار النّشر: فرانز شتاينر، فيسبادن، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

- الضّبيّ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩هـ)، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ج ٢، تحقيق: إبراهيم الإبياريّ، دار الكتاب المصريّ، القاهرة، ١٩٨٩م.

- ابن عبد البرّ القرطبيّ، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمّد بن عبد البرّ التّمريّ القرطبيّ (ت ٤٦٣هـ)، هجرة المجالس و أنس المجالس وشعذ الذّاهن والهاجس، ج ٣، تحقيق: محمّد مرسيّ الخوليّ، الطّبعة الثّانية، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

- ابن عبد ربّه، أحمد بن محمّد بن عبد ربّه الأندلسيّ (ت ٣٢٨هـ)، العقد، ج ٦، مكتب تحقيق الثّراث، الطّبعة الثّالثة، دار إحياء الثّراث العربيّ، بيروت، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

- ابن عذاريّ، أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن عذاريّ المراكشيّ، كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. مركز ابداع الرسائل الجامعية
أ. ج ١، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، د. ت. أو مكان نشر.
ب. ج ٢، تاريخ الأندلس من الفتح إلى القرن الرابع الهجريّ، د. ت. أو مكان نشر.
ت. ج ٣، تحقيق: إ. ليفي بروفنسال، دار الثّقافة، بيروت، د. ت.

- العماد الأصفهانيّ، خريدة القصر وخريدة العصر (قسم شعراء الأندلس والمغرب)، تحقيق: آذرنوش، تونس، ١٩٦٦-١٩٦٧م.

- القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض السّبيّ (ت ٥٤٤هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: عبد القادر الصّحراويّ
أ. ج ٣، المطبعة المملكيّة، الرّباط، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
ب. ج ٤، مطبعة فضالة، المحمّديّة، المملكة المغربيّة، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م.

- ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي (ت ٤٠٣هـ)، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، ٢ ج، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٧٤هـ، ١٩٥٤م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، عيون الأخبار، ٢ مج، تحقيق: يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.
- ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، مراجعة: عمر فاروق الطباع، الطبعة الأولى، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
- ابن الكتاني، أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطيب (ت ٤٢٠هـ تقريباً)، كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الثالثة، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- ابن كثير، الجافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، ١٥ ج، دار التقوى، القاهرة، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
- لسان الدين بن الخطيب، ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب التلمساني (ت ٧٧٦هـ)، كتاب أعمال الأعلام في من بوع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام (تاريخ إسبانيا الإسلامية)، تحقيق وتعليق: إ. ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦م.
- المراكشي، محيي الدين عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، نشره: محمد توفيق عريضة، القاهرة، ١٩٦٣م.
- ابن أبي المفاخر، صفى الدين عبد المؤمن بن أبي المفاخر الأرموي البغدادي (ت ٦٩٣هـ)، كتاب الأدوار في الموسيقى، تحقيق: غطاس عبد الملك خشبة، مراجعة وتصدير: محمود الحفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٨م.
- المقرئزي، تقى الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرئزي (ت ٨٤٥هـ)، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقرئزية)، ٢ ج، دار صادر بيروت، طبعة أوفست، د. ت.

- المقرئ، أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني المقرئ (ت ١٠٤١هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٨ ج، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م.

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، لسان العرب، ١٥ مج، دار صادر، بيروت، د. ت.

- مؤلف مجهول، تاريخ عبد الرحمن الناصر، تحقيق: إ. ليفي بروفنسال و إميليو غرسية غومس، مدريد- غرناطة، ١٩٥٠م.

- التباهي المألقي، الشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن التباهي المألقي الأندلسي (ت بعد ٧٩٢هـ)، تاريخ قضاة الأندلس (كتاب المرقية العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، المكتب

التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، مكتبة

مكتبة الجامعة الاردنية

- النويري، شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠م.

مركز أبحاث الرسائل الجامعية

- الونشريسي، أحمد بن يحيى (ت ٩١٤هـ)، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب، حوَّجه: مجموعة من الفقهاء، إشراف: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

ثانياً - المراجع :

أ. المراجع الحديثة/ باللغة العربية:

- الأسد، ناصر الدين، القيان والغناء في العصر الجاهلي، الطبعة الثالثة، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.

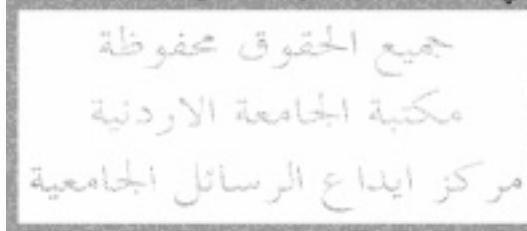
- الباشا، حسن، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، ٥ مج، أوراق شرقية، بيروت، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

- بالنشيا، آنخل جنتالث، تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الإسبانية: حسين مؤنس، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.

- بلر، أحمد، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها (من الفتح حتى الخلافة)، الطبعة الثانية، دمشق، ١٩٧٢م.

- البرقوقي، عبد الرحمن، شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د. ت.

- بروفنسال، إ. ليفي، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.



- جرّار، صلاح.

- (بالاشتراك مع محمد الدروبي)، التوقيعات الأندلسية، الطبعة الأولى، منشورات جامعة آل البيت، الأردن، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

- ديوان الحمراء، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩م.

- جرّار، ماهر، شعر الرمادي يوسف بن هارون (شاعر الأندلس في القرن الرابع الهجري)، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

- خليل، عبد المنعم، الموسوعة الموسيقية المختصرة، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

- الذّاية، محمّد رضوان.

- ديوان ابن عبد ربّه، الطّبعة الأولى، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٣٩٩هـ،
١٩٧٩م.

- ديوان يحيى بن الحكم الغزال، الطّبعة الأولى، دار قتيبة، دمشق، ١٤٠٢هـ،
١٩٨٢م.

- ديب، محيي الدّين، ديوان ابن شهيد الأندلسيّ ورسائله، الطّبعة الأولى، المطبعة العصريّة للطّباعة
والتّشتر، بيروت، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

- راغب، نبيل، أساسيات التّفد الفنّي، الطّبعة الأولى، الشّركة العصريّة العالميّة للتّشتر، بيروت،
١٩٩٦م.

- الرّزغول، جهاد، الحرف والصّناعات في الأندلس منذ الفتح الإسلاميّ حتّى سقوط غرناطة،
الطّبعة الأولى، مركز الأفاق، عمّان، ١٤٢١هـ، ٢٠٢٠م. دار دنيّة
مركز أبحاث الرّسائل الجامعيّة
- سالم، سحر السّيّد عبد العزيز، شاطبة الحصن الأماميّ لشرق الأندلس في العصر
الإسلاميّ (التّاريخ السّياسيّ والحضاريّ)، مؤسّسة شباب الجامعة، الإسكندريّة، ١٩٩٥م.

- سالم، السيّد عبد العزيز.

- بحوث إسلاميّة في التّاريخ والحضارة والآثار، ٢ ج، الطّبعة الأولى، دار الغرب
الإسلاميّ، بيروت، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخيّة عمرانيّة أثرية في العصر
الإسلاميّ)، ٣ ج، دار النهضة العربيّة للطّباعة والتّشتر، بيروت، ١٩٧١م.

- سالم، عبد العزيز صلاح، الرّياضة عبر العصور/ تاريخها وآثارها، مركز الكتاب للتّشتر، القاهرة،
١٩٩٨م.

- شاك، فون، الشعر العربي في إسبانيا وصقلية، ٢ ج، ترجمة: الطاهر أحمد مكّي، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩١ م.
- شليبي، سعد إسماعيل، الأصول الفنية للشعر الأندلسي (عصر الإمارة)، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
- شوابكة، محمد علي، شعر يحيى بن هذيل القرطبي الأندلسي، الطبعة الأولى، منشورات جامعة مونة، الكرك، الأردن، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦ م.
- صدقي، عبد الرحمن، ألحان الحان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٧ م.
- عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، الطبعة الأولى، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٠ م.
- عبد العزيز، نبيل محمد، رياضة الصيد في عصر سلاطين المماليك، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٩ م.
- العطّار، سليمان، الحداثة العباسية في قرطبة (دراسة في نشأة الموشحات)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.
- العكش، إبراهيم علي، التربية والتعليم في الأندلس، الطبعة الأولى، دار الفيحاء ودار عمّار، عمان، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م.
- عنان، محمد عبد الله، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٠ هـ، ١٩٧٠ م.
- عيد، يوسف، الفنون الأندلسية وأثرها في أوروبا القروسطية، الطبعة الأولى، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٣ م.
- غومس، إميليو غرسية، الشعر الأندلسي (بحث في تطوره وخصائصه)، ترجمة: حسين مؤنس، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦ م.

- فارمر، هنري جورج، تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة: حسين نصّار، مراجعة: عبد العزيز الأهواني، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٦م.

- مؤنس، حسين، معالم تاريخ الأندلس والمغرب، الطبعة الأولى، دار ومطابع المستقبل، القاهرة، ١٩٨٠م.

- المهدي، صالح، الموسيقى العربية / مقامات ودراسات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.

- مورينو، مانويل جوميث، الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة: لطفي عبد البديع والسيد محمود سالم، مراجعة: جمال محمد محرز، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٨م.

- هونكة، زيغريند شمس المغرب تسلط على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، مراجعة: مارون الخوري، الطبعة السادسة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

- هيكل، أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، الطبعة العاشرة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م.

بج.المراجع الحديثة/ باللغة الإنجليزية:

- Bekwith, John, Caskets From Cordoba (Victoria & Albert Museum), Her Majesty's Stationery Office, London, ١٩٦٠.

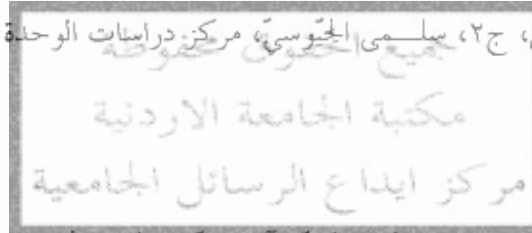
ج. الرسائل الجامعية:

- محمد مولود المشهداني، الشعر الاجتماعي في الأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الطوائف، رسالة دكتوراه، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٩٠ م.

ثالثاً - بحوث منشورة في:

أ. كتاب لمجموعة مؤلفين:

- بولنز، لوسي، نباتات الصباغة والتسيج، ترجمة: مصطفى الرقي، في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج ٢، سلمي الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٩٩ م.



- بيرغل، ج.ك. التثوية والانضباط في الفن الإسلامي: خطوات نحو مقترح جديد، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج ٢، (مرجع سابق).

- ترند، ج.ب.، إسبانيا والبرتغال، تعريب وتعليق: حسين مؤنس، في كتاب تراث الإسلام، ج ١، لجنة الجامعيين لنشر العلم، مكتبة الآداب ومطبعتها، القاهرة، ١٩٤٦.

- الجيوسي، سلمي الخضراء، الشعر الأندلسي/ العصر الذهبي، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج ١. (مرجع سابق).

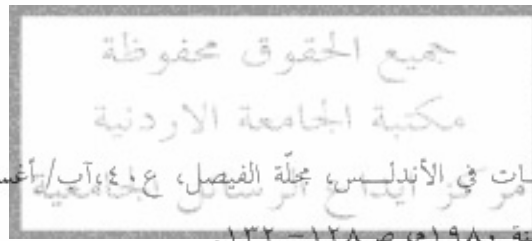
- رايت، أوين، الموسيقى في الأندلس (دراسة شاملة)، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، في كتاب الحضارة الإسلامية في الأندلس، ج ١، (مرجع سابق).

- عاشور، سعيد عبد الفتاح، الحياة الاقتصادية في الدولة الإسلامية، في كتاب دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

- عباس، إحسان، التعليم في الأندلس حتى نهاية القرن الرابع الهجري، في كتاب الحضارة الإسلامية، ج ١، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، عمان، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.

- غرابار، أولغ، نظرتان متضاربتان إلى الفن الإسلامي في شبه الجزيرة الإسبانية، ترجمة: محمد الأسد، في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج ٢. (مرجع سابق).

ب. الدوريات:



جرّار، صلاح.

- الحمّامات في الأندلس، مجلّة الفيصل، ٤١٤، آب/أغسطس - سبتمبر/أيلول، الرياض، سنة ١٩٨٠م، ص ١٢٨-١٣٢.

- رياضة الطلبة في الشعر الأندلسي في عصر بني الأحمر، مجلّة مجمع اللغة العربية الأردني، ع ٥٠، سنة ٢٠، عمّان، جمادى الأولى - شوال ١٤١٦هـ، كانون الثاني - حزيران ١٩٩٦م، ص ٢٩-٦٢.

- عباس بن فرناس شاعراً، مجلّة مجمع اللغة العربية الأردني، مج ١٤، ع ٣٨٤، عمّان، ١٩٩٠م، ص ٧٧-١٢٢.

- الفنون الشعبية في الأندلس وصلتها بالتمثيل، مجلّة مؤتة للبحوث والدراسات، مج ١ الكرك، الأردن، ١٩٩٤م، ص ٩١-١٤٢.

- ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، مجلّة مجمع اللغة العربية الأردني، مج ١٤، ع ٣٩٤، عمّان، ١٩٩٠م، ص ١٥٥-١٧٨.

ج. وقائع المؤتمرات:

- سالم، سحر عبد العزيز، ملابس الرجال في الأندلس في العصر الإسلامي، بحوث ندوة الأندلس في العصر الإسلامي، بحوث ندوة الأندلس (الدرس والتاريخ)، كلية الآداب/جامعة الإسكندرية ورابطة الجامعات الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

د. أبحاث غير منشورة:

- حرار، صلاح، صور من التسامح اللّين في الأندلس: احتفالات المسلمين بأعياد المسيحيين. (قيد النشر).
جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

Abstract

Civilizational Characteristics in The Andalusian Poetry in the Umayyad Period (138 - 421 A.H/ 756- 1039 A.C.)

By
Ferial A . Al-Ali

Supervisor
Prof. Dr. Naser E. Al-Asad

Co-Supervisor
Prof. Dr. Salah M. Jarrar

This study deals with the subject of the civilizational characteristics as appears in the Andalusian poetry since the establishment of the Umayyad Emirate (138 A.H.) until the end of the Umayyad Caliphate (421 A.H.)

جميع الحقوق محفوظة

I could conclude from this study, which dealt with the Andalusian society including its civilization, culture and urbanization, that poetry was an evident on many aspects of civilization in that period. It also contributed to the development of civilization. There was however some ambiguous aspects, because of the loss of many books and poetical texts written in that period.

The historical remarks assure the poets' care of the Andalusian civilization.

The Andalusian poetry relied on the Oriental poetical heritage both in its styles and subjects. But it took later in seeking its independence since the fall of the fourth century of Hijra during the reign of khalifa Al-Naser (300 - 350 A.H.) and his son and predecessor khalifa Al-Mustansir (350 - 366 A.H.).